
جان كلود مارغرون
السكان القدماء
لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
ترجمة
سالم سليمان العيسى
دار علاء الدين
Мертвое море
Медина
Мекка

السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين

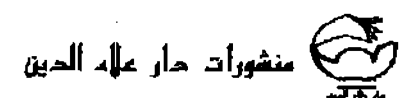
وسورية الشمالية

جان كلود مارغرون

السكـــان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية

التراث والكنز الثمين الذي أبهر الأجانب
مفخــرة ســورية

نقله إلى العربية: سالم سليمان العيسى



دمشق - ١٩٩٩

الطبعة الأولى

التنضيد الضوئي : دار علاء الدين للطباعة والتوزيع والنشر

الإخراج الفني : هيفاء الرفاعي

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دمشق: دار علاء الدين

ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ - ٢٣١٧١٥٨

فاكس: ٥٦١٣٢٤١

مقدمة المترجم

لم ترقَ الهندسة المعمارية والتقنية في سورية الجنوبية إلى مثيلاتها في سورية الشمالية التي حالفها الحظ بالازدهار والتطور كما هو الحال في بلاد مابين النهرين وفي انطاكية ومنطقتها. ورغم أن ازدهار سورية الجنوبية كان يرتكز على زراعة الكرمة والثمار والحبوب، خاصة مع طول المنعطفات الجبلية البركانية، التي كانت تزدهر فيها زراعة الحبوب في سهول الغرب والجنوب، والتي كان من نتائجها القيام بمشاريع بناء واسعة النطاق، ليس فقط في العصور الآثارية القديمة، ولا في العصر القبطي والروماني، بل أيضاً في العصور المتأخرة من بيزنطية وعربية .

إن نقص الخشب في الجنوب الذي كان يستورد من لبنان أوجد حلولاً هندسية ذات أهمية، عزّزت استخدام مواد البناء وابتكار نماذج هندسية متطورة في ذلك الزمن، مثل : استخدام الخشب أثناء البناء في أنشاء (القبب) وفي عمار القصور والكنائس، الذي نلمس روعته حتى الآن في كاتدرائية "بصرى" وفي العديد من المواقع الآثارية الأخرى .

أما في الشمال ، كان وادي الفرات مركزاً مهماً جداً للاسكان، يمثل نموذجاً استثنائياً لبلاد تمتعت بحضارة مميّزة كانت جميع مكوّناتها وعناصرها مترابطة مع بعضها طيلة وجودها .

نعم . إنهم السكان السومريون – الحوريون – الأكاديون– السوريون الذين تواجدوا في بلاد الدجلة والفرات، انهم جميعاً من الأصل السامي مصدر قوميتنا العربية، وهذه هي حقيقة تاريخية ثابتة أيدتها المكتشفات الآثارية الأخيرة وأخذ بها العلماء الحديثون بالاجماع تقريباً . غير أن الكثير من الكتاب العرب الذين كتبوا في تاريخ الحضارات العربية لم يتناولوا هذا الدور بشكل مستفيض في بحوثهم، ولعل مرد ذلك، إلى ضعف المكتشفات في ذلك الوقت نظراً لضعف وسائل الحفر والتنقيب المتاحة حينذاك، وإلى اصطباغ التنقيب بصبغة اختصاصية بحتة انحصرت بالبحوث الآثارية . غير أن كتّابنا الاقدمون اتجهوا بعمق نحو

البحث في العصور الجاهلية، فتركوا فراغاً مهماً في قسم من تاريخنا العربي الجدير بالاهتمام كان الاولى باستكماله، خاصة وأن خيوطه في حدوده الرئيسية كانت متوفرة .

فقد ترك للتوراة وما أسند إليها من كتابات، قبل الاكتشافات الأخيرة، بأن تكون المصدر الأساسي الذي يرجع إليه الباحثون في تدوين تاريخ ووقوعات الشرق الأدنى فبقيت التوراة وبعض الكتب المستندة اليها هي المرجع لمدة طويلة لانعدام الادلة والبراهين القاطعة، إلى أن كشف العلماء الحديثون عن طريق الحفر والتنقيب بالوسائل الحديثة، التراث الثمين الذي خلفه لنا الأقدمون من: سومريين – واكاديين – وكنعانيين – وفينيقيين – وحثيين – وبابليين – وآشوريين – ومصريين – عن الكثير من الأمور والوقائع الاساسية التي كانت غامضة لدينا. ويمتاز هذا التراث بصوره وكتاباته بكونها معاصرة للعصر الذي تعود إليه، نذكر منها بعض المواقع الرئيسية التي عرفت حتى الآن، على سبيل المثال، مثل: اوروك – أور – أيريدي – حلف – ايبلا – ماري – سهل العمق الخ ...... مع العديد من التلال التي سيظهر بثبات أسماء حاضراتها. ذلك بخلاف التوراة التي نقلت بعض الأحداث والوقوعات نسبتها إلى اليهود، مع أنها كانت ترجع إلى عهود بعيدة سبقت عهد التوراة بعشرات القرون .

لذلك، اعتبر العلماء المحدثون اكتشاف هذه الصور والكتابات الأثارية من أعظم انجازات الإنسان في هذا العصر، وكونها باتت مراجع موثقة وثابتة تزودنا بالبراهين والبينات التي كان يحتاج إليها من سبقنا من الباحثين، لتقرير الحقائق عن هذه العصور القديمة المفعمة بالوقائع والأحداث والتنظيم والابتكارات، حيث، أخرجتها من دائرة الحدس والتخمين إلى دائرة البرهان المعقول والبينة المقبولة .

من اهم ما أوضحت لنا هذه الاكتشافات العلمية الحديثة ما يلي :

١- تتبع أزمات الهجرات من والى بلاد ما بين النهرين قبل ظهور النبي موسى وذكر دور هذه الهجرات العربية في تطّور وتقدم الحضارة السامية .

٢- تحديد زمن الأحداث التاريخية المهمة التي كانت تقرر مصير شعب بكامله، سواء من حيث الوقائع الحربية أو من حيث السلالات الحاكمة في كل عصر من العصور، حسب تسلسلها الزمني وعلاقة الاقوام بعضها ببعض وتحديد أدوارها .

٣- ابراز الظروف المادية لحياة سكان بلاد ما بين النهرين، ومختلف أعمالهم مع ذكر طريقة وتطور عيش السكان وزيادة الاهتمام بالزراعة البعلية، ومن ثم بالزراعة

المروية مثل: زراعة البساتين والحبوب بأنواعها، واستنباط مواد غذائية جديدة، وأيضاً نظام الأراضي وملكياتها، وتدجين بعض الحيوانات البرية والاستفادة من طاقاتها في الحمل والنقل.

-٤- اكتشاف المعادن ومن ثم ابتكار استخدام النار في جميع وسائل التعدين من: حجر وخشب وحديد وجبصين وفخار وبرونز ونحاس وقصدير وزرنيخ ورصاص ومعادن أخرى.

-٥- استخدام طرق النقل البرية، ومن ثم البحرية وابتكار وسائل النقل البرية (الحمار الثور – الحصان – الجمل) والبعض منها في الوسائل الزراعية (كالحمار والثور) ووسائل الجرّ – ووسائل النقل البحرية (من قوارب ومراكب وغيرها) .

-٦- تبيّن ان الكثير من القصص والاساطير والشرائع التي نسبت إلى بعض الأقوام أو الشعوب، أو الكنايات، ترجع إلى اصل قديم جداً حيث عثر بنتيجة التنقيب، على ماشابه لها في الوثائق السومرية والاكادية والكنعانية والبابلية والآشورية حتى أن هذه الوثائق أبانت بأن الشرائع الواردة في التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل .

-٧- لعبت المياه دوراً رئيسياً في ازدهار وتطور بلاد ما بين النهرين، كونها محصورة في مكان معين فقد أسهمت بفاعلية في تثبيت سكن المجموعات البشرية سواء كانت المياه جوفية أو نهرية .

-٨- أما بالنسبة لتحديد الازمان والتواريخ فيما يخص الوقائع والاحداث نورد الإيضاح التالي :

في بدء الألف الثانية ق.م كان الحكم يقاس بعدد السنين التي أمضاها الحكم فكان يُعطى لكلّ سنة اسم يختص بذكراه في السنة اللاحقة، ولا يوجد أي رابط منطقي يربط سنين الحكم للملك. كما كان الآشوريون يلقبون السنة باسم أحد الشخصيات الكبيرة في الدولة، فتؤرَّخ الوقائع بمساعدة هذا الاسم. ومع ذلك كان بالامكان الوصول إلى قائمة تتضمن جميع الواهبين الامر الذي ساعد المؤرخ المعاصر على الاحتفاظ بجدول تاريخي مترابط. وبمثل هذا، أتيحت المطابقة مع جميع المصادر الجاهزة مثل: حساب الاعياد السلوقية – وقائمة واهبي الاسماء من الآشوريين – والملاحظات الفلكية – وجداول الأسر المصرية، مما أتاح اعداد مسلسل للاحداث التاريخية واعتبارها صالحة لتحديد التاريخ بفرق بسيط (سنة أو سنتين) .

قد يساعد هذا الكتاب على كشف ما كان غامضاً في ماضي بلاد ما بين النهرين وتقدير الأفكار والابتكارات التي كانت تتميز بما كان يمكن اعتبار محتواه، من ضمن المراجع الرئيسية التي تثبت أهمية الدور الذي قام به اسلافنا من الاقوام السامية المار ذكرها، في الاسهام (كل فيما خصه) بتحضير وتطوير بلاد ما بين النهرين وازدهارها في الزمن القديم. وبأن هذه الدور خاص بهم دون غيرهم من بقية الأقوام. فكان دوراً فعالاً لا يقل أهمية عن أدوار التقدم التقني الحالي (إذا ما وضع في الحسبان فرق الازمنة) . ومن فوائد هذا الكتاب أيضاً ان المؤلف وما ساقه من ادلة وثبوتيات كان منصفاً حقاً، باعتباره من الاخصائيين المهتمين بالتنقيب والآثار في بلاد الشرق الأدنى .

لذلك ان ما يحتويه هذا الكتاب من وقائع وثبوتيات قد يساهم في تقديم الجديد لدى اعادة النظر في الوقائع المدوّنة خطاء عن مدنيات الشرق القديم عامة، وعن تاريخ بلاد ما بين النهرين خاصة . والله الموفق

سالم العيسى

المدخل

سكان بلاد ما بين النهرين، من هم؟ هل بقي البعض منهم ؟ لنقل لا يزال البعض من خلفائهم قاطنين فيها– يؤيد ذلك حقائق، قيّمة. فهم السومريون – الكاديون – الآشوريون الحوريون – السوريون ...... الذين تواجدوا حقيقة، ولكن في بلاد دجلة والفرات لم يتكنّ أي واحد من هؤلاء باسم (القاطن بلاد ما بين النهرين Mesopotamien)) .

بالواقع فإن عبارة بلاد ما بين النهرين التي تحدد معنى الحوض المائي الهيدروليكي المكوّن بواسطة هذين النهرين هي راسخة حسب الواقع، ولم يطغَ عليها تسمية حضارة بلاد ما بين النهرين المستخدمة في أزمنة أخرى، حيث جرت العادة عدم تسمية سكانها بمثل هذه الكلمة (سكان بلاد ما بين النهرين) التي تصدَّرت كعنوان لهذا الكتاب. وفيما عدا الافتتاحية الواردة في هذه المجموعة، ورغم كون هذا العنوان الأخير مرضياً، يوجد هناك أيضاً نظرة خاصة تتخلّلها الفائدة المرجوة التي تنتهي إلى وضع البصمة على مجمل هذا المؤلَّف عن طريق تبني فكرة بسيطة ومفيدة ألا وهي : – التعريف بفائدة اقتصادها وبطبيعتها انسجاماً مع مفهوم هذا العنوان .

أما وجهة النظر تعود إلى عالم الآثار في الأراضي التي قادته خبرته خلال ثلاثين سنة إلى تفهم مقدار قيمة الحضارة التي توصل إلى دراستها في التلال، على ضوء تلك الآثار المادية التي عثر عليها والتي أمكن تحديدها بفضل خصائصها الطبيعية والأساسية، خاصة وأن التوق والرغبة تتمثلان في استخدام خبرة التنقيب لإظهار إطار هذه الحضارة الفطرية الموهوبة التي زاد تبلورها وأمكن استقراؤها عن طريق النصوص .

علماً بأن الأخذ بهذا الاقتراح الأخير والمذكور لا يشكل بالنسبة لي أي جدل، حيث يمكن لعلماء الآثار وعلماء النقوش اللجوء إلى المزاحمة أو التنافس بطرق مختلفة، ولكن بصفة مشتركة وواعدة للوصول بشكل صحيح إلى ماضي بلاد ما بين النهرين، لأن الخبرات الحديثة في تنقيب الآثار عندما تُوجّهْ وتُسيّرْ بانسجام من قبل الفرقاء الجيّدي الوفاق والالتحام،

تصل حتماً إلى نجاحات مشهدية. ولكن يجب على كل خاصية أثارية أن تحافظ على اصالة هذا العمل التمهيدي الذي ستتجلى فيه حضارة بلاد هذين النهرين .

وهكذا لا بد من رسم وتصميم لوحة عن الحضارة في بلاد ما بين النهرين بانطلاقه منهجية، حسب المستطاع، بالاعتماد على الآثار الباقية التي تبرزها لنا تلك التلول، ولكن بالنسبة لي، وفي هذا المجال يُوجل النظر بالموضوع المادي، كما لا يمكن إعادة الشرق القديم إلى تكوينه الطبيعي أو إلى الآثار المستحدثة المتوارثة عرضياً أو عمداً. أو إلى التدمير والعدم الذي ابتلع الأفراد والجماعات، أننا نجد خلف الناحية المادية يكمن الفكر والعقل، استُخدِما، إضافة إلى الحظ، لبناء الحضارة في بلاد ما بين النهرين، مادة الفخار تلك المادة القيمة التي كانت الدعامة الأساسية لذلك التطور، والتي بحق وافقت ديمومة التراث. وهذا ما جعلنا نتطلع إلى ما وراء المظهر المادي أي إلى الفكر النيّر الذي عندما راجعنا في كل مرة، نكون أمام تحفة أثرية سهلت علينا فهم وادراك كنهها.

لذلك نتوخى، خلال مسيرتنا الهادفة، توطيد العزم على إبراز الظروف المادية لحياة سكان بلاد مابين النهرين ولمختلف أعمالهم، حتى لو أمكن التوصل إلى أضعف حالة أو صورة منتقاة، تضمنت مستغرأ لعديد من المسائل المرتبطة بالخواص التقنية، حتى ولو كانت لقيات عارضة ليس لها علاقة بمعطيات أعمال التنقيب المباشر. حيث وجد أن غالبية أزمان التنقيب استنفذت في سبيل معرفة وإدراك تقنيات وآثار مختلفة، سواء رغبنا بذلك أم لا، وإذا ألقينا نظرة متفحصة نجد أن أغلبية المنشورات الإيضاحية والمفّسرة كانت تتناول البحوث المستجرّة التي تخص: السومريين – والبابليين – أو الأكاديين والآشوريين والحوريين، وفيما يخص الاستشراق فهو غاية ومعنىً قديم، وأساسي مع أحداث الساعة .

ولكنْ، بالعكس، تبين لي بأن صيغ ونطاق الحياة في تلك البلاد، رغم تنوّعها، كانت تجمع أكثر مما تفرق الجماعات البشرية القاطنين فيها، فنجدهم قد تتابعوا وتمازجوا في هذا الشرق الأدنى رغم سلالاتهم العريقة. لذلك على ضوء هذه العوامل وعدم تجاهل حقيقة هذه الفروقات، فإنني بكل تأكيد أؤيد كل عامل يقرب بين الشعوب والمناطق وأنبذ كل عامل تفريق.

من جهة أخرى، ومع اهتمامي بدراسة خصائص سكان بلاد هذين النهرين بكونهم (الميزوبوتاميان) حسب تسميتي في هذا المؤلف فإنني أرغب تركيز الاهتمام على خاصية تلك

الحضارة المكتشفة بطرق عديدة، منذ منتصف القرن الأخير. لأنه قبل التنقيبات الأولى لم تكن هذه البلاد معروفة إلا بالنص المكتوب كالكتاب المقدس مثلاً، كما رافق نبش وتحرير قصور الآشوريين الأثرية البعض من الصفائح التي تَلِفَتْ بمدة وجيزة، بعد أن أشركنا بشكل ضيق ومحدود، النصوص بعلم الآثار، يحدونا السعي لتوافق النص المكتوب مع الزمن ومع الوضع الحضاري، ومذ ذاك الحين أصبحت النصوص هي المستخدمة في توصيف الشعوب والحقبات الزمنية البارزة في العصور التاريخية، مثل شعب – سومر وأكاد اللذان لم يكونا مجهولين في ذلك الزمن لأن لفظهما كان رائجاً في العصور القديمة. ولكن هذا التسجيل لم يحدث إلا منذ بدء الألف الثالثة، أي بعد الظهور الأولي للوثائق المكتوبة واعتبارها مرجعاً قانونياً بينما لم يكن لها أي اعتبار خلال الثلاث أو الأربعة آلاف سنة التي سبقتها لم يعرف خلالها كُنهُ أية لغة. لذلك نحن مساقون لاتخاذ وقفة مناسبة لدراسة وفهم وقائع الزمن الذي سبق ظهور الكتابة والخط، واضعين جانباً كل ما يتعلق بالحضارة المادية السابقة، ولهذا ومن وجهة النظر التاريخية ، يبدو الأمر أكثر أنصافاً، إذا أُطلقت عبارة (الميزوبوتاميان – Mesopotamiens) عوضاً عن كلمة الجزيرة أو غيرها، حيث يتمثل في تلك العبارة الاستمرار والوحدة العميقة لهذه الحضارة التي صيغت واختلفت منذ العصر (النيوليتيكي) لتموت في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد .

قد يمكن لهذه العبارة أن تُمَثِّل إنتقاءً محموداً لمظهر أساسي ورئيسي لهذا الواقع، لأن بلاد ما بين النهرين تمثل نموذجياً استثنائياً بكل معنى للكلمة، لبلاد عرفت وتمتعت بحضارة كانت جميع مكوناتها وعناصرها مترابطة طيلة وجودها. غير أن ذلك لا تعني أنها تمتعت بنظام مغلق كما هو الحال في مصر، لأن جميع تحولاتها الناجحة والمتدرجة اتسمت برشيم ومنبت صالح منذ الانطلاق، وبتطورات متوالدة، ومن خلال الصفحات القادمة سأوضح جميع الأوضاع الخاصة بها، التي أنقلها بصدق والتي قد يلمس البعض فيها بعض الإفراط .

ولا بد من التركيز والإطراء على خاصية هذه الحضارة (بلاد ما بين النهرين) الصافية التي دامت زمناً طويلاً، لأن البحوث التاريخية الحديثة تورد قليلاً من النقاط المتدرجة، التي تساعد على معرفة طول مدة هذه الحضارة، أما الكفاف في التخصص بالأعمال التاريخية فإنها بالكاد وصلت في نطاق بحوثها إلى معارف مجزأة، فقد ركزت نبراتها ومجهودها، حسب الفرص المتاحة لها، وحسب تذبذب الوقائع ومجرى التاريخ،

وحسب المظاهر الخاصة والسائدة في كل زمن. غير أن بلاد ما بين النهرين لا تملك فقــط، من وجهة النظر الحضارية، طابع صناعة الكتابة والخط، منذ ثلاثة آلاف سنة، التي اعتُبرت مكتشفٌ اساسيٌ غير تقني، ولكن أيضاً تنازع وتناسخ اللغات التي رافقت التنمية فـي أراضٍ قاحلة في بدء سكناها، لأن الأشخاص الذين تمركزوا فيها جُوبهوا بصعوبات ومسائل كـانت تستوجب الكفاح لضرورة العيش خاصة وهي مُستجدّة وذات طابع جديد، ومع ذلك رغم تلـك الصعوبات، فقد تلمسوا الأجوبة الأساسية التي وصفت وعرّفت ببلاد ما بين النـهرين حتـى نهاية اللألف الأولى ق.م. حيث تمكّنوا من إيصالها إلى شبه مختـبر أعـدت فيـه جميـع الخصائص الأساسية لمختلف الحضارات القديمة، ويكن حتى التمادي إلى الأسس التقنية لكـل ما عاش واستمر حتى تاريخ بدء لنهضة الصناعية التقنية التي ابتدأت في القرن الثامن عشر. ولكن هذا ليس هو محط حديثنا هنا، وما نقصده هو ابراز إحدى الفوائد الاستثنائية التي قدمتها حضارة بلاد ما بين النهرين من المكوّنات ومن النضج واليناعة، لأن شيخوخة أو هرم أيـة حضارة تساعد على انعكاس سلبي للثقافة، خاصة فيما يتعلق بهذا الموضوع الحضاري الـذي لا يزال يكتنفه بعض الغموض .

فإذا الواجب يستدعي شرح وتفسير مجمل الحضارة لبلاد ما بين النـهرين فـي كـل ما يتعلق بتركيبها المحورية، ويجب أن لا ننسى أيضاً عوامل التفرقة فيها: بالحقيقة، بمقـدار ما وطّد المحيط والبيئة بعض الثوابت الفريدة، فإن الرجال قد أعادوا قولبة ما هو دائم. فـلا يمكن أن ننسب ذلك إلى عامل الزمن أو التاريخ، ولا أن نضع ذلـك علـى عـاتق تطـور الفعاليات أكثر من تأثير الأحداث التاريخية الطارئة التي أمكن حتى الآن أبرازهـا فعندمـا أنشئت القرى مع طول الوادي، لم يتوقع تطورها بمثل هذا الشكل والتقنية، التي بفضل الصيغ المادية وفّرت هذه الحضارة إنطلاقتها وحقّقت هذا التطور المنطقي ...... فهذا مـا أحببـت أبراز قيمته .

قد يحلو للبعض انتقاد منتخبي هذا، ولكن علينا أن نتذكر مع السيد (بلوتلين) بأن الصيغ والأشكال والصور تبقى المنعكس للأفكار، وعلى ما أعتقد، لا يوجد مبررات أفضل لمثل هذا التمهيد الآثاري لتلك الحضارة .



شجرة النخيل في وسط الخرائب البابلية



البيئة الطبيعية والوسط التاريخي



مشهد طبيعي في سهل الدلتا



النخيل (الزريفة) والقارب هي العناصر السائدة

في منطقة بلاد ما بين النهرين.



بستان النخيل تحت تأثير الرياح على حافة القنال

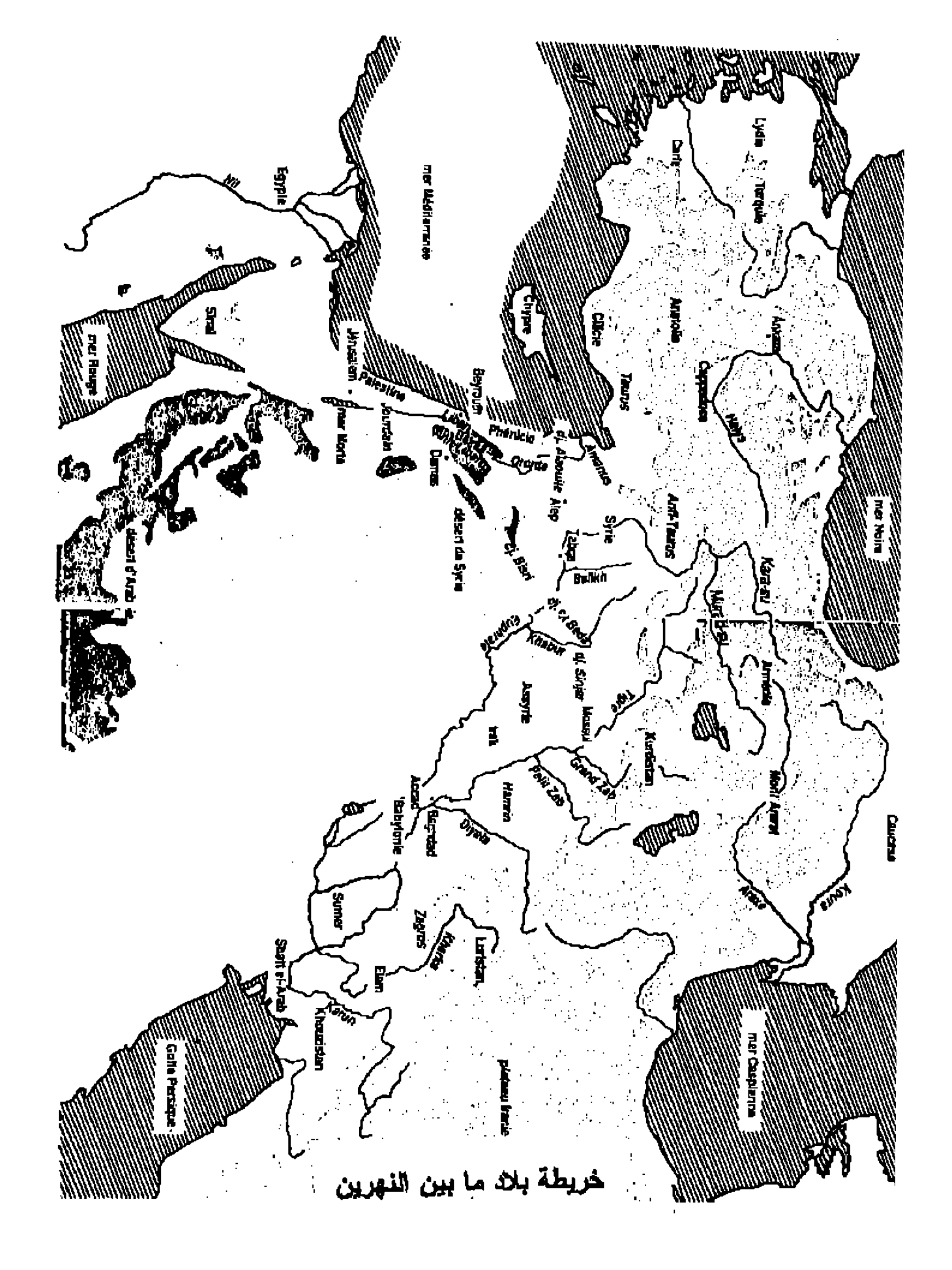
الدجلة [التيغر]

ويسمى – الدجلة – باللغة العربية وهذه الكلمة مشتقة من كلمـــة (تجـلات Teglat) وتعني السهم في القديم، ينبع من جنوب شرق تركيا، إنه سيل متدفق من الجبال يدخل منطقـة الجزيرة وينتشر بشكل الشُعبْ وبجريان سريع، ولدى وصوله إلى السهل الغريني في سامراء يـــهدأ اندفـــاع مياهـــه، ثـم يتعـاظم باســتقباله الــزاب الكبـير والــــزاب الصغـــير (٣٩٢- و - ٤٠٠كم) – ورافد الأدهيم Adhaim (٢٣٠) وديالا (٣٨٦كم) الذي لعـــب دوراً كبيراً خلال بعض العصور التاريخية. إن جميع روافده على الشط الأيسر تنحدر من جبـــال زاخروس. ولكن اعتباراً من سير مجراه في الكوت يتعثر ويتباطأ ســـيره ضمـــن أراضـــي الغرين، إلى ان يدخل في منطقة المستنقعات، حيث يتلاقى مع نهر الفرات بعـــد أن يســـتقبل رافد (الخربا) القادم من " خوزستان " إن غزارته تزيد عن غزارة نهر الفرات، وأكثر غدقـــاً واندفاعاً، كما أن فيضانه مدمراً، غير أنه في تاريخ الشرق القديـــم لـــم يلعـــب دوراً كبـــيراً كالفرات .

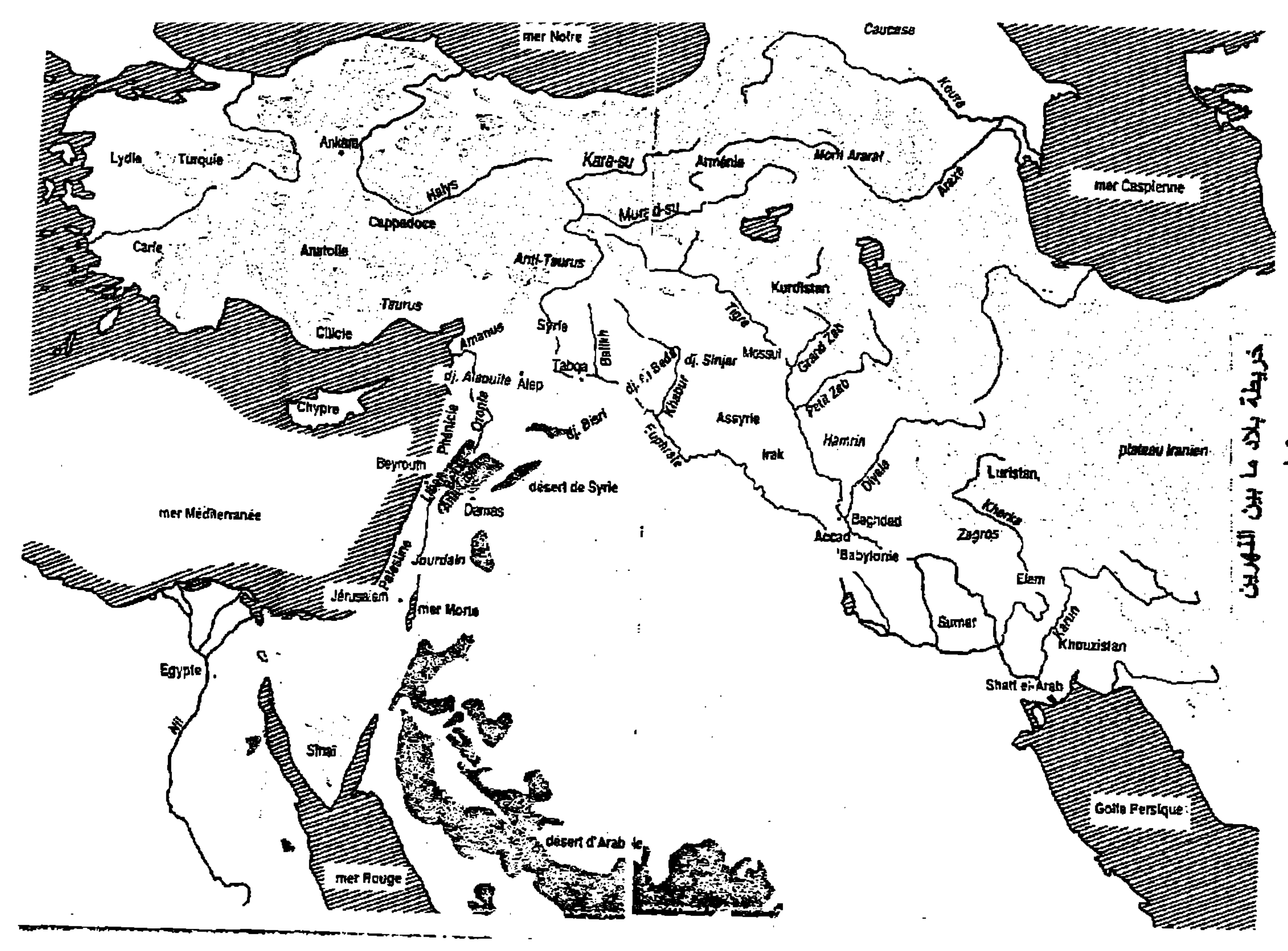
الفرات

ويسمى الفرات باللغة العربية، وهي مشتقة من الكلمة الآشورية (بوراتي Purati) ينبع هذا النهر أيضاً من تركيا، طوله يصل إلى (٢٨٠٠كم) وعند البدء يتشكل من تجمعات (كارا- ســو Kara-su) حتـــى طـــول (٤٥٠كـــم) كمجـــرى الفـــرات الحقيقـــي، ومـــن مجـــرى "مراد – سو" بطول (٦٥٠كم). وبعد جريانه عبر الجبال يغادر الأراضي التركية مُوهماً أنـــه يتجه نحو البحر المتوسط، ولكن بعد أن يقطع بسيره مسافة (١٦٠كم) محاذياً شاطئه، ينحرف مجراه باتجاه الجنوب – الشرقي نتيجة مانع أرضي، متجهاً بشكل نهائي إلى الخليج الفارسي. أما طول مجراه في الأراضي السورية يصل إلى حوالي (٦٥٠كم) يشق عبرها وادياً في هـذا النجد مبتدئاً بمنطقة سهوبية وصحراوية، غير أنه رغم تلقيه مياه البليخ ثم مياه الخابور، يفقد (٢٠٠كم ٣/س) من أصل (٩٠٠كم ٣/س) كان يحملها عند دخوله في سورية، ثم في الـــهيت العراقية يدخل في السهل الغريني حيث يتعثر شيئاً فشيئاً، أثناء مجراه فـــي وســـط الطمـــي

والغرين. غير أن خط مجراه تعرض للعديد من التبدلات خلال آلاف السنين الأخيرة. وبعد أن اقترب بسيره من نهر دجلة ابتعد عنه بعد أن انقسم إلى شطرين، وهما (الحلّة) وهو السرير الرئيسي القديم حتى القرن التاسع عشر، و(والهندية) السرير الثاني. ومن ثم دخل الفرات في أراضي مستنقعة جداً، حيث اختلطت مياهه بمياه نهر دجلة لتشكل مياه شط العرب. وبهذا تكون غزارة مياهه هي التي أتاحت له تجاوز المنطقة الصحراوية الواسعة، ولكنه يعتبر بالوقت نفسه، نهر كثير التعرجات يحمل ثقلاً عظيماً من المياه تساوي أكثر من نصف حجمه الكامل خلال الأشهر الثلاثة (نيسان – أيار – وحزيران) عند ذوبان الثلوج في الجبال التركية .



خريطة بلاد ما بين النهرين



خريطة بلاد ما بين النهرين

المدى

إن البدء في وصف (المدى Espace) الجغرافي وتحليل مكوناته لا يعني تكريس الجهد لحالة واحدة، بل هي ضرورة مطلقة وملحة يجب الأخذ بها إذا أريد إدراك مدى التطور الذي انتهى إلى هذه الأصالة، وبموجب هذا التفكير لا يصادف أية حتمية جغرافية ومبسطة، بل الأمر يتناول الرغبة في تحديد واحدة من مجمل تلك الأوراق الرابحة التي تعد هذا البلد وتهيئه نحو مصير رائع. ومن جهة أخرى، نذكر ذلك الوهن الذي مع طول الزمن أوصل حضارة بلاد ما بين النهرين إلى طريق مسدود وفي النهاية إلى اختفائها .

فالسؤال هو: ما هي بلاد ما بين النهرين؟ وكيف تكوّن منها الكيان الجغرافي ؟ وهل شَعرتْ بماهيتها بالقدر المناسب خلال مراحل تواجدها، بالواقع لقد صعب حينذاك تعيين ورسم حدود هذه الحضارة بشكل واضح، لأنها رغم طول الزمن لم أمكن رسم أو معرفة حدودها القديمة بشكل واضح، لأن طبيعة الأوضاع في حينها، لم تقدم المعطيات الواضحة اللازمة، كما أن مفهوم الحدود النظامية المحدثة مؤخراً غير منطبقة على هذا المفهوم بالحقيقة، إنه الحوض الهيدروغرافي الذي يبدو لنا في كل زمن ووقت، بأنه الخط الطبيعي الرئيسي المحيطي لهذه البلاد، لأنه يسمح بوصف تكوناتها وتطوراتها. كما أن عامل الوحدة وبصورة خاصة، كونه أتاح التمركز للناس ضمن هذا الحوض الذي بدون مزاياه كان صحراء مقفرة .

في هذا الحوض المتسع، يوجد نهران مع روافدهما، ففي الغرب – الفرات – وفي الشرق – الدجلة – وكلاهما ينحدران من قلب جبال الأناضول الشرقية، حيث يتولدان على مقربة من بعضهما في بدء انطلاقتهما متخذاً كل منهما خط سير واتجاه يختلف عن الآخر، وهذا يستمر لمسافات طويلة جداً بجري مستقل، ثم يتّحدان بمياهما، حتى يشكلان دلتا شط العرب بمستنقعاته الواسعة، قبل أن يصبا في الخليج العربي – الفارسي، ومع أنهما نهران يجريان بشكل مستقل، كل بمساره، ولكنهما متحدان وفق وعبْر الشروط المناخية المسيطرة على مسارهما منذ ولادتها، حيث أن الطبقة الكثيفة جداً من الثلوج التي تغطي جبال الأناضول أثناء الشتاء تُؤمّنْ الرفد الكافي من المياه وتتيح لهذين النهرين اجتياز المئات من الكيلومترات من السهوب أو الصحارى الممتدة بين سفوح الجبال والبحار .

ولكن لا بد من تحديد ماهية هذه الاحاطة الواسعة، فإن هذا الحوض يبتدي منذ شمال تلة جبال طوروس التي تنتهي من جهة الشرق بسلسلة جبال كردستان – وزاغروس – ولوربستان فتميز تلك التموجات الطويلة والحادة حوض بلاد ما بين النهرين عن غيره، خاصة بالنسبة لجواره من الأراضي الأناضولية والإيرانية. أما من جهة الغرب فهناك عارض أو وضع مناخي طبيعي على درجة من الكثافة يتمثل بحاجز جبلي يحد البحر الأبيض المتوسط الذي هو بالأساس الحد الغربي للحوض. كما أن السهوب السورية التي تمتد في الشمال متجاوزة نهر الفرات باتجاه الشمال تتبدل نحو الجنوب إلى صحراء تتسع ويزداد جدبه أكثر فأكثر حتى الوصول إلى شبه الجزيرة العربية. وهكذا نجد أن الجبال من جهة الشمال والشرق، كما أن السهوب والصحارى من الغرب والجنوب الغربي هي التي تشكل الحدود الطبيعية لهذا الحوض الذي أصبح الخليج العربي – الفارسي مخرجاً ومصباً لأنهره .

وفيما وراء تلك الأطراف تمتد مناطق أخرى جديدة لها علاقة ضيقة مع سكان بلاد ما بين النهرين، ففي الغرب، يحاذي البحر المتوسط سلسلة جبال الأمانوس – العلويين – لبنان سلسلة جبال لبنان الشرقية – جبال الجليل – فتشكل بمجموعها خطاً عالياً يحد ويواجه بفاعلية قسماً من التأثيرات المناخية المتوسطية، أما خلف هذا الحاجز الطويل باتجاه الحوض ، تبتدي مباشرة السهوب والصحارى باستثناء بعض الواحات المبعثرة التي تمر بها الأنهار ومجاري المياه مثل: وادي نهر الأردن – غوطة دمشق – وادي العاصي – أما في الشمال والشمال – الغربي فالفضل يعود إلى مجرى نهر الفرات الذي يربط الصلة مع هضبات الأناضول الداخلية، ومن جهة الشرق، فيما وراء سلسلة جبال زاغروس ولوريستان تمتد هضبات ايران التي هي كناية عن سهول مرتفعة شبه صحراوية تتلاصق من حولها السهوب، ثم سلسلة جبال آسية الوسطى العالية الممتدة في الجنوب عن طريق شبه القارة الهندية مع طول وادي الهندوس .

إن جميع هذه المناطق ليست متباعدة عن بعضها، فالجبال متداخلة مع الوديان والسواقي، نجد الفرات والدجلة في الشمال، كما سبق ذكره، وجميع روافدها الرئيسية تقع على الشاطئ الأيسر، ابتداء من نهري البليخ والخابور بالنسبة للفرات ثم الزاب الكبير والصغير، ثم (ديالا وكركا Kherka) بالنسبة للدجلة. أما فيما تعلق بالصحراء يوجد فيها العديد من الطرق والمسالك ونقاط المياه، وهي بالقدر الكافي لمرور وسقي القوافل .

الخلاصة: إن منطقة مثل هذه، تتميز بتنوعها كونها تحوي: الحوض الـــهيدروليكي – السطوح والمرتفعات – مناطق التلال – الجبال والصحارى، جميعها مترابطة تشـــكل أيضــاً نواح رئيسية .

بلاد ما بين النهرين - كلمات وحقائق

من خلال هذا البحث، نجد بالإضافة إلى كون الحوض هو هيدروليكـــي فـــهو أيضـــاً هيدروغرافي تولد بواسطة الدجلة والفرات، اللذان ما أن انطلقا من الجبال حتى طبق عليـــهما عبارة "بلاد ما بين النهرين" ولكن لا بد من الاعتراف، بأن هذه التسمية الواسعة المعنى ليست صادرة عن علماء الجغرافيا ولا من علماء التاريخ، بل تمثل التوافق المصلحي الذي أوجـــد هذه الوحدة الجغرافية التي تغطي جميع المظاهر الثقافية الرئيسية المتجانسة .

من جهة أخرى، فإن كلمة (بلاد ما بين النهرين) لم تطبق باستمرار على منطقة واحدة فقط، فقد استخدمها اليونان لأول مرة، بمعنى أنـــها تتفـــق تمامـــاً مـــع معناهـــا الاشـــتقاقي (بلاد ما بين النهرين) أي المنطقة الممتدة بين نهري الفرات والدجلة والمتعلقة فقـــط بالقســـم الشمالي من كامل الحوض، كما قادت هذه التسمية إلى احتواء المنطقة البابلية وبلاد ســـومر، وحتى مناطق حدودية متأخمة دخلت في هذه التسمية الطوبوغرافية .

فهذا (التبدل الدلالي) (الذي يعني اطلاق اسم الجزء على الكل) قاد إلى حجب الوجـــه الأساسي للحقيقة الجغرافية التي أعطت لكل منطقة اسمها الخاص والتي يجهد الجيولوجيـــون الأخصائيون إلى إبرازها .

في الشمال، نجد الجزيرة وهي منطقة من النجود والهضبات المسطحة التي شـــجتها الأنهر بأعماق كبيرة مُولّدة أودية شديدة الإنخفاض، والتي تنتهي مترابطة مع سفوح سلســـلة الجبال الشمالية .

وفي الجنوب، يوجد السهل النهري الممتد الذي ينتهي بسهل الدلتا ومن بعـــده منطقـــة المستنقعات. فهذه المنطقة التي أتينا على ذكرها، يطلق الجغرافيون عليها اليوم اسم (بلاد مـــا بين النهرين) بخلاف التسمية التي أطلقها قدماء اليونان، حيث يتمكن مســـهلها مـــن تكدســـات الرواسب القادمة من جبال الأناضول وزاغروس، كما تعتبر منطقة غمـــر وفيضـــان هذيـــن النهرين .

إن النظر في وضع المنطقة يُبرزُ للمتفحص عدة عوامل، حيث يتمثل أمامه محصلات بشرية متعارضة وكثيرة التعقيد، فالنسبة للجزيرة، ما أن نفارق سفوح الجبال حتى يحتشد تمركز السكان مع طول الأنهر والجداول التي تبدو للعيان في وسط تلك المناطق الصحراوية بشكل واحات ذات رسوم خطية بالإضافة إلى ذلك، فإن انشقاق الأنهر في النجود والهضاب منذ العصر الثلاثي أدام وثبّت فتحات مجاري الأنهار مما وطّد الشعور باستقرار هذا الوضع بصفة إجمالية .

ومع ذلك، بقدر ما نتجه نحو الجنوب، بقدر ما يتلاشى الوضع المستقر فيتمثل أمام الناظر التبدل المتتابع، لأنه منذ مدخل السهل النهري يتخلص النهران من جزء من حملهما من الغرين رويداً رويداً ويصبحان، تحت تأثير ارتفاعه من الجانبين، هما المسيطران على جوانب السهل المحيط بهما. فليست سوى أمواج متتابعة من الغرين تراكمت مع طول القرون والألفيات بشكل ترسبات غرينية لن تتوقف إلا إذا قدِمَ فيض قوي جداً يفوق الفيضانات السابقة يُحيد مجرى النهر عن سريره، ويضطره إلى شق مسلك مائي جديد. ومع طول الزمن، ودورياً تحدث شقوق جديدة يتبعها توضعات جديدة بحيث يطرأ مع طول الزمن تبدلات كبيرة على مواقع الأنهر، يشهد بذلك منظر مواقع لمدن المحاذية لسرير الانهار التي تبدو عارضة ولم يمر على انتهاءها زمن طويل، غير أن تلك المناظر كانت تجلب التشاؤم في نفوس السكان. ولهذه الغاية قام العديد من علماء الآثار والجغرافيا بتنظيم الدورات لدراسة الأكوام والمرتفعات والمدن الغابرة التي قامت وتدرجت في القديم مع طول المجرى .

وهكذا ضمن منطقة بطول (٢٠٠كم) بين الشرق الغرب، و-(٦٠٠كم) بين الشمال والجنوب، امتد هذا السهل الغريني كما امتدت المدن العديدة التائهة، فقد كسب هذا الوضع الفريد (بابل) القديمة لقب (ممر العواصم) .

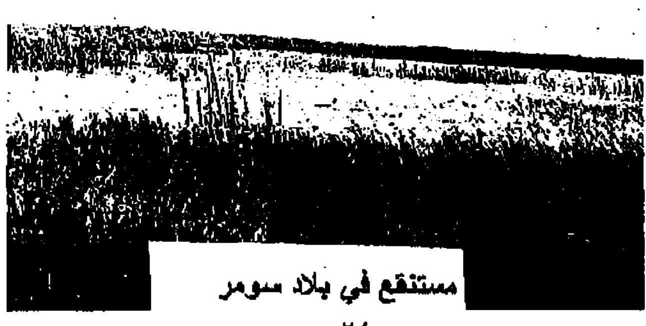
وكلما اتجهنا نحو الجنوب، ازداد الشعور باليأس، ففي منطقة المستنقعات تختلط المياه مع تراب الأرض وتنشاء شبكة من طرق المياه المعقدة يتعذر سلوكها، إلا بواسطة القوارب، ولهذا السبب، فإن جميع هذه العوامل والشروط لا تخدم العيش في المدن الكبيرة، فكان السكان بالقديم يغادرون المناطق المتحضرة للوصول إلى منطقة الخليج الفارسي .

هل بلاد ما بين النهرين هي بلاد عدن؟

إن الله تعالى زرع بستاناً – عدن – في الشرق، ووضع الرجل الذي خلقه فيه، كما أنبت الله في أرضه كل شجرة لذيذة الثمار تبهج الناظر، كما زرع في وسطه شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، ولأجل سقاية هذا البستان أخرج له نهراً من عدن، ما لبث أن تفرع إلى أربعة فروع: فالأول كان يدعي (بيشون Pshan) والثاني (غيلهون guilhon) والثالث (دجلة) أما الرابع فهو (الفرات) ومن ثم أخذ الله الرجل وأسكنه في بستان عدن لزراعته وحراسته .

هكذا، ولعدم تحديد مجرى ومكان فرعين من أصل أربعة فروع هذا النهر الفردوسي فإن التقليد، كما يبدو، اعتبر أن بلاد ما بين النهرين هي مكان الفردوس، ولكن يصعب إدراك مثل هذا التموضع، لأن غزارة هذه الفكرة الضمنية المقترنة مع فكرة خلق بستان عدن لا تمكّن من تفسير وضع بلاد ما بين النهرين الطبيعي، خاصة وأن ميّزة هذا البستان النظر، حسب اعتقاد البعض، كانت ثمناً لجهد بشري عمل ضمن شروط فريدة ومبتكرة توصل إلى تطور إيجابي ومفيد، حتى أصبح سهل ما بين النهرين نموذجاً مرادفاً لغناه الزراعي. والحالة، حسب المفهوم (الاكادي)، فإن (إيديني Edinu) تبدو متجانسة بشكل واضح مع كلمة (عدن Eden) التي توصف بأنها سهوب واسعة غير منتجة، كما أن العيش فيها ذات طابع بدائي، يقطنها السكان الرحل الذين يصعب تحضيرهم .

وهذا ليس ببعيد، فإن محرري سفر التكوين، عند ذكر بلاد ما بين النهرين اعتبروا أن بستان (عدن) موجود فيها، أما إذا أريد التحول إلى معنى آخر نجد أن (عدن Eden) تعني دار النعيم واللذة، وهي فكرة تمتلك تصور البعض، بأنها بستان وروضة الترفيه والمسرة المكلفة جداً التي كانت مدعاة للبهجة والسرور، خلافاً لقساوة محيطها .



مستنقع في بلاد سومر

المعطيات المناخية الرئيسية

يبدو للعيان، أن الوسط الطبيعي لداخل وأطراف حوض بلاد ما بين النهرين كثير التنوع يتجسد فيه اختلاف المناخ في جميع مناطقه، التي سنأتي على ذكرها .

اجمالاً، يعود الحوض الهيدروليكي للدجلة والفرات إلى الميل الزاوي الكبير لنصف الكرة الرضية الشمالي الذي، في الشرق الأدنى، يطاول الصحراء، ولكن وجود البحر الأبيض المتوسط وبأقل تقدير، فإن منحرف الخليج الفارسي يجلب تغييرات مهمة في ترسيمة الأساس، كما أن موقع الجبال يخلق عوامل تنوع جديدة .

كما أن الحاجز الجبلي الذي يطاول البحر المتوسط يُسبّب سقوط أمطار مهمة على الواجهة البحرية كما يسبب جفافاً حقيقياً في الواجهة الداخلية، ولهذا السبب تبتدي السهوب والصحراء منذ السفوح الشرقية للسلسلة الداخلية لجبال لبنان، ومن جهة أخرى فإن الأراضي الأخرى المرتفعة في العربية، وأيضاً سلسلة جبال طوروس، وأيضاً بدرجة أدنى، سلسلة جبال زاغروس تتعرض تضاريسها دوماً إلى هواطل مطرية غزيرة، مما تجعل غزارة الأمطار في الأطراف أكثر من الحوض نفسه، ولكن ليس بشكل ثابت ودائم، لأن المناطق المرتفعة التي يكثر فيها المطر وبفضل الثلوج والجليد التي تختزنها في الشتاء هي أيضاً من حيث التغذية تستمر في تدفق مياهها بغزارة على مدار السنة بفضل ذوبان تلك الثلوج، وبما أن توزعْ تلك الأمطار ليس منتظماً خلال دورة هطل الأمطار السنوية، فإن ثلوج أعالي القمم والمياه المخزّنة ضمن الصخور الكلسية تنبثق من جديد في مناطق سفوح الجبال، وبفضل كل ذلك يستطيع الفرات والدجلة، المتعاظمة مياههما بروافد الشاطئ الأيسر من مياه الأمطار والمياه المنحدرة من الجبال، أن يجتاز الصحراء التي تفصلهما عن الخليج الفارسي .

إن هذا الترتيب الإجمالي الذي على مدار السنة، يبسط سيل المياه النازلة خلال الشتاء، سهّل إمكانية السكن للناس في هذا الحوض، لأنه ما أن نبتعد قليلاً من القوس الجبلي حتى تتناقص بسعة الهواطل المطرية باتجاه الشمال والشرق. فإذا كانت نسبة الأمطار بيروت تصل إلى (٩٠٠مم) فإن دمشق التي لا تبعد أكثر من (١٠٠كم) إلى الشرق، لاتنال أكثر من (٢٠٠مم) لكونها معزولة بسلسلة جبال لبنان، وهكذا أيضاً، في سهل الخابور، خلال مسافة (٤٠كم) ضمن سفح جبال طوروس تنتقل من (٤٥٠مم) إلى (٢٧٧مم) في مدينة الحسكة حتى

أن مجموع الحوض لا يستقبل سنوياً من مياه الأمطار أكثر من (٢٠٠مم)، كما أن المنطقة الصحراوية التي تعتبر المقدمة الشمالية للصحراء العربية تتلقى أقل من (١٠٠مم) سنوياً .

إن هذا الضعف العام الشديد في هواطل الأمطار يفسر الواقع المطري المار في هذه البلاد، ومما يزيد على السوء، هو سقوط الأمطار في مرحلة فصل الشتاء وفي أيام قليلة من السنة التي تتلقى زخات مطرية مرفقة بعواصف شديدة، هذا ناهيك عن التبدلات المناخية بين سنة وأخرى، حيث تتابع السنتين الحسنة والرديئة ضمن دورات ومراحل متسلسلة يمكن ترجمتها أحياناً بتطور لحالة تصحّر ستصيب المناطق المأهولة بالسكان، مترافقة بشروط معاشية حادة وعلى درجة كبيرة من الصعوبة، قد تصل إلى كارثة، وهذا ما يدعو إلى التفكير.



خيم البدو الرحل



نباتات السهوب السورية

هكذا يبدو الشرق الأدنى المُكوّن من تجمع العديد من الأوساط والمواقع المفردة، أوجد كما هو منتظر، سبلاً مختلفة في المعيشة، وتعتبر الجبال التي تشكل قوساً دائرياً، حدوداً لهذا الحوض المكتمل الري والسقاية، والمحاط بسفحٍ للتلال الغنية بعيون المياه وبخصوبة الأرض، حيث يشكل مناطق متميزة ومفضّلة لدى المزارعين، كما يعقبه هضبة سهوبية تندر فيها الأبار والينابيع ويزداد جفافها كلما اتجهنا نحو الجنوب، وتعتبر هذه الهضبة المنطقة المفضلة لأقامة البدو الرحل، أما الجانب الغربي لهذه السهوب يشكل صحراء حقيقية تمتد بالتتابع إلى مجمل شبه الجزيرة العربية. غير أنه في الشرق تنعدم الصحراء بتأثير الغرين والطمي والرطوبة القادمة بتأثير النهرين العظيمين، حيث تتوضع هنا الزراعة والحضارة المدنية .

لذلك، تتيح هذه الخصائص الأساسية لهذا المدى الشرقي الواسع التحدث لشرح الوقائع التاريخية العديدة، البعيدة منها والقريبة، ولكن هل يمكننا التأكد، من أن هذه الآثار المناخية والتشكلية، مع سعتها، لم يطرأ عليها أية تبدلات رئيسية منذ القديم وحول هذا الموضوع يمكن استحضار أربعة مظاهر :

<u>الأول</u>: بالنسبة للتضاريس في نسقها وخطوطها العامة لم تعرف أية تغييرات كبيرة فالجبال، والهضاب، والسهول، والوديان لا تزال كما هي منذ ثلاثة أو خمسة أو ثمانية آلاف سنة، ولكن من حيث التفصيل، لا يمكن البت بذلك، لأن سطوح الوديان، على ما يبدو، تكرَّر تعرّضها مرة بعد مرة، نتيجة تبدل مستوى الأساس، فقد استخدمت تقنيات وبحوث كثيرة لتحديد مقدار أهمية هذه التبدلات، ففي منطقة (ماري) ظهر مجدداً، أنه خلال العصر النيوليتيكي كان سرير نهر الفرات يشغل مجموع عرض فتحة الوادي، بفضل الممرات المائية التي أحدثت (عهود الحقبة الرباعية) والتي تحززت في هذا السطح الذي لعب دوراً عظيماً في تنمية الأراضي في مجمل الحاضرة في نهاية الألف الرابعة وأوائل الألف الثالثة، وكونه سطح حديث التشكل، رغم انتمائه لعصر تاريخي لم يطرأ عليه تبدلات بارزة منذ القديم .

<u>الثاني</u>: في السهل الغريني أو في منطقة الدلتا نصادف نموذجاً من التبدلات، أحدثت بسبب تغيير مجرى الأنهر، نتيجة التطور الذي مرّ ذكره، ويفهم من ذلك أنه، إذا لم تتجدد المعطيات الأساسية لرسم الطبيعة منذ آلاف السنين، فإن تغيير مجرى الأنهار يترك مخددات تكشف شواطئها بأن مشهد الطبيعة في أي مكان بارز، لا يتوافق مشهده مع ما هو عليه الآن. فقد أنجزت بحوث في علم التربة بكل نجاح، حيث تم ذلك في منطقة (تل الدير) من قبل

البعثة الآثارية التابعة لجامعة (كاند) لدراسة المظهر القديم للأراضي، وقد علم، فضلاً عن ذلك، بأن الفرات، في القرن الماضي انشطر إلى قسمين بتحوله نحو الغرب، وهذا ما يؤكد مقدار ما اكتسبه علم الجغرافيا التاريخي من المعرفة، عن الأوضاع والتنظيمات القديمة للشبكة النهرية في بلاد ما بين النهرين .

الثالث : ما يجب استعراضه هو: ما هي العلاقة بين سهل الدلتا وبين الخليج الفارسي؟ نجد أن عدم وجود أيّ موقع مهم جنوب (أور) يقود إلى التفكير بإمكانية تقدم الدلتا داخل الخليج الفارسي خلال العصر التاريخي. وبتقدير ازدهار الشاطئ على مسافة (١٥٠كم) منذ القدم. ولكن هذه الفرضية لم تتحقق على ما يبدو لأن الملاحة في الخليج قد طرأ عليها تغييرات مهمة وطرق مختلفة خلال العصور الأخيرة. وحسب (سانلافيل Sanlaville) حدث غارة بحرية منذ ما يقارب (١٠٠٠٠ سنة) – وفقاً لبعض التقديرات، وبموجب فرضية أخرى قدرت بأربعة آلاف سنة أي في عصر (أوبيد Obeid)، وقد تبع ذلك، عودة ازدهار الدلتا.وبما أن الأمر يتعلق بتراكم مواد حتاتية في المنطقة، فالتقدير حول طبيعة الأرض الدائمة أو المستمرة وما يتعلق بظهور الجزر في هذه الدلتا، أمر مشكوك فيه، ويعود إلى المصادفة. ولمعرفة الارتباط الصحيح بين بلاد ما بين النهرين وبين بلاد الخليج في مختلف العصور القديمة، نجده يتمثل في مدى التطورات الحسنة التي تتوضع بحسب أشكال الجوانب . وبقي أن نعرف هل الجنوب بالحقيقة، كان مأهولاً بالسكان قبل بدء ظهور القرى؟ إن ظاهرة الأمواج التي كان يتجاوز بواسطتها البحر مساحات قارية مجاورة في العصر النيوليتيكي وما يتبع ذلك من الغرين والطمي، أخفت أو أزالت جميع الآثار المتعلقة بالإقامة الطارئة للجنس البشري .

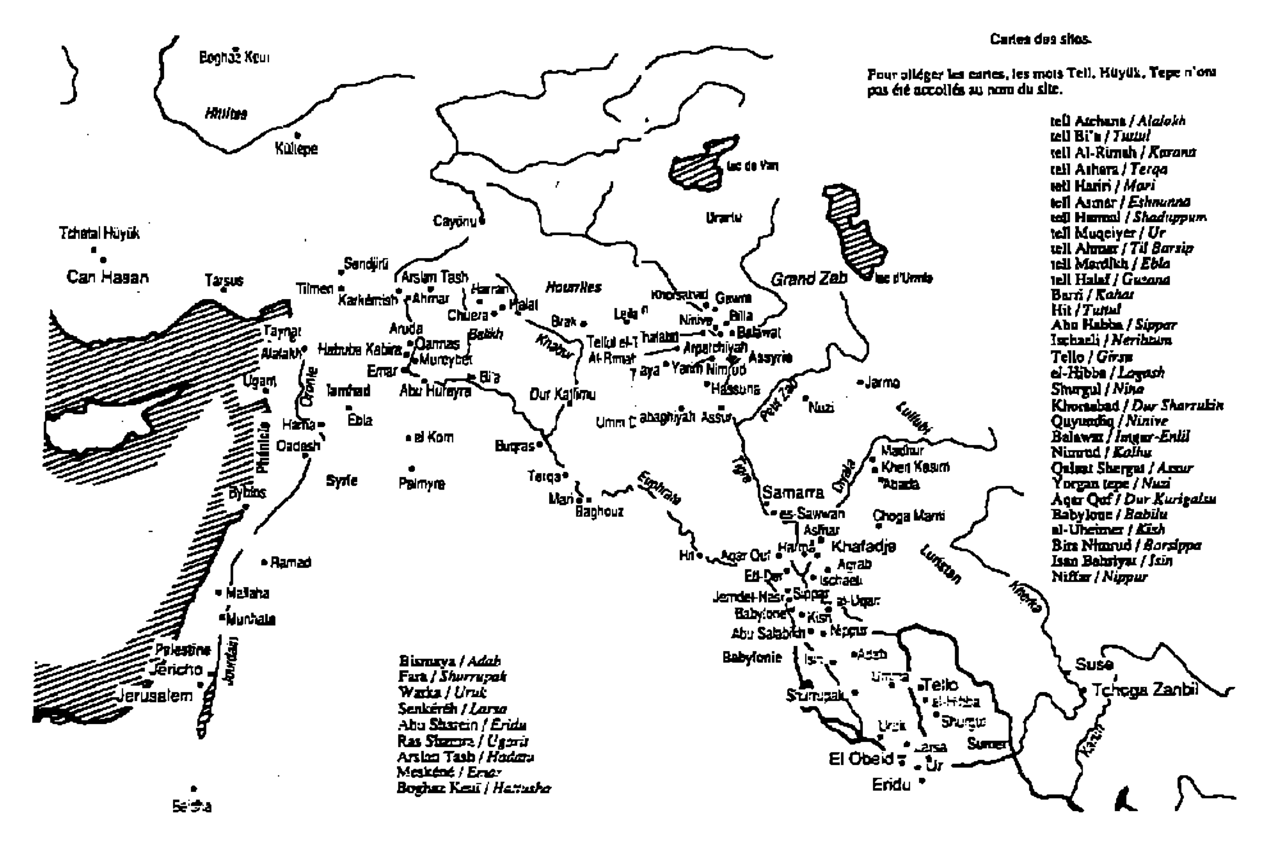
الرابع: وهو المظهر الأخير، ولكنه ليس بأقل أهمية من سابقيه، ومفاده، هل كان المناخ يتغير ضمن فاعليات مهمة ومختلفة أثناء العصور القديمة؟ فما هو معلوم أنه في البلاد الجافة أو التي على حدودها كان التبدل للهواطل الجوية منذ بدء التطورات الحضارية الأولى، شأن هام، ولفهم (إوليات) أي سير حركة هذه الهواطل، لا بد من ذكر المدة الواقعة بين (١٢٠٠٠) و (٨٠٠٠ سنة) قبل الميلاد أي بعد مضي (١٥٠٠٠ سنة) حيث سادت هيمنة المناخ الجاف جداً وحصلت شروط مناخية خاصة ومناسبة لنمو النباتات الجنبية والحبوب البرية مثل: (أشجار السنديان و الفستق) التي كانت نازلة مع طول الهلال الخصيب ، فجميعها عوامل

وحالات لعبت دوراً كبيراً في ناحية التحضير السكاني. ولكن فيما بعد، طرأ جفاف جديد استجرَّ مباشرة ترافقه شروط قاسية، نالت المتحضرين الجدد الذين تناقصت أعدادهم نتيجة تتبع الحقبات الرطبة ومن ثم الجافة، حسب الإيقاعات والتوترات المناخية التي كانت تحدث بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر، ولكن لم يلحظ عنف هذه العوامل من قبل المؤرخين بالقدر المطلوب، خاصة بعد أن أمكن بسهولة تعريف أهمية هذه التبدلات المناخية خلال العصور المؤرخة. ومع ذلك، أمكن قبول وصف عوامل تلك المراحل الجافة بشروطها المكثفة العامة. وبالمقابل نلمس أيضاً في زمننا الحالي عدم الفارق الكبير عمّا كان منذ (٤ – أو ٥٠٠٠ سنة) .

ولا بدَّ من ذكر معطيين طرأ عليهما تغيير جذري منذ القدم أوديا إلى نزول شروط حياتية مختلفة ألا وهي :

١– أصبح الغطاء النباتي (حتّاً بتأثير المياه والصخور) وخَرِّب بتأثير عمل الإنسان: بسبب حاجاته للتدفئة ، ولاستخدام الأخشاب لصالح الحياة الأهلية المنزلية، وللاعتناء بالحيلة الرعوية المتفاقمة بسبب رعي الماعز الذي أتلف الأشجار هنا وهناك حيث كانت تنمو طبيعياً منذ (٣ – أو ٤٠٠٠ سنة) .

٢– جفت بعض نقاط المياه في منطقة السهوب بسبب زوال الأشجار وتغير وجه التربة، وأيضاً بسبب كثرة استخدام حصيرة حقل المياه الجوفية .



خريطة لكامل حوض بلاد ما بين النهرين

عودة الزمن المفقود

أو انشاء المصادر عن طريق الاستكشافات الآثارية

يُعتبر تاريخ بلاد ما بين النهرين اكتشاف حديث، وحتى القرن الثامن عشر، لم يكن يعرف، في العالم الشرقي، سوى ما جاء به الكتاب المقدس أو بعض المؤلفين المتأخرين من اليونان والرومان، مثل بعض الوقائع أو المشاهد، أو الذكريات المبهمة الخرافية، أو بعض ردود الفعل لشعب صغير تجاه جيرانه الأقوياء الذين يمتلكون نزعات خطرة. والذين لا يشملون سوى الألف الأولى قبل الميلاد، وبجموعهم ليسو سوى بقايا من عالم لا يشك أحد في أهميته. ولهذا يمكن وصل الماضي بالحاضر بإضافة قصص ووثائق منقولة منذ العصر المتوسط إلى عصر الأنوار، ومن قبل رحالة شديدي الاهتمام بالأشياء الغريبة، التي كانت تحمل أحياناً رسومات أو إشارات غير مفهومة، كما هو الحال مع الحصاة الشهيرة (ميشو) المنقولة إلى أوربا في عام (١٧٨٢).

ومع ذلك، شهدت نهاية القرن (١٧) وبداية القرن (١٨) تبدلاً عميقاً في موقف الأوربيين تجاه الشرق، فقد وجد كل من تطور الفكر العلمي المتواضع، وانطلاقة البحوث اللغوية الفقهية والجغرافية، طريقها إلى حقل التطبيق والتنفيذ في هذا العالم الشرقي، الذي تحسَّن اكتشافه بمجرد الاهتمام بالسيطرة على جميع الطرق التي تقود إلى الهند. وكانت أيضاً، حملة " بونابرت " إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر التي توافقت مع بدء ولادة علم الآثار المصرية، والتي أوجدت ظاهرة جديدة. ورغم عدم اهتمام البعض، لا بد من ترتيب الكتاب المقدس والتعاليم المسيحية داخل هذا المفهوم التاريخي، لأن ممارسة قراءة الكتب المقدسة في الوسط البروتستانتي، وخاصة منه، الانكلوساكسوني، قاد طيلة القرن التاسع عشر إلى فكرة التحري عن الحقائق المادية الكامنة في مخطوطات الكتب المقدسة، كرد فعل للفكر والفلسفة الموضعية التي كانت تسعى إلى تأريخ تلك الروايات أو نزع صفة التمجيد عنها. وعلى جميع الأحوال، كان المسعى واحداً .

وما أن ظهرت لأول مرة، نجاحات حل الرموز، التي انبهر الناس بالنتائج التي حصل عليها (شامبوليون champllion) حتى تطوع وانطلق إلى بلاد ما بين النهرين الباحثون عن

الآثار، والذين لم يعد يروق لهم التقاط الأشياء واللقيات من على سطح التلال، بل عزموا على فتح الخنادق في أمل العثور على هذه اللقى في باطن الأرض .

ولا غرو أن أطلق على مثل هذا الإجراء عبارة (صيد الكنز)، فإن النتائج الأولية التي حصل عليها (بوتا Botta) في خورسباد، أحيت بنظر الأوربيين عالماً مذهلاً كان منسياً منــذ ألفي سنة .

وفي هذا المجال، يعتبر عمل بوتا أول مصدر لتاريخ الشرق القديم، لأنه بالإضافة إلى نصوص الكتب المقدسة والأشياء النادرة القادمة إلى الغرب، أضيف الآن فضل المواد المنقّبة من التلال، وفضل اللويحات التي بعد مرور عدة عقود من السنين سيلقين الضوء على تاريخ عشرات الألوف السابقة. ولذلك علينا أن نعرف الآن، بأن تاريخ حضارة بلاد ما بين النهرين ليس الآن سوى البداية في وضع أسُسَها، لأن مسيرة قرن ونصف في مجال البحث والتنقيـب هي صغيرة ومتواضعة عندما يكون انطلاقها من العدم. ولهذا أيضاً يجـب عـدم اليـأس أو الاستغراب من الشكوك العديدة ولا من الثغرات التي تخص هذا الحقل. لأن تعـاضد مهمـة التنقيب عن الآثار مع مهمة دراسة النقوش، كل فيما يخصها يُضفيان على هذا الحقل مظـهراً سرمدياً :

– فبالنسبة للآثار، إن العمل بها لا يستطيع تقديـم إلا معلومـات متقطعـة أي غـير متواصلة من حيث الزمن والمدى، فكل تنقيب جديد له ضرورة مستقلة غير أنه قـد يصلـح لاستكمال لوحة سابقة مقبولة أو لتعديل أية معلومات تحتويها، ولكنها لا تستطيع أن تداعب أو تملي أيّة نظرية بصفة كاملة ومحدّدة للمسألة ذات الصلة، وهذا ينطبق أيضاً على التل المنقّب الذي يتعذر عليه إعطاء الإجابة الكاملة في مسائل مطروحة .

أما بالنسبة للنقوش، فإن المعلومات التي تقدمها، تكـون ثمـرة متابعـة للمكتشـفات الآثارية، وثمرة الانتقاءات التي تجري على الأرض من قبل علماء الآثار أو النقوش أنفسـهم من المخزونات المكدسة في المتاحف، أو من التنقيبات الرسمية المقررة، أو مـن مشـتريات سوق الآثار .

ليس المقصود هنا إبراز تاريخ الاكتشافات، ولكن من المفيد وصف المواقف الرئيسـية لإعادة كشف بلاد ما بين النهرين ولحظ الفكر الذي ميّزها .

عندما شرع الأب (جوزيف ده بوشامب Beauchamb) في عام (١٧٨٦) بصفته عالم فلكي ونائب رسولي، القيام ببعض السبور في موقع (باب عشتار في بابل) ولخص بمخططاته على مدى خمسين سنة عمل التنقيب عن الآثار، متوخياً تطوره واتساعه وفائدته في المستقبل لزيادة معرفة الشرق، غير أنه لم يتابع فعالياته هذه، كما أن السيد (ر ٠ ميغو R . miguo) في عام ١٨٢٧ لم يذهب إلى أبعد من إجراء بعض السبور البسيطة، وقد مضى بعض الوقت حتى قيام (بي – بوتا) في عام ١٨٤٢ بعمل جدي في التنقيب بالآثار، وخلال وجوده في الموصل، كقنصل لفرنسا بدأ التنقيب في تل (كوانجيك Quyungik) وفي قسم من طريق نينوى، وعلى شواطئ الدجلة، غير أن النتائج كانت قليلة الفائدة وفيما بعد، نَقَلَ أعمال التنقيب إلى موقع خورسباد على بعد – ١٦كم من الموصل، بناء على معلومات موثوقة قدمها إليه بعض القرويون. وبعمله هذا خرجت من الأرض النقوش الأولى للآشوريين.

لم يغفل أي شخص أهمية هذا الاكتشاف، فقد أثبت الآشوريون، للمرة الأولى، وجود فنهم الآشوري الخاص الذي ارتسم بجانب الفن اليوناني والروماني والمصري كمرتكزاً آخر في الحضارة القديمة. فقد استطاع (بوتا Botta) المضي في بحوثه حتى شهر تشرين عام "١٨٤٤" ولكن مع فواصل وإنقطاعات. وقد أعجب العموم باكتشافاته المتوضعة في متحف اللوفر خلال شهر أيار عام ١٨٤٧، وكان قد اشتُهِرَ عرضها، بنشر حيثيات التنقيب عنها بفضل (فلندان E . Flandin) الذي أبرز بهذا العرض أول لوحة فنية عن الحضارة الشرقية.

وما أن توطدت نجاحات (بوتا) الأولى، حتى أصبحت بلاد ما بين النهرين حقلاً وميداناً للتنقيبات والبحوث الآثارية، تفتحت خلالها المزاحمة الفرنسية – الانكليزية ولم يكن ذلك لفائدة العلم بأستمرار، غير أنه مع ذلك ساهمت هذه التنقيبات على تعميم المكتشفات. كما أن السيد (آ – لا يرد A- Layard) الدبلوماسي والسائح والمشغوف بالمشرق أقام على تل نينوى ثم في نمرود حيث أخرج منها مجموعات فاخرة من لقى النقوش، والثيران، وتماثيل الرأس البشرية وقطع البرونز، والعاج وعلى جزء أولي من مكتبة (آشور بانيبال) الذائعة الصيت، التي تكشفت بفضلها الأسس الثقافية للمدينة الآشورية، وقدمت إلى العلوم الآشورية

الناشئة مادة دراسية مبهرة. وقد تابع هذا الاستكشاف (س / راوليسون C - Rawlinson) مُفكك الرموز لتسجيلات (بيهستون Behistun) و(ش – رسام) وهو كلداني، وُصِمَ بلقب كئيب (المخرّب والناهب للتلول. أما ما يتعلق بالفرقة الفرنسية فقد خلف بوتا السيد (ف – بلاس) في التنقيب ولكشف قصر سارغون خارسباد الفخم من عام (١٨٥٣ إلى ١٨٥٤) غير أنه لسوء الحظ وعلى أثر نقل الصناديق المحتوية للقى والنقوش الأثرية عبر نهر دجلة غرق (٢٠٩) صندوقاً من أصل ٢٣٥ صندوقاً في مياه البصرة ولم ينجو منها سوى (٣٦ صندوقاً).

وبعد هذه الإنجازات تتابعت البعثات الانكليزية: وهكذا فإن (ج سميث) العالم بالآثار الآشورية والمكلف بتنظيم وترتيب مكتبة (آشور بنيبال) في المتحف البريطاني، والذي بعد أن عثر على ترجمة آشورية لرواية عن الطوفان كانت متقطعة، كلف أيضاً من جديد بمحاولة العثور على تكملة اللقى الآثارية في خراب نينوى، والأغرب من ذلك أنه خلال بعثة واحدة في عام (١٨٧٣ – ٧٣) نفذ مهمته، وكاد أن يفقد حياته، في كل مرة، أثناء رحلته الثانية إلى الشرق، عام (١٨٧٦، عندما كان بعمر – ٣٦ سنة). كما وأيضاً تصاعدت شهرة "رسّام" بين عام (١٨٧٨ – ١٨٨٢) من خلال تحرياته المنهجية دون تعرضه لأي خطأ فني، أثناء إجراء التنقيب في خمسة عشر موقعاً .

وعندما أنبئ (ف – بلاس) بالغرق الذي أفقد بتاريخ ٣١- أيار عام ١٨٥٥ – كميسة ٢٠٩ ملأى بالآثار من أصل (٢٣٥) صندوقاً كانت تنقلها القافلة، حيث كان الجزء الأكبر منها مرسلاً إلى متحف اللوفر. وجّه (بلاس) كتاباً إلى وزير الدولة (م.فولد) يذكر فيه ما يلي:

على اعتبار أن الحكومة الفرنسية هي المانحة للاعتماد العائد لمدة الارسالية. لن أنكر لسعادتكم كل ما أشعر به، بعد أن علمت بفقد ثمار النفقات والأعمال الكبيرة، إلى غير رجعة، فقد أنساني الأمل الكبير بأنني سأشاهد متحفاً قد اغتنى بمثل تلك الاكتشافات، رغم كل المتاعب وكل مرارة تكبدتها خلال أربعة سنوات، كما أنني أعتقد بعد مشاهدتكم النتيجة ستغفر الي سيادتكم وتقدرون هذه المعاناة التي تحملتها تجاه هذه التنقيبات، وانني لا أنكر عطفكم وكرمكم نحوي، ففي لحظة واحدة أبيدت كامل الآمال المشروعة، ولم يبقى لدي الوزير، الاّ التمس منكم عدم لومي أو مساءلتي عن هذه النكبة التي جلبت لي كل التعاسة .

نقلاً عن (آ -باررو-"آثار بلاد ما بين النهرين"- مجلد- ١١-ص)

في الشمال، تحققت الاكتشافات ذات الاعتبار خلال المرحلة الأولى، ولكن دون إهمال الجنوب، فقد غامر السيد (و-لوفتوس Laftus) بعدة مرات من (١٨٤٩ – ١٨٥٥) في التنقيب بمناطق يعتريها بعض الشكوك، فقام ببعض السبور في مواقع تمّ تحريها على اعتبار أنها الحاضرة القديمة (لاوروك – وسوس – وأور – ولارسا (Uruk, de suz, Ur, de Larsa) ومع أن "ج.ي"تايلور تابع استكشاف "أور" خلال أعوام (١٨٥٤ – ٥٥) وشرع في سبر (أريدو) ولكن يبدو أن الجنوب، رغم غنى تلوله، لا يجاري الشمال السخي في تماثيله .

في الحقيقة، كان لا بد من انتظار نتائج أعمال (ده – سارزك E, de Surzec) في تلّو، الذي كان نائب قنصل لفرنسا في البصرة منذ عام (١٨٧٥) لجلاء وإيضاح مدى حقيقة وجود وأهمية المدينة المتحضرة التي كانت سائدة في جنوب بلاد ما بين النهرين خلال الألف الثالثة ق.م أي قبل اشعاع الأشوريين، والتي تخص السومريين. وقد كشف السبور في التل المجراة بين أعوام (١٨٧٧- ١٩٠١) عن ثروة كبيرة من المواد: التماثيل العديدة (لغوديا Gudea) والأواني، والنصب التذكارية والمسلات، واللويحات، التي تعد بالآلاف . ورغم كون الاستعلامات عن الآثار والزخارف الهندسية ضعيفة في حينه، لا بد من التنويه عن هذا المكتشف الرئيسي الذي قاد إلى مرحلة جديدة من الجدية والفعالية، وإلى ظهور طواقم جديدة في التحري عن الآثار الشرقية .

وحتى الآن بقي الألمان متغيّبين، ولكنهم سيلعبون دوراً مهماً منذ الآن وصاعداً، بقيادة (ر . كولديوي R.. Koldewcy) الذي قام بأول حملة في (شرغل والهبّة) في الجنوب خلال عام ١٨٨٧. كما انطلق الأميركيون لتنفيذ مشروع ذات نفس طويل في أراض غير متساوية، فمن منطقة "نيبور" من عام (١٨٨٩ – ١٩٠٠) حيث وصلت النتائج العلمية إلى موضع شك، رغم حصولها على عشرات الألوف من اللّقي واللويحات التي ساهمت في تعريف ونمو الفن الآشوري عبر الأطلسي. وأخيراً، وفي عام ١٨٩٤ وتحت إدارة عالم الآثار الشهير لاب شيل الافرنسي، أجريت أول حملة تنقيب في (سيبار Sypar) كونها مركزاً عاماً مشهوراً لدير (شماس) إله الشمس، الذي صدر عنه قانون "حمورابي" .

كان لا بد من التصدي، ولو طويلاً، على هامش تاريخ الاكتشافات، حول ذكر المحاولات الأولى للاستكشافات الآثارية، لإلقاء الضوء على أصول ومبادئ هذا العلم الذي لعب دوراً مهماً ومكثفاً بسبب المنازعات السياسية. وما تبين وضوحه، أن المنقبين لم

يتوصلوا إلى ادراك مدى تعقيد الأمور والأوضاع التاريخية الآثارية، وهم لم يألوا الجهد الذي يبدو الآن مناسباً، حيث كان الهدف الغالب هو العثور على الأشياء الفنية وعلى اللقى واللويحات التي غطت متاحف أوربا، أما المكتشفات الأساسية كانت استثنائية، فإن تكديس الاحتياط فيها بالألوف وحتى بمئات الألوف من اللقى الناتجة عن التنقيبات الرسمية أو الخفية المهربة، ساعد على تطور علم الآثار الآشورية. ورغم حدوث ارتباك سياسي كبير تعذر اصلاحه في حينه خلال هذه المرحلة الأولى، ولكن مع ذلك علينا أن لا ننسى شجاعة هؤلاء الرجال الذين رسموا المواقف الأولى للاستشراق ضمن ظروف خطرة يُفتقد الأمن فيها كلياً أحياناً، وفي سبيلها كرسوا قواهم وبعضهم ثرواتهم أو حياتهم، فقد كانوا الفاعلون الحقيقيون في إبراز مكتشفات غير متوقعة فتحت آفاقاً فريدة واستثنائية، جديدة وخصبة عن الشرق القديم وعن مصادر الحضارة الغربية .

النصف الأول من القرن العشرين

أ- تعتبر هذه الحقبة من وجهات نظر عديدة، نقطة اتصال مهمة جداً بالنسبة لجدية وفاعلية العمل بالآثار في الشرق الأدنى، وقد تميزت بتوفر الرغبة الشديدة في دراسة وادراك مكتشفات القرن التاسع عشر، وفي تنظيمها وعرض أساليب توضيحها، لتظهر بشكل مفيد تعقيدات ظواهرها الشرقية، للبدء برسم الخطوط الدليلية عن ماهية العمل المتعلق بعلم الآثار في نهاية القرن العشرين. هناك ثلاث اتجاهات لهذه الحقبة يمكن وصفها:

أ- يلاحظ في بادئ الأمر، اتساع كبير في مجال التنقيب والبحوث في المناطق الآشورية والبابلية والسومرية التي لا تزال تجذب علماء الآثار، ولكن من جهة أخرى، يوجد مناطق جديدة جاءت لتأخذ مكاناً بجانبها وتقوم بإيضاح وتفسير التعقيدات الكامنة في تنقيب الآثار، وفي هذا النطاق نترك جانباً الأناضول وإيران على اعتبار أنهما بلدان يعودان إلى عالم يختلف كلياً عن عالم بلاد ما بين النهرين، رغم تجاورهما، ولهذا نجد كيف امتد التنقيب باتجاه "كوزخستان وسورية" .

أما في كوزخستان نجد مدينة "Suse" التي أثارت انتباه (ج، ده مورغان) الذي زارها وسبر فيها عدة مرات، كما زارها (ن - لوفتوس N, Loftus) عام ١٨٥٢ - ٥٣) و (ديبيه لافوا N, Dieu lafoi) عام (١٨٨٤- ١٨٨٦) علماً بأن هذا الموقع أصبح اعتباراً من عام

١٨٩٧ ولمدة ثلاث أرباع القرن المركز ذات الفاعلية المنظمة، وبما أن (Suse) هي العاصمة اللاحقة لعيلام فقد كانت تقدم فائدة ايجابية تختلف عن تلك التي تقدمها عواصم بلاد ما بين النهرين، بسبب قربها من جبال زاغروس ومن إيران الجنوبية التي تحدها من الخلف .

وفي سورية أيضاً انبثقت هجمة نشطة في حقل التنقيب عن الآثار، وإذا لمعنا أن فلسطين وفينيقية لفتا الأنظار طيلة القرن التاسع عشر لأسباب تتعلق بالمسيحية، فكانت سورية بدورها ممراً لعلماء الآثار الذاهبين إلى العراق التي حصرت اهتمامها بشكل خاص، في أطلالها التي تعود إلى العصر الكلاسيكي، مثل بعلبك وتدمر، فقد أنجز (السيد فر- فون - اوبنهايم في "تل حلف" أعمال بلاد التنقيب خلال أعوام (١٩١٢ -١٣) - ثم في عام ١٩٢٩) كانت مرحلية عند انطلاقها في بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن استدامت عندما وصلت إلى كركميش في عام (١٩٠٨ - ١٩٢٠) حيث بوشر باستخدام "المقالع" بإدارة ت (٠ لورانس-ول- وولاي W.Lo) التي بدت كأنها التجسيد للمشاريع التي تطورت أيضاً في زمن الانتداب الفرنسي قبل وقوع الحرب العالمية الأولى .

إن مشاريع (ف-ثورو-دانجان F, Thureu Dangin) علم الآثار الآشوري المشهور في "اسحره"(١٩٢٣) في منطقة - أرسلان تاش- عام ١٩٢٨- وهي تل أحمر (١٩٢٩ - ٣١) مشاريع "س-ف- - شيفر"، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في رأس شمراء، وتعهد (ا - بارو) بتنفيذ تنقيبات طويلة الأمد في (ماري) اعتباراً من كانون الأول عام (١٩٣٣). ثم اعمال التنقيب التي قام به (م - مالوان M , Mallowan ,a,ehagar Bazar) في (الخابور) وخاصة في "تل براك"، وأخيراً تنقيبات الموسسة الشرقية في شيكاغو، في سهل العمق في عام (١٩٣٣ - ٣٧) وأيضاً تنقيبات (ل-وولي - في (العطشانة) عام - ١٩٣٦). فجميعها أعمالاً مميزة أبرزت مشهداً فنياً مثيراً بتأثير سورية ولو جاءت، وأثبتت أهمية حقل "الفرات - الأوسط" في محيط بلاد ما بين النهرين الواسعة .

ب - أما النزعة الثانية، فقد تبلورت بتعميق البحوث التي أجريت نطاق ، أُستُثمِرَ خلال القرن التاسع عشر ضمن مراحل معروفة، وسُخِّر لها أدوات تنقيب أشد فاعلية، بالإضافة إلى وسائل أكثر أهمية. وهنا وسائل ذات أهمية كان يتوجب على الطاقم القديم المتسلسل أن يبرز أعمالها باسهاب، تلبية لرغبة ، هدفت إلى تعميق ثلم الآثار في هذا الحقل. ولهذه الغاية تمّ الالتزام بإجراء تنقيبات منهجية تحت امرة "ر . كولديوي"

(١٨٩٩-إلى عام ١٩١٧) – دون أي انقطاع، فقد توضح للجميع مدينة بابل ، التي تعود إلى (منتصف الألف الأولى). أما مدينة "حمورابي" العائدة (للثلث الأول للألف الثانية) لم أمكـــن العثور عليها، كما أن الآثار المستخرجة لم تكن على مستوى الأدوات والتجهيزات المستخدمة في المشروع. وبالوقت نفسه، أي عام (١٩٠٣) ، وتلبية للرغبة في تنفيذ تنقيبات أخرى بأعلى مستوى ممكن، كمشروع "آشور" العاصمة القديمة لبلاد الآشوريين، الذي أوكل الاهتمام بـــه وبأفضل الشروط، إلى "اندرا"، كما أعيدت ورشة "خورسباد" خلال أعوام (١٩٢٨ – ١٩٣٥) إلى المعهد الشرقي لشيكاغو، الذي اجتهد في أعماله على شرح وإيضاح آثـــار ومحتويـــات القصر الآشوري المعروف سابقاً .



خرائب معبد شارة في تل عقرب، ألتقط هذا المنظر
بعد مرور ٣٥ سنة بعد لتنقيب الذي قادته
المؤسسة الشرقية في شيكاغو.



صحراء ديالا حيث يشاهد تل - عقرب الأفق



الأخير تلقيبات (ش .ده - جينوياك ١٩١٢).

وفيما بعد نُقل الاهتمام إلى الحضارة السومرية، ففي عام (١٩١٢) تعهد الأب (ش-ده- جنوياك) بدراسة "كيش" التي كانت احدى العواصم الكبرى خلال الألف الثالثة، حسب الجدول النسابي الذي نشره (الأب جينوياك عام ١٩١٢) وتبعه في ذلك، (س لانغدون و-أي- ماكي S , Langdon ,E , Makay) من عام (١٩٢٣- ١٩٣٣) من قبل وكان المرتكز "أور" الكبير هدفاً لاستثمار مكثّف من قبل (رخ ش . هال وخاصة (ل. وولّيي) من عام ١٩٢٢ – ١٩٣٤) حيث اعتلى خلالها صدى اكتشاف القبور الملكية، ناهيك عن "أورك" التي جلبت أنظار علماء الآثار الألمان. فقد قاد "ج . جوردان" فيها حملة استكشافية خلال عامي (١٩١٢ – ١٣) تبعها التنقيب النظامي اعتباراً من (١٩٢٨) وأخيراً الفرقة الأميركية للمعهد الشرقي لشيكاغو الذي أخذت على عاتقها دراسة عدة تلال في وادي ديالا وثم في رافد الدجلة على نفس ارتفاع بغداد (أسمر – خفاجة – عشيلي واغرب (من عام ١٩٣٣ – إلى ١٩٣٨) هادفة إلى ابراز ميزات هذا التنقيب في المنطقة، وهذا ما قامت به أيضاً فرقة (ر • بريدوود R , Braidwod)في سهل العمق في سورية، إن هذا المفهوم بمبتكراته ظهر وكأنه منفذ في تطبيق الأعمال الآثارية .

ج – وأخيراً، لا بد من الاعتراف أنه خلال مجموع تلك الحقبة أمكن إيضاح حقيقة وجود حقبة طويلة من العصور السابقة للتاريخ، منها ما هو معروف في عدة مواقع مثل "أوروك – أور – ايريدي – حلف – وسهل العمق " . وعلى العموم باستثناء حالة نوعية، يمكن القول، بأن المنقبين لا يفتشون ، برغبة خاصة، عن مثل تلك الحالات القديمة، ولكن عند مصادفتها . لا يرفضونها. فهذا يدلنا على تبدل فكري ذات أهمية، سيقودنا إلى حقبة لاحقة يتم فيها دراسة وتنقيب الآثار، ليس المراد منها التلصلص على النصوص، ولكن لتحقيق نظام قوي ومنضبط قادر على خلق المساهمة الشخصية في بناء التاريخ. خاصة بعد أن شاهدنا تضاعف المؤثرات والدلائل التي تثبت وجود تنقيبات وبحوث وافرة وغنية في الشرق. يدل على ذلك، التركيز على انتقاء المواقع الأثرية الصغيرة الحجم ، ففي "العوبيد Obeid "عاد (هال وولّيي) للتنقيب في معبد سومري خلال أعوام (١٩١٩ ١٩٢٤) إن حجم هذا التل الذي يحوي المعبد، والذي أطلق اسمه على حقبة عظيمة لعصر ما قبل التاريخ في بلاد ما بين النهرين يمتد بمقدار (٣٥٠م كأقصى طول، وارتفاع –٦–٧ أمتار) ولا يدع مجالاً للشك في عظمة الآثار والنقوش التي يحتضنها. وفي الشمال كانت التنقيبات عما قبل

التاريخ في نينوى خلال أعوام (١٩٢٧ - ١٩٣٢) إلى التل الكبير، ولكن استكشاف)أرباتيشيا Arpatechiya) من قبل "مالوان" في عام ١٩٣٣ بقطر (٦٧م . وارتفاع ٥،٥م) هو الموجب لمثل تلك الرغبة الجديدة، أما موقع "تبّة" غاورة Gawra التي هي أكبر حجماً، نُقّب بواسطة "ي-سبيسر" خلال أعوام (١٩٣١ - ١٩٣٨) : وكان المشروع الأطول زمناً والذي يتضمن موقعاً قديماً لما قبل التاريخ ويحمل مؤشراً عن التبدل العميق في فكرة التنقيب عن الآثار .

هكذا نلمس أنه خلال الحقبة الثانية تنتهي أخطاء الحقبة الأولى . كما أن المواد والأهداف التي ستتابع خلال النصف الثاني من القرن العشرين متوضع في مكانها رغم حاجتها إلى فطنة وتقدير كبيرين، ولكن هل من المهم أن يصبح علم الآثار مهيناً لأن ينضم ويسلّم إلى منصب وكرامة العالم الحقيقي .


خرائب في زيغورات (عكار)

باب عشتار في بابل اكتشف قبل (ر.كولدواي)

لوحظ خلال الحرب العالمية الثانية توقف التنقيب عن الآثار بشكل كامل تقريباً، ولم أمكن النظر بإعادة أعمال التنقيب أثناء عودة الاستقرار النسبي إلى الشرق الأدنى، إلا بعد حصول العراق وسورية على الاستقلال، حيث تغيرت الشروط الواجب اتخاذها تجاه مزاولة التنقيب عن الآثار بفاعلية .

لذلك لا بد من أن نأتي على ذكر المعطيات الجديدة المرتبطة بالتطورات السياسية:

أولاً: عادت انطلاقة العودة إلى التنقيب ولكن بشكل بطيء بسبب إعادة التنظيم البنيوي، وبعد أن أضحت أعمال البحوث والتنقيبات الأثرية على عاتق مديريات الآثار سهلة في كل بلد مختص، تسير بدون عائق على الأرض، ووفرت أوضاعاً لعبت دوراً محرّضاً ومنشطاً، خاصة وأن النية اتجهت أيضاً إلى تنمية المواقع الآثارية لتشجيع السياحة، وهذا ما شجع على دراسة عدة مراكز تنقيب آثارية ومنها "بابل" على سبيل المثال .

ولا بد من الإشارة، إلى أن التاريخ السياسي في المنطقة المستقر إلى حدٍّ ما غير المتقلب، لم يثرْ أية وقائع سلبية في هذا المضمار، بل أن الأداة المسؤولة شجعت النمو الاقتصادي، مما ساهم كنتيجة لذلك بتيسير البحوث والتنقيبات الآثارية . وقبل اختفاء أي موقع أو منطقة بمياه الغمر لبحيرة اصطناعية، أو في حال إجراء أية تسوية عامة تسمح بري الأراضي، من المحتم، الحصول على درجة من المعلومات قبل اختفاء الموقع تحت المياه.

فقد قضت الضرورة بتخليص السياسة الخاصة بالآثار من نتائج بدت في بعض الأحيان متعاكسة، لذلك لا بد من توفر الرغبة من قبل الحكومات، لإنقاذ أقصى ما يمكن من المواقع المهددة بالغمر، عن طريق طلب المساعدة العالمية، ولا بد من التعاون الجدي الذي لا غنى عنه، للقيام بالسبر المنهجي، وليصبح بالإمكان أصدار القرار اللازم لتحديد المكان المناسب الواجب تنقيبه وسبره. علماً بأن المظاهر الطبيعية المشوشة لبعض الأعمال أثناء التنقيب، يرتكز الجانب الكبير من توازنها على تجمعها الارائي"الطبوغرافي"، ومن جهة أخرى، وبفضل الحزم باختصار العمليات، صُمّم القيام بأعمال رئيسية كانت غير منظورة سابقاً وبكل نشاط واندفاع، قضت بإعادة النظر بأفكار مقررة وثابتة، حتى ولو كانت راسخة في الوسط العلمي. ففي كل حملة انقاذ، ليس من الضروري خلق حقائق استدلالية، ولكن من الضروري

الاستعداد لتلقي مسائل جديدة مفاجئة لمعالجتها، بغية المساهمة في تطور أعمال البحث و التنقيب على أسس ثابتة ومتجددة .

لا يمكن هنا تنظيم جدول بجميع تلك العمليات، إن الحملة التي تقوم بحماية آثار منطقة الفرات تقدر أهمية ذلك، فقد أنشئت عام (١٩٦٥) بقرار من الحكومة السورية الذي قضت بالبدء ببناء سد الطبقة في أعلى منطقة الرقة، لخلق بحرة اصطناعية يصل طولها إلى (مئة) كم، ضمن منعطف لنهر الفرات، تختفي في جوفها منطقة آثارية عذراء بكر، قد يكون لها فائدة كبيرة بكونها تقع على أطراف محور اقتصادي كبير. وهذا النهر الذي يتيح الاتصال بين الملاحة النهرية وبين تجارة القوافل التي من زمن بعيد كانت تجوب الطرق السورية، أليس من الغرابة أن علماء الاثار حتى تاريخ نداء ادارة مصلحة الاثار السورية لم يجلبوا أية فائدة من قطاع أثري لا يزال مغلقاً، يحكي تاريخ العلاقات في حياة اقتصادية، مع أنهم كانوا يستخدمونه كممر للوصول إلى بلاد ما بين النهرين ؟ ابتدأت التنقيبات منذ عام (١٩٦٧) بوتيرة شبه بطيئة في بادئ الأمر، ثم تعجلت بانتظام حتى انتهت عند اغلاق السد عام (١٩٧٣)، حيث تبع ذلك غمر فتحة الوادي كلّياً خلال أعوام (١٩٧٤ – ١٩٧٥) وتقاس فائدة تلك الاكتشافات المحققة خلال هذه المدة، بوقائع الأعمال في التحري و التنقيب منذ (١٢) سنة على حواف البحرة المباشرة. أما المكتشفات الرئيسية عن الآثار الكلاسيكية السابقة تضمنت، في بادئ الأمر، مصادر العصر النيوليتيكي مع سائر التنقيبات في: (المريبط والشيخ حسان – من قبل (جـ .كوفان G Cauvin) (أبي هريرة من قبل "تش – موور) وقد تبع ذلك المكتشفات، غير المنتظرة، كشف المنشـئات ذات الأهمية الكبرى، (لعصر أوروك في تل كناس من قبل (ء.فينيت A Finet) و (حبُّوبة الكبيرة من قبل "ستومانجير) – (وجبل عريضة من قبل " فان –دريبل) – (والشيخ حسان من قبل "ج بوبيس) – أما بالنسبة للعصر البرونزي، فإذا كان التحول أي المرور من (ب –أ إلى ب –م du B.A – au B.M) قد تمثل بشكل جيد في (سالنخية Salenkaiyh) من قبل (م–فان لوون M ,van,loon) يكون بذلك نهاية ب .م . و(ب–ب et le B.B) وهذا الأخير يعطي صورة كاملة عن منطقة مزدهرة تماماً مع منطقة (إيمار راجع " مارغرون) – (وممبكت Mumbaqat راجع "وو – أورتمان و دو ماشيل) – (وحلاوة راجع "أورتمان) (وتل فراي راجع أ–بونني ور.ماتيو) –(والحديدة راجع "ر. دورنما) . إن هذه الحقبات

الثلاثة أتاحت تقدير أهمية هذه المنطقة في الزمن القديم، كما كانت الكاشف لكيفيـــة تلاقـــي الشعوب والثقافات وتنافسها في النقاط والمواقف الحاسمة أثناء المبادلات التجارية .

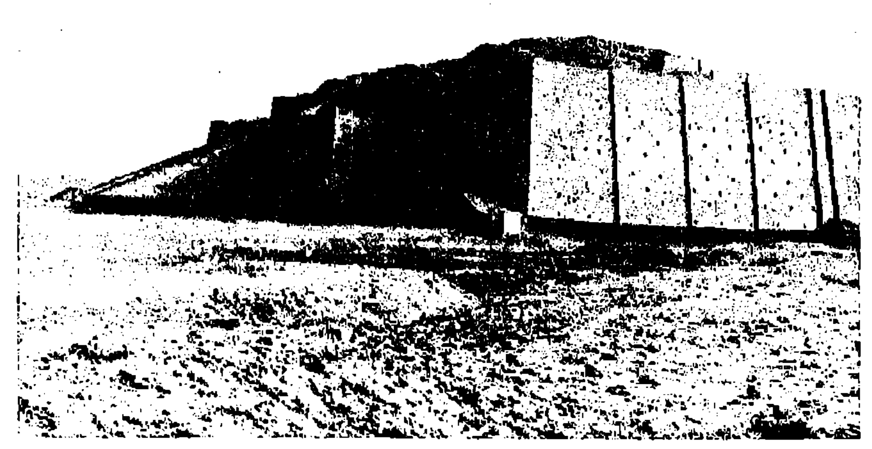
أما الحملة الثانية التي كانت تهدف إلى التخلص من الشمولية والاتساع كانت في العــراق في وادي (حمرين) على طرف (ديالا)، وهنا أيضاً كان من المفــروض التصــرف بســرعة والقيام بسلسلة من التنقيبات بسبب أنشاء بحيرة اصطناعية، فبين أعــوام (١٩٧٧ – ١٩٨٠) نُقّبَ (١٢) موقعاً من قبل بعثات عراقية وأجنبية. وقد عرفت بعـــهود (حلــف – عوبيــد – والسلالة القديمة، الذين أصبحوا معروفين بعد تلك العملية، فلا تزال نتائجها غير منشورة.

وهناك حملات تنقيب أخرى، ومن نفس الاختصاص أوشكت على الانهيار، أو هي علـــى الطريق، في منطقة (الدجلة) – (سد أسكي موصل أو على الفرات "منطقة الحديثـــة) وفـــي سورية، نجد وادي الخابور قد أصبح عرضة لتحريات مندفعة قبل حدوث الغمر المقرر تنفيذه مستقبلاً .

في جميع تلك الأعمال المنجزة، كانت الأنظار موجهة نحو نفس التلال بشكل تقليدي، غير أن سرعة العمل لم تكن تسمح بالاهتمام الصحيح بتلك المساحات الواسعة البعيدة عن بعضها. ومع ذلك لا بد من اجراء التحقق المنهجي في حالات الانقاذ أو حالة الضرورة الملحة . مثلاً: عند دراسة منطقة (ماري) كان الأمر يتطلب مسبقاً انجاز فحص خرائط المواقع ومســـارات الأقنية القديمة التي أنجزتها السلطات السورية لتحديد المستويات مع طول الوادي، ولانشـــاء نظام صالح للري، رغم اختفاء بعض الآثار والترسيمات الحيوية القديمـــة، وآثـــار المواقـــع السكنية التي شهدت حياة بسيطة سواء بشكلها أو سقوف أبنيتها الواطئة، وأيضاً القطاعـــات التي كانت تحوي آثار مسار أقنية الري، ناهيك عن أن الجهاز الجيولوجـــي لدراســـة شـــكل الأرض مع علماء الآثار المختصين بهذا الموقع، كانوا مرتبطين بدراسة المنطقـــة المـــهددة بالغمر لانقاذ واحياء معلومات على غاية من الأهمية تفيد عن مملكة مـــاري وعـــن تـــاريخ المنطقة. ومع الأسف، يوجد مناطق أخرى أُحسِنَ صيانتها غير أنها لم تلق نفس الاجـــراءات العاجلة .

ومن المبكر جداً، أخذ الأمثولة الصادقة، حول الأعمال والمنجزات الأساسية لهذه الحقبـــة من البحوث والتنقيب، فمن الناحية الطبوغرافية كانت الأفعال محـــدودة، أمـــا مـــن الناحيـــة التاريخية فكانت خصبة جداً لأنها عززت المفهوم الذي يبشر (بالمستقبل الغني لآثار المنطقة)

الذي سبق أن ذكره ووصفه العلماء الأميركيون في المعهد الشرقي – شـــيكاغو، مـــع ذكـــر العمليات التي تمت في (أموك وديالا) قبل الحرب العالمية الأخيرة .



أول سطح مكتشف (للبرج الديني من عدة طوابق في أور)،
أعيد إصلاحه من قبل مديرية الآثار في العراق.

ثانياً: متابعة استثمار المواقع : بجانب تلك التحريات التي لها طابع المنطقـــة إستمر التنقيب في التلال بشكل افرادي بدافع التقدير أنّ عدداً من الورشات التي أحرزت النجاح في خطة العمل الأولى قبل عام (١٩٣٩) عملت بحيوية .

في سورية مثلاً، رأس شمرا (س – شيفر وش – كونتانسون ومارغيرون) وفي ماري (بارو ومارغيرون) والعودة إلى (تل براك عــ/ ط د . وج . اواتس) وفي العـــراق، إذا كان (نمرود) لم يحظ في التنقيب، إلاّ بفاعلية وقتية محدودة حسب "مالوبيك " فإنـــها (أوروك (H, H, lenen, G.Shmidt, R .M, Boehmir) (ونتيور) Meguire Gibson تبقى أماكن مفضلـــة في البحث، رغم الطريقة غير النظامية التي رافقت اســـتثمارها نتيجـــة الأزمــات العالميـــة والصعوبات الأخرى .

علماً بأنه تمّ الارتباط، بمسارات أخرى، تنقطع أو تُتْرك مباشرة أو بعد مدة وجيزة رغـــم نتائجها الواعدة، فهي على سبيل المثال : التنقيب في "تل ريمــــه" (د .اواتـــس) أو الحبيبـــة "د .هانسن" ، وفي حالات أخرى تحققت الآفاق بطول المدة. وأيضاً، فـــي العـــراق، توجـــد التنقيبات في تـــل الديـــر حســـب (L de Meyer, et Hgasehe) منـــذ (١٩٧٠) ، أو لارســـا (حسب Huot, . Margaeron A Parrot,)، اما في سورية: تل شوري حسب A, moortgat,) Worthmann وايبلا حسب (Marthiac)، ودير كاتليمو حسب (ش – كوهني Kuhne)، وتركـــا حسب (Buccellati)، وتل ليلان حسب (H,weisssc) وتل بيا حسب (Estrammenger)، وحمام التركمان حسب (Me – von, loon, D. Meiger)، وموقع محمد ذياب حسب (G, M, Durand)، وتل موزان حسب (G, Buccellati) .

اما الذي يلفت النظر، ان طبيعة التحري والتنقيب التي كانت ســـائدة خـــلال الحقبـــة الاخيرة، طرأ عليها التغيير الكلّي، لان التنقيب الاثاري اصبح الان، خلافا للماضي، يتطلـــب الاستجابة الى التساؤلات التاريخية. يثبت ذلك المفهوم الجديد، للممارسات الحديثة التي تطبق على مثل تلك الاشغال منها على سبيل المثال:

١– ان انتقاء الموقع لا يرتكز على الحجم، لان البحوث والتحريات الاولية اتاحت مسبقا الوصول الى حل المسائل المعقدة بشكل واضح، لذلك اتخذ "ج . كوفان" قراره القيام بالتنقيب في (الكوم) بعد ان أزال الشك بتحليله تفاعلات الحجر المصقول من العصر الحجـــري فـــي أراض قاحلة، وهكذا ايضا، رغب (ج.اواتس) في موقع "شوكا – مامي" معرفة وتحديد طريقة

العيش في قرية، خلال عصر (حلف Halaf) في سفوح جبال زاغروس - وايضـــا وجـــدت الضرورة الملحة لدراسة عصر "عبيد" في المنطقة الجنوبية لبلاد ما بين النهرين حيث قـادت (ج . ل . هيوت G, L, Huot) الى استثمار"تل العويلي" بجانب "لارسا" .

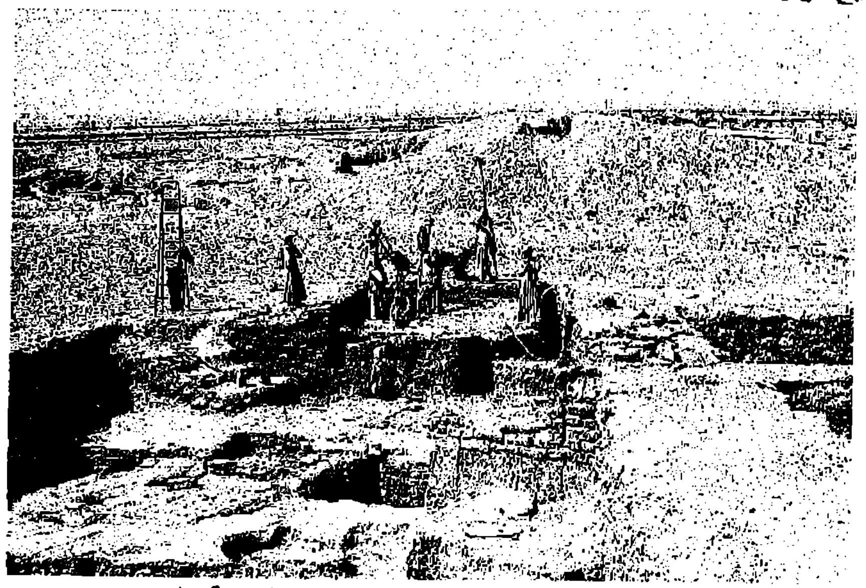
٢- تمركز التنقيب السابق في مناطق اعتبرت من الدرجة الثانية في الاهميـــة، مثـل منطقة الخابور الاعلى الواقعة في سفح الجبل، والتي منذ عشر سنوات كانت تستقبل البعثات، ولكن الان، بالاضافة الى (تل براك وليلان) المذكورين يوجد حملة تنقيب في كل مـــن (تـل بري) راجع "بيكوريلاك" و"تل موزان" ومحمد ذياب" .

٣- ان مضاعفة التحري والتنقيب على السطح، دعت الى القلق والى ضرورة اعـــادة النظر بهذه الطريقة بشكل أوسع من الماضي. ولكن العمليات تختلف من واحدة الى أخرى، قد تتعلق بمساحة الارض بشكل كلاسيكي، يقوم بفهرسة المواقع المحددة، وتحديـــد السـطوح، وعلى الغالب، فان المعاينة تنطلق من مهمة انتهاء الموقع، وعلى كل حال فهو يشـكل هدفـا بحد ذاته. فقد درس، (ر. ادامس) بشكل منهجي، منطقة "ديالا" لمعرفة تاريخها، ومـــن ثـم بواسطة (ش . نيسن) تحقق التنقيب ذاته في منطقة "اوروك". وفي حالات اخرى، قادت فرقة متعددة الاختصاص العمل بنفس المنهاج، بعد ان ضاعفت مصادر المعلومات، وايضا نجد ان علماء شكل الارض، وعلماء التربية، والعلماء المختصين بالعصر الحجري، والقابلين القسمة على أربعة، جميعهم، شاهدوا وادي "ماجور" السوري وقاموا بدراسة تفصيليـــة تحـت ادارة "ب، سانلافيل" . وقد تبين بأن دراسة منطقة ما قد تتطلب الترابط مع مركز المدينة التابعـــة لها-كما هو الحال مع (ماري - أو - دور كاليمو) حيث يتطلب دراسة العلاقات بين المدينـة وريفها .

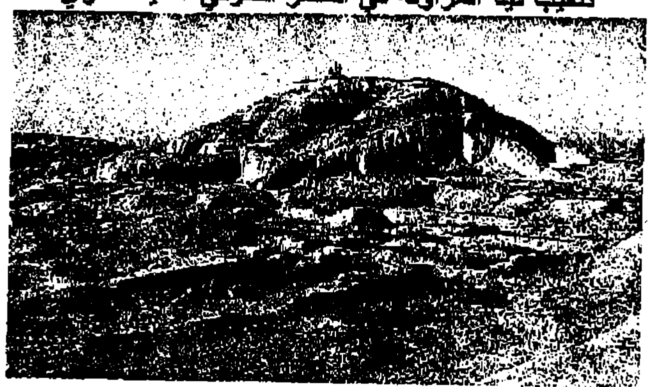
ان هذا التعاون المنتظم بتنوعه، يتعاضد بكل ما يمكن، ليظهر حقيقة الوضع القديـــم، ويدل على جديد المواد الاثارية التي يُعثرعليها باشكال متعددة، ان الاثار التاريخية في الشرق تستحق من الجهد أكثر مما ابرزه مجمل حقل التنقيـــب فـــي المنطقـــة بحســب الظـــروف والامكانيات، ففي الورشات، يوجد، بالاضافة الى علماء الاثار - والنقـــوش - والمهندســين والمصورين الذين كانوا منذ بدء القرن يهتمون بصف الجص او الاحـــرف، (علمـــاء شـــكل الارض الجيومورفولـــوق Geomorphologue) وعلمـــاء التربـــة - وعلمـــاء (البوتانيســـت Botanistes) و(البالينولوق Pahynoloque) و(عالم الحيوان) و(العظام Ostealogues) وكل عالم

آخر يستطيع المشاركة في صف وترتيب الاصناف الآثارية، لانه يستطيع مراجعة الكتب أو المادة العلمية للوصول الى معرفة التاريخ أو تقديره .

إن هذه الطريقة الجديدة المستخدمة في التحريات الأثارية في الشرق ليست النهائية بحد ذاتها، بل انها موقف فقط، قد تستعاض في المستقبل القريب بشكل افضل، لان علم الآثار التاريخي يتطور بسرعة وبانتظام، ولان نتائج السنين الاخيرة اثبتت حقيقة هذا التطور لانه يتيح مزاولة التنقيب بشكل افضل .



تنقيب قيد المزاولة في القصر الشرقي لمدينة ماري



تنقيب قديم عن الآثار في أوروك موقع

الـ (انّا – وزيكورات anna zigguat).

حل وفهم الكتابات المسمارية

بعد ان تابعنا تطور الفعاليات الاثارية حتى اليوم، لا بد من العودة الى الخلف لاستحضار الجهود المبذولة منذ القرن الثامن عشر لفهم النصوص المسمارية. وعندما نتمعن في اقتناء مصادر تمدن بلاد ما بين النهرين، ندرك تماما عدم الفصل بين الاثار وعلم النقوش.

وفي الحقيقة، كان بعض العلماء في أوروبا يحاول فهم بعض الوثائق الملغزة والمغطاة برسومات غريبة على شكل المسامير، والتي قدمت الى اوروبا منذ اوائل القرن السابع عشر، وكانوا شديدي الرغبة في جلب اعداد أخرى من هذه الرسوم من تلول الشرق، غير ان موسم التنقيب قد انقضى. ولكن في باريز وبفضل الترجمة اليونانية لنص مزدوج اللغة عثر عليه في مالطة باللغة الفينيقية، اعطى الاب "بارتيليمي" التعليمات الى الاب (ج . بوشام G. Beaucham) النائب الاسقفي في بغداد عام (١٧٨٦) باعادة احضار اكبر عدد من النصوص، ويُفضّل ان تكون بلغات مختلفة ليسهل حل رموزها، فكان ان (ج. بو شام) هو الذي مارس، كما يبدو، أولى سبورات التنقيب في بابل. فهذا الارتباط الوثيق بين علم النقوش والآثار هو الذي حقق الفائدة طيلة القرن التاسع عشر، بعد ان كشف التنقيب وجود العشرات لا بل المئات من الالوف من اللقى، اما بالنسبة لـ (ب . بوتا) ومن خلال تنقيبه الاول، جمع مجلدين ضخمين من نسخ النقوش، اعطى البرهان بواسطتهما عن تضامن هذان المريدان .

والسؤال، ماذا كان يُعرف عن هذه الخطوط في عهد "بوتا" وكيف تم التوصل الى حل رموزها .

ان النصوص الاولى التي وصلت الى أوروبا كانت، على ما يبدو، من الآجر المنقوشة التي جلبها معه المدعو (بيتيروا دلّلا فال Pietro, Della, vall) الفارسي اليوناني، اثناء عودته من العراق وهي التي عثر عليها في بابل وفي أور مع نسخ من النقوش التي شوهدت في (بيرسيبولس Persepolis). وهناك ايضا جهود اقيمت اعتبارا من القرن الثامن عشر بالحصول على وثائق منقوشة وعلى نقوش ابنية تم نسخها، استأثر بها بعض البحاثة، واسفرت عن تحقيق بعض النجاحات بوتيرة بطيئة ولكنها صادقة .

فقد تركز الاهتمام عندئذ، على النقوش الثلاثية اللغات المنقولة من (نقش-ى-برستم) ونقوش أخرى من "بيرسبوليس" جلبها معه مسافر يدعى "س . نيبوهر" حيث نشرها عام (١٧٧٨)، كما ان الجهود المترافقة بواسطة جيلين من العلماء وهم (سلفستر دي ساسي - مونتر - غرولفند - راسك - لاسن وأخيرا راولانسن - Sylvester de sasy - Munter - Raoulinsan–Grolefend – Rask – Lasen) قادت الى السيطرة على تحليل أحد النقوش الثلاثية اللغات، عام (١٨٤٥) في بادئ الامر، والتي انكشفت بعائديتها للغة الفارسية القديمة ولانها مكتوبة بنمط ابجدي سهل فهمه أكثر من اللغتين الاخريين .

اما الخط الثاني من نقش "رستم" تطلّب وقتا اطول لتحليله نظرا لندرة الوثائق التي توجب المقابلة، فكان فعلا يتعلق بلغة (سوزية Susienne) ذات مقاطع، التي امكن فهمها فيما بعد، نتيجة بحوث وتحريات "ج اوبر - و ويسباش" والاب (ف . سشيل -V.scheil,G.Appert, F.Weissbach) في مطلع القرن العشرين، بفضل، اسهام الوثائق الجديدة المستخلصة نتيجة التنقيبات المنجزة في (سوز) حينذاك..

وفيما يتعلق بالخط الثالث، الذي كان يختلف كليا عن الاول، فكان تحليله اسهل من الثاني لان وثائق المقارنة ظهرت بأعداد كبيرة منذ بدء التنقيب، وكان يعود الى لغة سامية استخدمها الاشوريون والبابليون. ثم، بشكل نهائي، حدد "بوتا" بدءه من منسوجات في "خورسباد" وجود (٦٤٢) رسما مختلفا، كما ان "هنكس" وضع بعد التحليل اساس مقاطع هذا الخط بابرازه (٧٦) رسما منذ عام (١٨٤٧). وخلال هذا الوقت، وبطرق مستقلة جزئيا، تمكن (راولينسن Rawlinson) الذي كان منشغلا بنقش بناء في (بيهيستون Behistun) سبق ان نسخه ظروف بهلوانية، من مطابقة (٨٠) اسما علما، كما طرح للعيان اهمية (١٥٠) رسما، وبرهن على ان تلك الرسومات، اضافة الى قيمتها المقطعية، تمتلك ايضا قيمة رمزية. لان كل مقطع فيها يستطيع ان يعبّر عن نغمات عدة. وعلى ما يبدو، انه نظام خاص متكامل وضع "راولنسون" اهم قواعده مما أكسبه شرف ما لُقِبَ به (أب علم الاثاريات الاشورية) .

وللتأكد من حسن اشادة هذا التحليل، تم اللجوء الى المطابقة مع نقوش وافدة جديدة، وذلك بتكليف اربعة علماء من الاثار الاشورية عام (١٨٥٧) كل على حدة، وهم : (تالبوت - راولينسن - هنكس - واوبرت) لتحليل نص مستخرج من "آشور" كان قد أحضره "رسّام"، وبعد مطابقة الترجمات مع بعضها، تحقق بأن النص المتعلق باللغة الاشورية هو المتغلب .

غير ان تاريخ حل الرموز لا يصل دوما الى النهاية، ولذلك يجب ادراك سبب تمثـل الخط الاشوري بمثل هذا التعقيد، ومنذ عام (١٨٥٥) عندما عرض "ج . اوبرت" حالة تعـود الى تحليل الرموز، اعتبر ان الاشوريين قد اقتبسوا طراز الخط من شعب آخر، كونه التفسير الوحيد لخاصية المقاطع المتمثلة فيه، ومن جهة أخرى كان "اوبرت" يفكر بأن الصورة الكاملة متوفرة في اساس الرسومات المسمارية، بأن هذا الخط كان تصوريا في البدء.. وقد تطلـب قبول مثل هذه المقترحات مدة ثلاثين سنة، بعد ان اقفل هذا النزاع باكتشاف النصوص فـي "تللو Tello"

ومنذ ذلك الوقت، توضحت حالة الخطوط، وتبين بان النصوص العائدة للغات السـامية والمكتوبة باللغة الفارسية كانت مشتقة من الخط السومري الذي تشكل بدوره بعد غياب سلسلة الصور التي تحولت بالتدريج الى رموز، كما ان الفن المنقوش (الغزارة على الفخار) يفسـر التمثل المبسط للتصوير الاساسي بشكل تعامدي صلب. وعندما استحسن البعض من الشـعوب السامية استخدام النظام المتبع من قبل السومريين، وجد نفسه امام صعوبات جمـة، لوجـود توافق حقيقي بين طراز الخط السومري واللغة السومرية المرتكزة على مقطع واحد، والتـي بيانياً ليست سوى رسما ممثلا بالمادة والنغم، وهذا لا يتفق مع بنية اللغـات السـامية التـي بطبيعتها متعددة المقاطع. لذلك فان الخيار الذي تم تطبيقه تضمن تقريب النغمات الصوتيـة المتوافقة مع مقاطع الكلمات الاشورية، ولكن بعد تجريدها من معناها السومري، وهذا يجعـل بعض الرموز المتقاربة ضمن امكانية تحللها مع الكلمات السامية. ولكن هل ثقافـة النسـاخ كانت بمعزل عن القيمة الرمزية للرسومات، وهل عن طريق التضامن استخدموا الطرازين .

فقد استخدم الخط المسماري منذ البدء بستخدام اللغـات السـامية، وبفضـل اللوائـح (السومرية – الاكادية) المزدوجة اللغة والتي فيها النسخ بدراسة السومريين، ومع ان صعوبة هذه اللغة تبدو كبيرة وواقعية، غير انه يتعذر ربطها بأي جهاز آخر معروف، وليـس امـام علماء اثار اللغة السومرية الا ان يحاولوا السيطرة ولو على المهم والاساسي منها .

فالحلقة، مع ذلك، لم تفلت تماما، فلا تزال موجودة أيضا لغة أخرى لم يُسيطرْ عليـها وهي اللغة "الحورية Hourrete" التي استعملت في الجزء الشمالي من بلاد ما بيـن النـهرين ومن سورية، أي مع طول المنطقة الملامسة لجبال طوروس وللحوض الـهيدروغرافي فـي

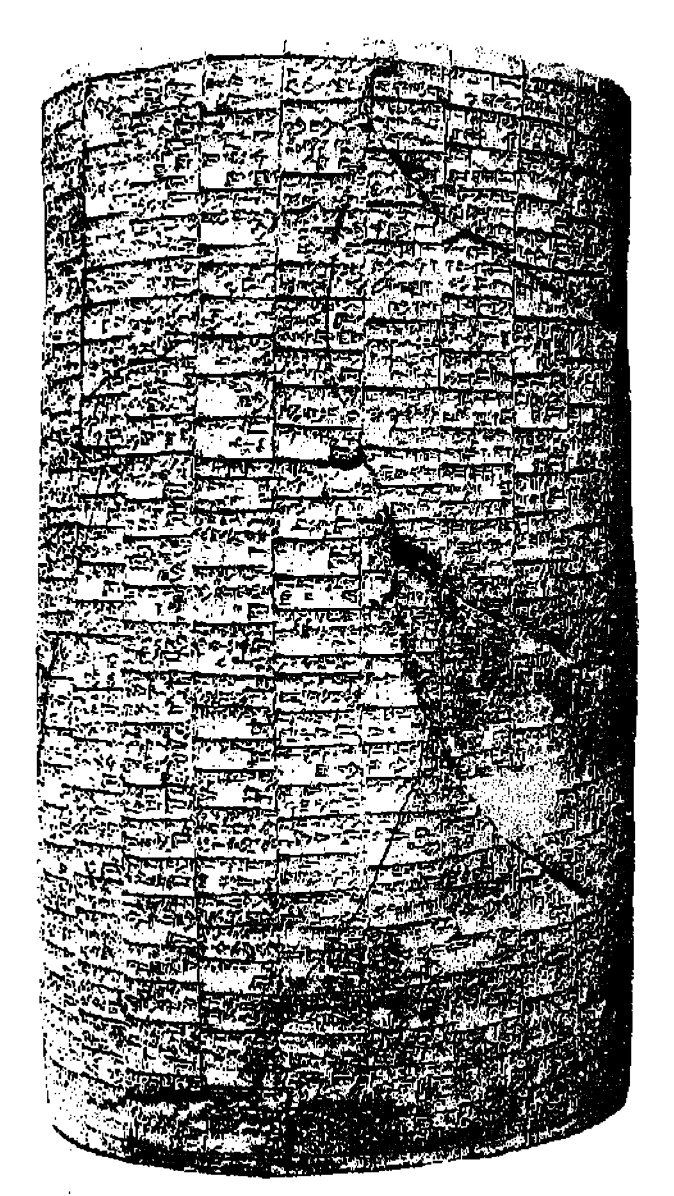
الالف الثالثة والثانية ق.م فان غياب اللغة المزدوجة الذي استمر حتى تاريخ متأخر، مع العدد القليل من الوثائق سهلت الحل عند العجالة .

فاذا ما وضعنا موضوع اللغة الحورية جانبا، وعندما تفتتح المرحلة الثانية للاستثمار الاثاري، يمكن القول انه منذ اوائل القرن العشرين اعتُبِرتْ اللغات الرئيسية المتداولة في بلاد ما بين النهرين ذات خصائص .

بعد مائة وخمسين سنة من البحوث الوثائقية

والان هل يمكن، بعد نهاية هذا العرض المختصر للمصادر المكونة لهذه التنقيبات، محاولة تقدير الاهمية الحالية والقيمة الخاصة لكل سلسلة وثاقية، فالجواب، هذا غير مؤكد، وحتى غير ممكن، غير انه يمكن القيام بمحاولة لايضاح بعض الخطوط الاساسية التي لها جانب التأثير على طبيعة اعمال الباحثين، أو على ملخص الفكرة التي يمكن استنتاجها من هذه المدينة .

وما يلفت النظر هو ازدياد الوثائق المتتابع، في بادئ الامر، ومنذ قرن ونصف مثل بعض نصوص الكتاب المقدس، وبعض التذكارات المبهمة أو الاساطير المشوهة ضمن النصوص اليونانية او الرومانية، او بعض الاشياء المنقوشة او العادية، وجميعها، في كل الاحوال غير مفهومة، اما الان، بفضل التنقيب، وللاسف، بفضل سوق الاثار الذي ينقل المواد الاثارية المستخلصة، على الغالب من اعمال التنقيب الخفي، والتي لا يعرف مصدرها او طبيعتها، انها من مئات الالوف من النصوص (غير المفهرسة وغير الواضحة) ولكونها من المواد التي يصعب تقدير قيمتها مثل: (الاواني المختلفة ، الاسلحة، الادوات، مواد فنية، جميعها من الفخار، او الحجر او المعدن)، التي لا تتأثر برطوبة الارض خلافا للخشب والجلد والنباتات التي تستخدم للسلل وغيرها. وفي هذا المجال، لا يمكن تجاهل عناية عالم الاثار التي مكنت من تحسين المنظر الخارجي للمادة لتصبح صالحة للتخزين، الامر الذي يدعو الى الاهتمام الدقيق الزائد. غير ان تلك الدراسة والعناية لم تلامس بنفس المستوى، جميع المواد المذكورة، لان المواد الفنية بجاذبيتها تتطلب اهتماماً اكثر من المواد التي تستخدم للحياة العادية، فان كسرة الخزف المتواضعة كانت منذ زمن طويل، تعتبر (احفورية) متحجرة من



الشكل الإسطواني 'ب' لغوديا – Gudea
الألف الثانية ق.م مكتشفة خلال التنقيبات
في تللو– Tello – (متحف اللوفر).

الدرجة الاولى، بالمقابل، كم هي المدة الواجب انتظارها لنحت الاحجار وجعلها صالحة للخدمة في الحياة اليومية مثل: (حجر الطاحون - هراس الاطعمة - القادح -الـخ ......)، ناهيك عن الزخرفات الهندسية التي برزت الى النور، والتي اصبحت تنال البيوت - والقصور - والمعابد -. ولسوء الحظ، فقد اختفت صروح ابنية كاملة أو غير كاملة بعد اكتشافها وتخليصها لان الفخار الذي هو مادتها الاولية لا يثبت امام نكبات الزمن. اما حقل التنقيب لا يقدم للزائرين سوى النظر الكئيب، بالوقت الذي يمضي دارسو ومحللو هذه الزخرفات، غالبية او قاتهم في تنظيم واستكمال تقارير التنقيب.

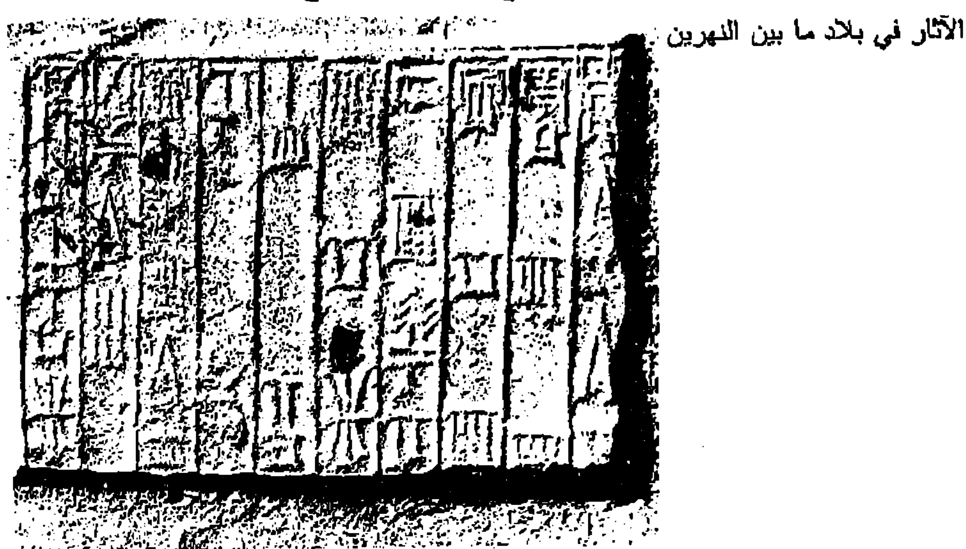
من جهة اخرى، تزداد وتنمو هذه الوثائق الهائلة والمكدسة منذ قرن نصف وتصل الى وزن يتعاظم فيصعب السيطرة عليه، فكل من علماء النقوش والزخارف يهتم بالمصطلحات التي تخصه من الوثائق الاشورية - او الاكادية او السومرية. اما علماء الاثار يهتمون بشكل خاص بأي حقل جغرافي مناسب، او أي زمن اثري محدد، او أية مادة معطاة للدراسة. ومن الصعب جدا، السيطرة الكاملة على مجموع آثار بلاد ما بين النهرين منذ اول اكتشافها حتى رحيلها، فقد مضى اربعون سنة على "ج . كونتينو" في محاولة انجاز مؤلف موجز عن الاثار الشرقية ضمن اربعة مجلدات و(٢٤٠٠) صفحة بعد ان بداء العمل به عام (١٩٢٧) وما زال يتملكه الشك بامكانية انجازه، انه عمل ضخم يدعو الى الدهشة .

ورغم ما سبق، فإنه مثل تلك الكومة من الوثائق لا يوازيها أي ثمن، اذا كانت النصوص عديدة (يزيد عددها عن الحجم الكلي للوثائق الاثارية " اليونانية الرومانية" المذخرة)، او كانت بأعداد ضخمة من النصوص الادارية او المحاسبية المستخلصة من القصور والمعابد حيث يمكن ان يضاف اليها المصنفات الاقتصادية أو التوثيقية الخاصة بالتجار او الافراد. فجميعها بحسب طبيعتها ذات فائدة كبيرة ونحن نكون سعداء اذا امتلكنا منها ما يماثلها من الاعداد الاثارية القديمة المتطورة. وبالنسبة لهذه السلسلة الكبيرة فلا تمثل النصوص الادبية - التاريخية - الاشعار الجامعة - الفألية - الاسطورية - الدراسات النظرية - القواميس - الا الجزء الصغير منها. ومن جهة اخرى، وضمن تلك المجموعة غير الاقتصادية التي تشكل وثائق تقليدية ظاهرة، فان الجزء الذي يعود الى النصوص الادبية والاسطورية لا تتجاوز (٥%) حسب السيد (غاريللي) الذي استند على فحوى مكتبة " اشور

بانيبال" وبهذا نكون، نحن المعاصرون لم نعطيها الاهمية التي تستحقها. وهذه هي الخصائص المميزة لبلاد ما بين النهرين الواجب ارتسامها حول مثل تلك الاستنتاجات .

اما بالنسبة للوثائق الاثارية، دون النظر الى خواصها وطبيعتها الذاتية. والى ملاحظات المنقبين، علينا ان نسجل بأن كومة الوثائق الكبيرة، ليست مرادفة تماما لكومة المعلومات الكبيرة ايضا، فقد عثرنا اثناء التنقيب، على عدد كبير من "التعاويذ" او قسيمات صغيرة محددة، ولكنني اثناء الدراسة، لم اجد اية ضرورة لاستخلاص اية فائدة حقيقية. مع انه في الغالب لا يتوفر الا القليل من المعلومات لتخليص بعض انواع المواد ذات الطابع القابل للتكرار بشكل سلسلة. لذلك يتوجب إنتظار اليوم الذي به، عن طريق تقصص جديدة، يمكن العثور على جزء من مادة تعتبر قابلة ومستحقة للبحث والتحري. كما ان الاحتياطات الموجودة في المتاحف ملاى بالمواد التي تنتظر الدراسة أو إعادة النظر بوضعها منذ مرحلة التنقيب او بوضعها الذاتي .

اما في العصر الحاضر، نجد ان التنقيب اصبح قابلا لاحاطة المادة المستهدفة بسلسلة من المعلومات الفنية المتعلقة بمحيطها، بوضعها، وبروابطها مع الغير، بحيث امكن اعطائها تعريفا وافيا. فان أكثر ما يهم عالم الاثار هو استيفاء اقصى المعلومات واعطاء مرحلة التنقيب الدور المميز، مع انه غير متأكد بانه سيواجه افضل او اندر مادة، لان المنجم لا ينضب واستثماره ذات الاتجاه لا ينعكس، ومع ذلك لهذا الموضوع صفة عامة تتجاوز اعمال الآثار في بلاد ما بين النهرين .



نموذج لوثيقة ذات طابع تاريخي

LE PROCHE ORIENT DE 14 000 à 3 700 av. J.-C. (de 16 000 à 5 700 B.P.)

Schéma chronologique

Période 0 (14 000 - 10 000)
Levant : *kébarien.*
Zagros : *zarzien.*

Période 1 (10 000 - 8 300)
Levant : *natoufien* (Mallaha).
Zagros : zarzien final.
Caspienne : épipaléolithique.

Période 2 (8 300 - 7 600)
Syrie-Palestine : *protonéolithic, PPNA* (Jéricho, Mureybet)

Période 3 (7 600 - 6 600)
Syrie-Palestine : *PPNB* (Jéricho, Beidha).
Anatolie : Hacilar *pre-ceramic*, Çayönü.
Zagros : Ganj Dareh, Ali Kosh *(Bus Mordeh).*

Période 4 (6 600 - 6 000)
Syrie-Palestine : *PPNB final* (Abu Hureyra, Bouqras, Ramad, Ras Shamra *V C*, Abou Gosh, Beisamoun).
Anatolie : Çatal Hüyük *(XII-IX)*, Can Hasan III, Suberde
Zagros : Jarmo *(a-ceramic)*, Ali Kosh, Sefid *(Ali Kosh).*

Période 5 (6 000 - 5 600)
Syrie-Palestine : Byblos *(néo. ancien)*, Ras Shamra *V B.*
Anatolie-Cilicie : Çatal Hüyük *(VIII-II)*, Amuq A.
Mésopotamie : Umm Dabaghiyah, Yarim I *(XII-IX)*
Zagros-Khuzistan : Ali Kosh *(Mohammed Jaffar)*, Choga Mish *(Susiana archaic I).*

Période 6 (5 600 - 5 000)
Levant : Byblos *(néo. ancien final)*, Ras Shamra *V A*, *phase Sha'ar Hagolan, Amuq B*, Chypre.
Mésopotamie : *Hassuna, Halaf, Samarra, Obeid I* (Oates).
Zagros-Khuzistan : Sefid *(Surkh), Susiane archaic II (Susiana a).*
Turkménistan : *Jeitun.*

Période 7 (5 000 - 4 600)
Levant : *Byblos (néo. moyen)*, Ras-Shamra *IV C-B, PNA, Amuq C.*
Mésopotamie : *Halaf final, Obeid II.*
Zagros-Khuzistan : *Sabz Khazineh, Choga Mami trans., Susiana* archaic III, early Susiana, middle Susiana 1-2 (Susiana b).
Turkménistan : *Anau I A.*

Période 8 (4 500 - 4 100)
Levant : Byblos *(néo. récent), PNB, Amuq D*
Mésopotamie : *Obeid III.*
Zagros-Khuzistan : *Mehmeh, Dalma, middle Susiana 3 (Susiane c).*
Turkménistan : *Anau I B, Namazga I.*

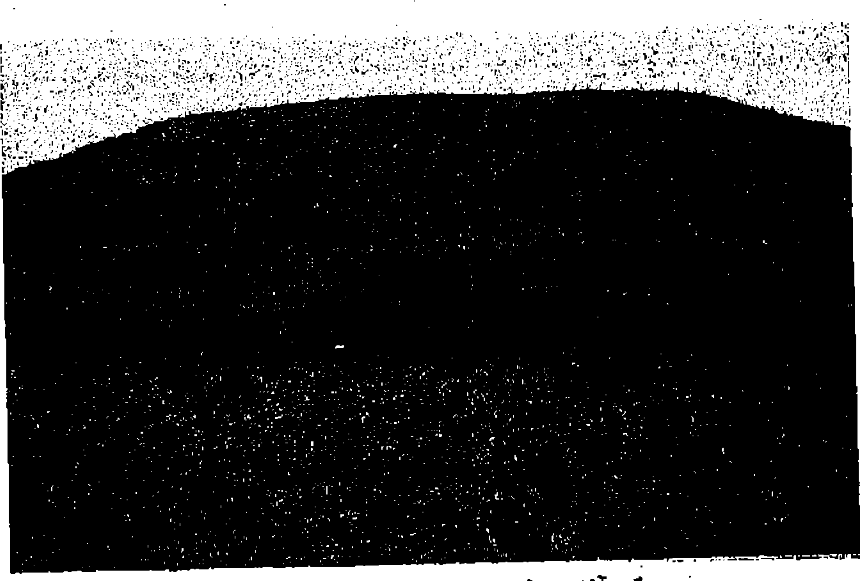
Période 9 (4 100 - 3 700)
Levant : Byblos *(énéo. ancien), Amuq E.*
Mésopotamie : *Obeid IV.*
Zagros-Khuzistan : *Bayat, late Susiana (Susiana d).*
Turkménistan : *Namazga II.*

N.B. Les dates sont données avant J.-C. (B.C.) calculées sur la base de la demi-vie "courte" (Libby), et non calibrées.

Tableau chronologique de la préhistoire orientale établie par l'Ecole Lyonnaise (in Préhistoire du Levant. Coll. Int. du CNRS 1980).

50

جدول تاريخي عن مرحلة ما قبل تاريخ الشرق المنظم من قبل مدرسة ليون (فرنسا).



موقع آثاري في مريبط (تنقيب ج - كوفان)

إن المخطط الذي سيتبعه ينظر إلى إيجاد الهيكل التاريخي الذي يطوّر حضارة بلاد ما بين النهرين بوضع النبرة والاناة على بعض الأعمال الرئيسية المنتقاة حول الثقافة المادية، وعلى الأحداث التاريخية الناخرة في خضم العصور التي اعتبرت مقبولة داخل الوثائق المكتوبة، بعد أن أجريت المحاولة بتوصيف بعض الخطوط الكبرى لهذا التطور، وبعد ذكر الأيام الجديرة بالاهتمام ، ويمكن ترجمة هذا العرض بالوقائع التي سترد في كل فصل لاحق مؤكدة على الأدوار الرئيسية التي تضمنتها كل حقبة بشكل خاص .

فقد أتاحت التحريات المجراة خلال الخمسين سنة الأخيرة، وخاصة العقدين العشريّين الأخيرين، احتضان المراحل المختلفة لما قبل تاريخ بلاد ما بين النهرين . وقد رافق هذا الاكتشاف المتدرج الإيجابي مساهمة ذكر الأسماء في كل من العصور الغامضة، نسبة، إلى المواقع التي قدّمت أولى البيانات عن هذه أو تلك الثقافة التي كانت بأجلى الوضوح. وقد تميز بذلك أيضاً المواقع الواهبة أسماؤها(eponime) التي اكتسبت درجة عالية من الرقي، رغم أنها لم تكن راضية تماماً لأنها أكثر بلورة واشعاعاً من بعض المقرات الظاهرة التي لا تقل أهمية عنها. ولهذا السبب، اقترحت فرقة العلماء لما قبل التاريخ في ليون اصدار تصنيفاً جديداً تاريخياً، نورد ذكره فيما بعد بموجب (جدول لاحق) نحتفظ هنا بتسمياته التي يطلبها الاستعمال .

السير نحو العصر الحجري (النيوليتيكي)

منذ البداية، يجب تحديد الوضع الخاص جداً لبلاد ما بين النهرين الذي ظهر متأخراً في التوليد (de la neolithisation) لأن هوامشها كانت في غاية الاعتناء، وفي زمن سابق، حدث تطوراً أساسياً بين الألف الثاني عشر والألف الثامن، وشاهد حينذاك العديد من القناصين – والملتقطين قد تبدلوا إلى مزارعين – ومربّين، أي من مخاتلين إلى منتجين. كما شمل هذا التطور منطقة التلول الممتدة على سفوح سلسلة جبال طوروس، وامتداد البحر المتوسط. وفي هذا القطاع الذي يدعى من قبل الأخصائيين. "المنطقة النووية" كانت تنتشر في

المواقع المناسبة، أنواع من الحبوب البرية كان الانسان يجنيها. هكذا كانت نقطة الانطـــلاق لمفهوم التوليد الذي يعني تحضير الانسان، وولادة السكن الثابت وهندسة البناء والمرور مـــن مرحلة ما قبل الزراعة وما قبل تربية الدواجن إلى الزراعة وتربية الحيوان الفعلية .

ففي فلسطين (في ملاحة وأريحا Mallaha) وفي سورية الشـــمالية (المريبـــط) وفـــي (كيباريان Kebaren)، كان التطور متدرجـــاً بيـــن عـــام (١٤٠٠٠ - و - ١٠٠٠٠) وفـــي (ناتوفيان Natoufien) بين عام (١٠٠٠٠ - و - ٨٣٠٠) كانت المراحل الأولى للتطور. وفيما بعد، بين عام (٨٣٠٠ - و - ٦٦٠٠) تشكلت الهيئات قبـــل العصـــر الحجـــري (Frotoneo thique) التي وقعت، في فلسطين (أريحا - البيضة)، وفي سورية (مريبـــط) بينمـــا منطقـــة الأناضول وزاغروس تأثرت بالتحركات والانتقالات الكثيرة .

أوائل العصر الحجري (النيوليتيكي) في بلاد ما بين النهرين

إن المنعطف الذي يتعلـــق ببـــلاد مـــا بيـــن النـــهرين أمكـــن تحديـــده بيـــن عـــام (٦٦٠٠ - و- ٥٦٠٠) وفي بادئ الأمر، ظهرت سيادة الزراعة وتربيـــة الحيـــوان، حيـــث ابتدأت في العصر الحجري المصقول، وما أمكن استنتاجه في هذه المرحلة، هجرة التقنيـــات الجديدة من المنطقة الملقبة (بالنووية) نحو مناطق جديدة، منها وادي الفرات. وخـــلال هـــذه المرحلة انشئت (بوخراس Boukras) وعلى بعد قليل نحو الشرق (أم الدباغية وتَبَّـــةْ يـــاريم Umm Dabaghiyhy, h et yarlim) ومنذ ذلك الزمن، تتابع احتلال التلال المحيطة مـــع طـــول المنحدرات المحاذية لمجرى الأنهار. فقد اشتهرت الزراعة بسامراء خلال الحقبة الجديدة فـــي تل الصوان قرب الدجلة، (وشوقا -مامي) في منطقة المندلي. وفي الألف الثالثة تطـــورت بنجاح كبير زراعة (الحلف Half) وهي تسمية اتخذت عن موقع في شـــمال ســـورية تميّز باستخراج سيراميك ذات زخرف هندسي، عثر عليه في (حسونة) على شط البحر الأبيـــض المتوسط، والذي يشبه زخارف سامراء .

الشرق الأدنى من (١٤٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ ق.م)

ومن (١٦٠٠٠ إلى ٧٥٠٠ ب.ب)

-١- الحقبة ٠ (١٤٠٠٠ - ١٠٠٠٠)
في الشرق: كاباريان
في زاغروس: زارزيان

-٢- الحقبة ١ (١٠٠٠٠ - ٨٣٠٠)
في الشرق: ناتوفيان (ملاحة)
في زاغروس: زارزيان (كنهاية)
في كاسبين: ييبياليوليتيك Epipaleolithique

-٣- الحقبة ٢ (٨٠٠٠ - ٧٦٠٠)
في سورية وفلسطين: ما قبل العصر الحجري
في ب.ب.ن.أ PPNA أريحا ومريبط

-٤- الحقبة ٣ (٧٦٠٠ - ٦٦٠٠)
في سورية وفلسطين: ب.ب.ن.ب. أريحا والبيضة
في الأناضول: Hacilar Pre- Ceramic, Cayonu
في زاغروس: Ganj Dareh, Ali Kosh (Bus Mordeh)

-٥- الحقبة ٤ (٦٦٠٠ - ٦٠٠٠)
في سورية وفلسطين: PPNB final
أبو هريرة - بخراس- الرماد
في رأس شمرا: VC أبو غوش - بيسامون Beisamoun
في الأناضول: Catal Huyuk (XII-IX), Can Hasan III, Suberde
في زاغروس: Jarmo (a- ceramic), Ali Kosh, Sefid (Ali Kosh)

-٦- الحقبة ٥ (٦٠٠٠ – ٥٦٠٠)

في سورية وفلسطين: بيبلوس القديم – الحديث – رأس شمرا VB

في الأناضول وقيليقيا:(Catal Huyuk(VIII – II
Amuq A.

في بلاد ما بين النهرين: أم الدباغية – يارم – (XII – IX)

في زاغروس وخوزيستان: Choge (محمد Ali الحفار)

في ميش: سوزيانا –(يسبق العهد الكلاسيكي الأول)

-٧- الحقبة ٦ (٥٦٠٠ – ٥٠٠٠)

في الشرق وبيبلوس: القديم – الحديث – النهائي– رأس شمرا (VA) مرحلة الشعار

هاجولان: أموك ب، c قبرص

في بلاد ما بين النهرين: حسونة– حلف سامراء – عبيد ١ – (Oates)

في زاغروس – كوزيستان: ,Sefid (Surkh)
Susiana archaic II (Susiana a)

في تركمانيستان: جيتون Jeitun

-٨- الحقبة ٧ (٥٠٠٠ – ٤٥٠٠)

في الشرق وبيبلوس: المتوسط – الحديث – رأس شمرا ٤– PNA – C-B أموك

في بلاد ما بين النهرين: حلف الاخخيرة – ١– أوبيد –٢– (Obid II)

في زاغروس وخوزيستان: ,Sabz Khazineh
Ghga Mami trans, Susuiana

في العهد الكلاسيكي الثالث: ,Early Susiana
middle Susina 1 – 2 (Susiana

في تركمانيستان: آنو –١– آ.

-٩- الحقبة ٨ (٤٥٠٠ – ٤١٠٠)

في الشرق وبيبلوس: الحديث الجديد , PAN
Amuq D

في بلاد ما بين النهرين: أوبيد -٣-

في زاغروس وكوزيستان: Mehmeh, Dalma, middle Susiana3 (Susiana c)

في تركمانيستان: آنو -١- ب. ناكازكا -١-

-١٠- الحقبة ٩ (٤١٠٠ - ٣٧٠٠)

في الشرق : بيبلوس (enco. ancien). Amuq E

في بلاد ما بين النهرين: أوبيد -٤-

في زاغروس كوزيستان: Bayat, lata Susiana (Susiana d)

في تركمانيستان: نامازكا -٢-

ملاحظة: ن.ب التواريخ المعطاة تعود إلى ما قبل الميلاد محسوبة على قاعدة نصف الحياة القصيرة (Libby) وليست معايرة

جدول تاريخي لما قبل التاريخ في الشرق نظم من قبل مدرسة (ليون)

ما قبل التاريخ بالنسبة للشرق du CNRS – Int – Coll – ١٩٨٠

عصر أوبيد

نحو عام ٥٠٠٠ أو قبل ذلك، كانت بلاد ما بين النهرين مفتتحة بصورة كاملة، رغم أن العوامل الجغرافية أخفت فيها بعض الآثار البدئية، فإن اسم (أوبيد Obeid) أطلق على هذا العصر تيمّناً باسم موقع في الجنوب قرب (أور) حيث اشتهر فيه، لأول مرة، وجود السيراميك الذي ميّز تلك الحقبة .

بقيت حضارة (أوبيد Obeid) مستمرة مدة ألف وخمسمائة عاماً وقد امتدت خصائصها بسرعة على جزء كبير من الشرق الأدنى، وحتى عام (٥٠٠٠) كانت بلاد ما بين النهرين عرضة للنفوذ الخارجي، ولكن خلال طول مدة حكم أسرة (أوبيد) انحسر هذا التوسع. في جميع المناطق، فيما عدا هذه التي تمتعت ليس فقط بتطور خاص ونشيط لحضارتها، بل بتوسع كبير أيضاً، وقد رافق ذلك، تطور وتبدل جماعي في صيغ وشكل المواد باتجاه المناطق المحيطة، الواقعة بين (سوزيان إلى شط البحر الأبيض المتوسط) وبنتيجة هذا النجاح برزت هذه الحقبة وكأنهاعن طريق بلاد ما بين النهرين ستأخذ على عاتقها النمو والاضطراد وابتسامة الحظ، فكان هذا الاشعاع باكورة حقيقية لتغيرات عميقة تناولت لعبة القوى، وبشرت بفاتحةٍ لولادة قوى ستسود أكثر من أربعة آلاف عام .

وقد تميز هذا الزمن بتطور الزراعة مع وضع وتركيز تقنية الرّي الذي بدونها لن يكون أي معنى لتطوير بلاد ما بين النهرين ، لقد كانت القوى المرتكز الطبيعي لحياة الانسان ولكنها ابتدأت تتحول إلى تجمعات سكنية أكثر أهمية يتعذر على بناها التسمّر .



بناء من حجر (ستانغيبود Steingebaude) تعود إلى منتصف أوائل الجزء الثاني من الألف الرابعة، عثر عليها في أسفل سطح (المعبد الأبيض) أما جهة استخدام هذا البناء بقي مجهولاً.

الحضارة القوية والنافذة [الأووروك Uruk]

خلال مجرى الألف الرابعة أتت حضارة أوروك بعد حضارة (عبيد)، ويأتي مصـــدر هذه التسمية، لموقع كبير ومشهورفي بلاد ما بين النهرين الجنوبية كان مركزاً لتطور قـــاد إلى ولادة "سومر" حيث نلاحظ خلالها ازدياد امارات تباشير المرور من مفهوم القرية إلــى مفهوم المدينة. فأوروك، حالياً، تمثل قمة واشتهار هذا المفهوم، ويمكن القول بأنها بالحقيقيــة كانت الحاضرة الأولى من تلك الحاضرات القديمة المندثرة التي يصعب العثور عليها لعــدم وصول التحري إلى أي تاريخ ولادة ثابت وصريح حول هذه الظاهرة .

وما أمكن استنتاجه في "أوروك"، وتقديراً في ذلك الزمن، أول ظهور هندســة البنــاء وولادة الختم الاسطواني الرسمي الذي حلّ محل الختم البسيط. والاستخدام العام، في ســائر بلاد الشرق الأدنى، لنوع من السيطرة الحسابية التي بواسطتها يمكن تشغيل أدوات حسـابية، تتميز بخلق رسمات خاصة قادرة على ترجمة الظروف الجديدة للحياة الاقتصادية حينــذاك، وبتحليل مواقف حسابية مهمة في بلاد ما بين النهرين .

لقد أعادت جميع الخصائص اثبات وجودها إلى أبعد من "أوروك" مثلا: في "ســبيس" الواقعة شمال سورية مع طول مجرى نهر الفــرات، وفــي (Aruda الحبوبــة الكبــيرة دج العروضة) وفي تركيا "حاسك الحوّييك". وبنتيجة التحريات الأخيرة ثبت أن منطقة الخــابور الأعلى، والدجلة العليا كانت تتمثل بوجود الحياة المشتركة، كما أن التجارة تتبدل بالاحجــام وحتى بالأهداف، وغالباً ما يصعب علينا قياس مدى التغيرات التي نصادفــها، ولكــن يبـدو أنهاحتى الآن أقل مما قدر لها، ونترك لمسار علم الآثار فقط اجابة المورخين حـــول هــذه النقطة.

تظهر لنا تنقيبات "أوروك" بأن التحولات الاساسية تمت ما بين الألف الخامسة والثانية وقد سبق تحديدها. في بادئ الأمر ظهر على المستويين (٥ – ٤) الختم الاسطواني وعلـــى المستوى (٤) عثر على النماذج الأولى للخط، وهناك بعض الخصائص وجدت فــي اللقــى العائدة للطبقات (٣-٢) (وهي مرحلة سُميت (بجمدة – نـصر– Gemdet Nase)) فــي موقــع بابيلونة المركزية، حيث عثر أيضاً عليها، ويقال بأنها مكتوبة باللغة السومرية، ومن المحتمل ان هذه اللغة كانت تحكي على مستوى (٤ – الرابع) أما الســؤال الــذي اســترعى انتبــاه

المستشرقين هو معرفة الزمن الذي ظهر فيه السومريون قد لانجد جواباً لهذا السؤال، الـــذي يبدو بلا جدوى الأن، وتبدو الاجابة صعبة عن طريق التنقيبات الآثارية .

ولكن ظهر تحول آخر رئيسي كان بمثابة نقطة انطلاق في هذه المرحلة، فلـــم يكـن المعدن معروفاً بالكامل، فقد بدئ باستخدامه بسعة أكبر بجانب الذهب والفضة، وأحياناً بجانب الرصاص، وخاصة النحاس، ولكن هذه الجدة في استعماله ابتدأت نحو نهاية هذه الحقبة . فقد مُزج البرونز مع النحاس ومع كمية قليلة من القصدير أو حمض الزرنيخ، حيث أمّـــن هــذا المزج للمواد الجديدة انتشاراً تزايدت أهميته طيلة النصف الأول للألف الثالثة.

لم يكن ذلك، إلا احد مظاهر التطور العميق الذي عرفته هذه الحقبة، التي قادت إلـــى استراتيجية اجتماعية اكثر دفعاً والى حياة متحضرة. هذا بالإضافة إلى العديد من الاكتشافات التي يصعب حصرها والتي تمت خلالها مثل: (دولاب الخزف) الذي حل محل قفص الدوران البسيط، والذي، عند العوز، يتم انتاجه بالسلسلة ، وأيضاً الدولاب الذي تكشّف وكأنه عـــامل تطور في عمليات التبديل، المتلاحقة لخدمة الانسانية .

وإلى عهد "أوروك" يعود توضع البنيات الاقتصادية والاجتماعية التي ســتميز صيــغ وأشكال الحضارة الشرقية كما نشاهدها الأن، وخاصة عندما تسمح النصوص بتقارب تاريخي فيما بينها ضمن ايقاعات متنوعة .



خرائب في المعبد الأبيض (أوروك) متوضعة على سطح، يلاحظ فيها بقايا الدرج الصاعد إلى السطح (تنقيبات من قبل بعثة ألمانية).

ان اللقى الاولى، هي بكل وضوح، من النصوص الادارية أو الاقتصاديـــة: فـــالخط يتكشف ماهيته منذ اليوم الأول، أي فيما إذا كان أداة اقتصادية أو ادارية اســتُخدمتْ سـابقاً لتطوير التنمية في موضوع استثماري، أو سكني أو تبادلي، ولا بد من مضي عـــدة قـــرون ليتجاوز دوره التقني الاساسي وليُستخدم في النقش على الهدايا التي تحملها صور التمـــاثيل المكرّسة في المعابد وبهذا نكون داخل المسار في حقبة محدّدة، كالتي تدعى (الاسرة الحاكمة القديمة والسابقة للعهود الكلاسيكية)، أما الآن، فقد انتشر الخط وأصبح يستخدم لنسخ النقـوش التاريخية، والنصوص للاسفار الجامعة، الابتهالات، وسلسلة المعـــاجم، وحتـــى النصـــوص الملحمية، والأساطير. وهذا ما يؤكد دخولنا التاريخ .

عصر الاسرة القديمة الحاكمة السابقة للعهود الكلاسيكية

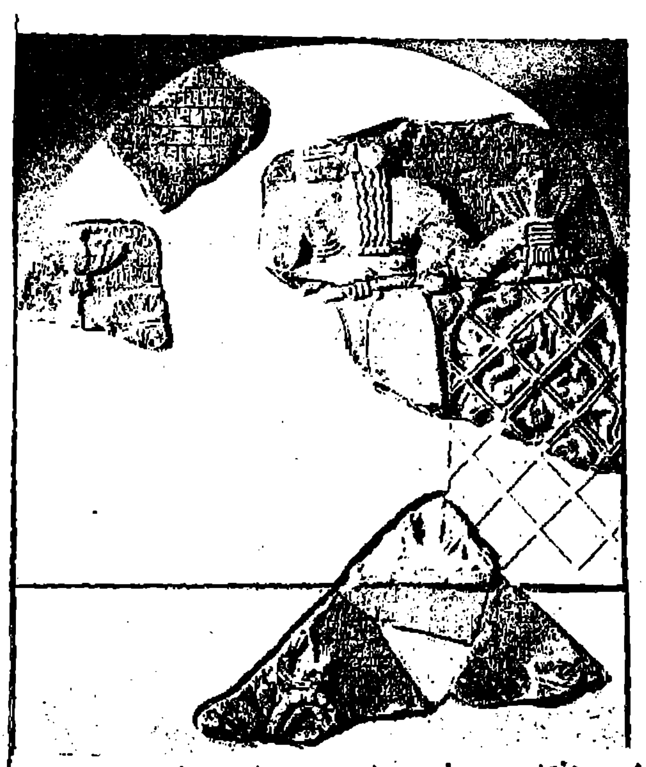
إن مدرج التطور الحضاري المنطلق في العصر (اوروك) لم ينفك عن التطور حتـــى أتى ثماره فقد زرعت في المدن كل من (بلاد سومر – بابل – وديان دجلة والفرات الكبيرة_ سهل الخابور – وسورية التي كانت تعتقد أنها غير داخلة في المدرج، تكشفت الآن بمفخـورة، بفضل اكتشاف ايبلا) التي لم تُستثنى من هذا البرنامج. فحركة التنقيب لم تبقى محصـــورة، وبالانتقال من منطقة إلى أخرى ، توسعت وامتدت باستمرار حتى أصبحت طابعاً مميزاً خلال هذه الحقبة التي أضيف أيضاً إليها اكتشاف وصناعة الرسوم والمقاطع التي تزين الجدران في أبنية المدن. وقد جاء في الملحمة التقليدية (الجلغامش، ملك"أوروك") البطل، ذكر تسليفه بمبالغ لبناء سداً حول مدينته بطول يزيد عن (تسعة كيلو مترات) ومثل هذا الانجاز يعكس بلا شك، حاجة المدن للدفاع عن نفسها ضد الحروب المتزائدة، وما يؤكد هيمنة هذه الستراتيجية هـــو وجود تلك المعابد التي تمثل ارث الحقبة السابقة اضافة للقصور والأبنية، كل ذلك، يـــترجم مدى سيطرة القوة السياسية الجديدة الملتزمة إلى حد لصالح السلطة الكهنوتية. فالحقيقـــة لا تكون دوماً سهلة .

إن ولادة نظام الملكية التي ميَّزت هذه الحقبة حسب رأي المؤرخين، والذي استند إليه بشكل خاص على اللوائح الملكية، وعلى الصناعات التي جاءت متأخرة وبقيت مجهولة حتى القرن (١٧ ب م) والتي يشك في صحتها، لأنها كانت تسعى في بادئ الأمر، تبرير الأوضاع والادعاءات التي لا تمتلك إلا القليل من الوثائق والتقارير عن حقيقة عصر وأساس الأسر المالكة. غير انه من جهة أخرى، وجد أن هناك عدد من الملوك الذين حكموا حسب ظهور صورهم النقشية، لم تأت اسماؤهم في اللوائح الملكية، ومع ذلك عندما يربط الاخصائيون هذه اللوائح مع المآثر والاعمال البطولية التي يجب أن نحتاط حول صدق المعلومات التي يتم الحصول عليها، وعند الوصول إلى عرض بعض لمحات من تاريخ العلاقات بين المدن التي تباعاً على ما يبدو، كانت إلى درجة ما، متطورة، وهكذا أيضاً ظهر في عصر "جيلغامس" الذي حُدِّد بنحو عام (٢٧٠٠)، واحدٌ من أعدائه يدعى (ميبراجيزي Mebarages) ملك "كيش" وابو (آغا) لوحظ ارتسام جانبي، حول الاهتمام بالطرق التجارية وكيفية السيطرة عليها مع أنها كانت بالنسبة لسومر رهاناً أساسياً.

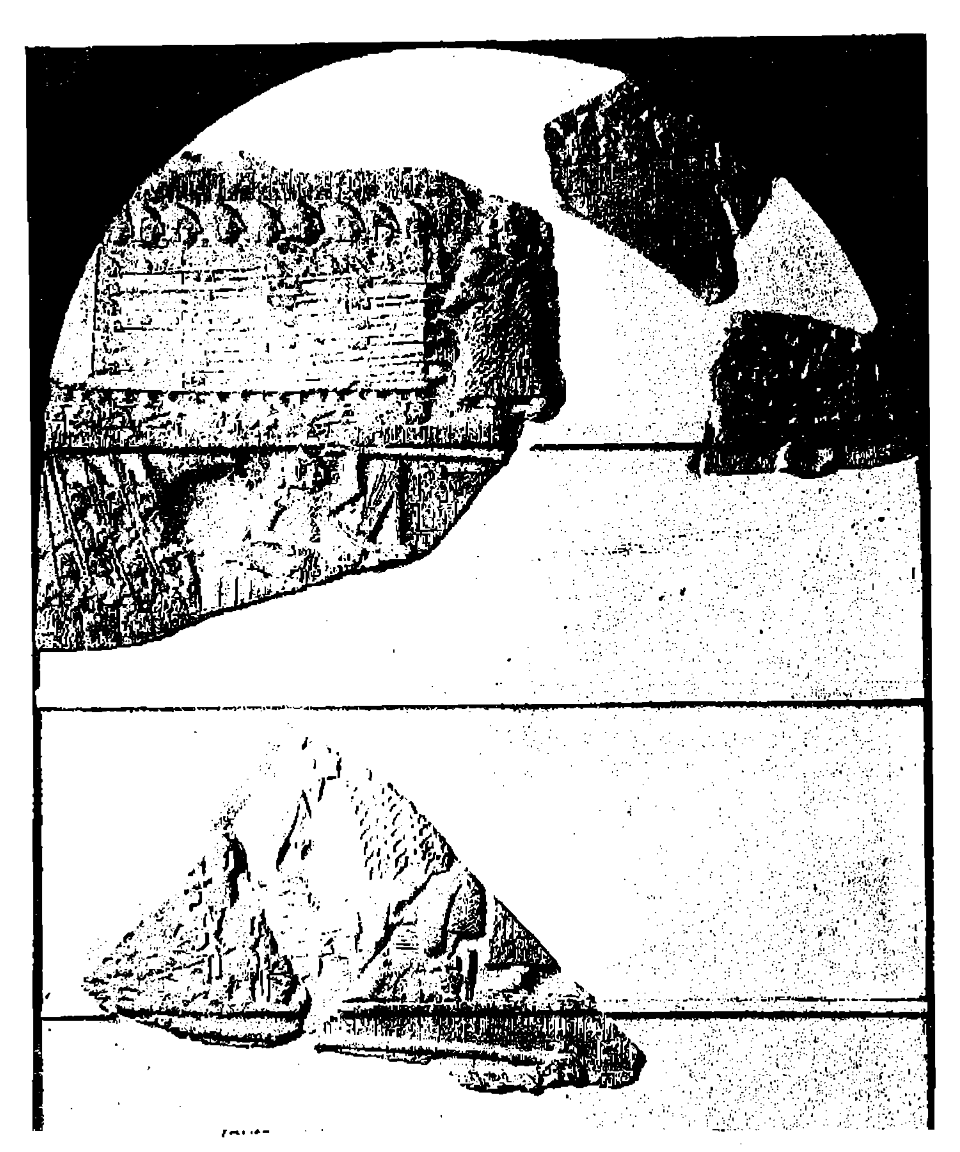
إن التاريخ الوحيد الذي يمكن معرفته بدرجة من الوضوح، هو تاريخ مدينة (لاغاش Laghach) بفضل النصوص المستخلصة في "تللو" وبفضل النصب التذكاري في (فوتور Vautaur) التي تفيد بأن نزاعاً وقع حول قطعة أرض كائنة بين "لاغاش" وبين مدينة اليمّا المجاورة، سبق له أن سويّ بقرار تحكيمي من ملك كيش المدعو "ميسيليم" وفيما بعد، أثناء حكم (أكورغال Hkuregal) من قبل (يور – نانشيه) الذي اشتهر باشادة المعابد والاقنية، والذي كان قد سبب اشتعال الحرب مع (اليمّا Umma) ، حيث انتصر فيها ابن (أكورغال) في (ايناتوم Eannatum) فكانت حقبة زهو وفخر، شملت "سومر" وخاصة بعد أن قاد حملات أخرى كانت منتصرة، ضد (ماري) على الفرات في "شور" و"ايلام" – فقد عاد النزاع ثانية مع اليمّا قام به (انتيمينا Entemena) ابن "ايناناتوم" والشقيق (أناتوم Annatum)، ولكنه لم ينجح بأن يستعيد لمدينته السلطة التي كانت يتمتع بها زمن عمه. ولكن على ما يبدو، انخفضت سلطة "اليمّا"حتى قدوم (لوغا لزاجيزي Lugalzagesi) أمير تلك المدينة الذي استولى على لاغاش بعد اسقاط المُصلحْ (اوريكاجينا) وبسط سلطته على بلاد "سومر" (أوروك – اور – وكيش) وقاد حملة وصلت إلى المتوسط سالكا طريق الفرات، فكانت المحاولة التاريخية

الاولى الهادفة لتوحيد بلاد ما بين النهرين ، ولكنها كانت سريعة الزوال لان لوغـــالزاجيزي غُلبَ من قبل (سرغون – اكاد بسرعة).

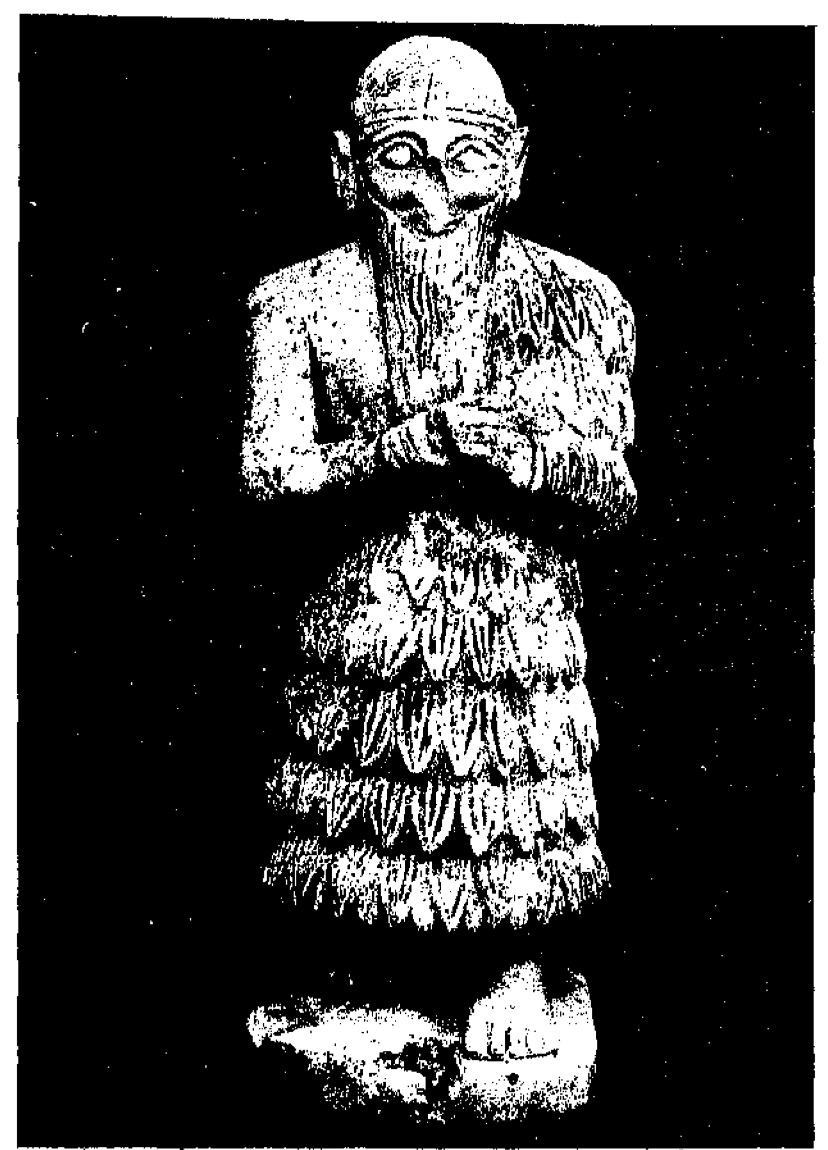
هذا هو المختصر الذي امكن معرفته عن تاريخ أوائل حكم "سومر" بفضل النصـــوص التاريخية التي توفرت لدينا. فهي ليست وفيرة ومن المؤكد انها لا تنقل جميع الوقـــائع التـــي يُعتقد انها مرت بها لاننا نجد فيها صيغ الوثائق التاريخية او الملحمية التي لا تتجـــاوب مـــع حقيقة الاهتمامات والمشاغل، والنزاعات التي وقعت في "اليومّا" ولاغاش مدة طويلة وصلـــت الى قرن ونصف، كما انها لم تعكس بشكل ثابت ومؤكد التاريخ الحقيقي لبلاد ما بين النهرين خلال الخمسة قرون التي غطت حكم الأسرة القديمة الحاكمة والسابقة للعهود الكلاسيكية.



نصب تذكاري من فوتور (vautours) واجهة لنصب تذكاري ئاناجرسي من (لاغاش) مستولياً على أعدائه الموضوعيين بالصف (يعود إلى أوائل النصف الأول من الألف الثالث (متحف اللوفر).



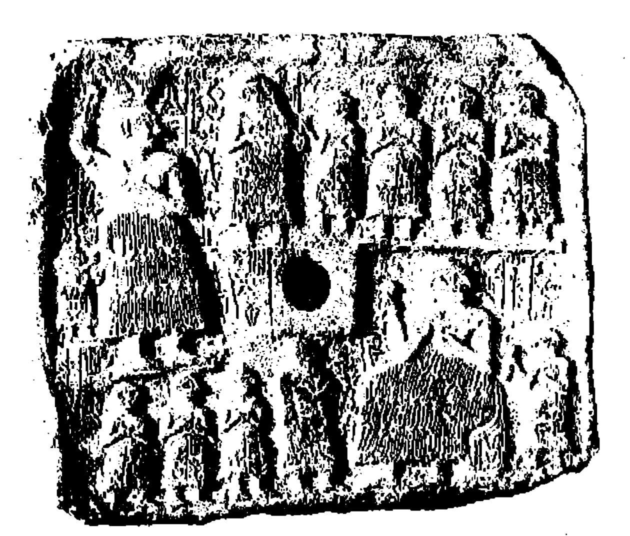
نصب تذكاري من (Vautours) واجهة لمعارك
(أناتوم ضد مدينة يمّا -(متحف اللوفر).



نصب تذكاري صغير (لامجي – ماري) يعود لمنتصف الألف الثالثة
الذي عثر عليه أثناء التنقيب في معبد عشتار، مع أن
اسمه لم يرد في لوائح الملكية (حلب).



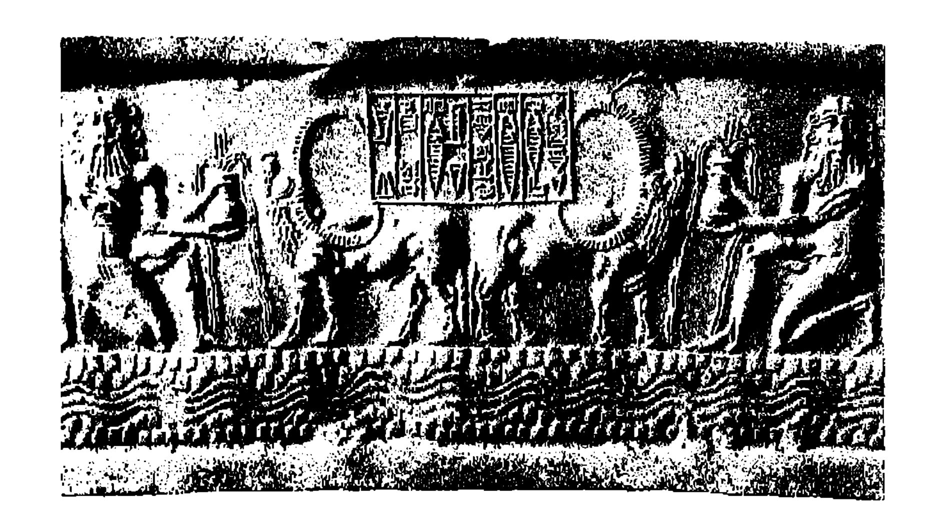
متحف اللوفر صفيحة (دودوي Dudu) كاهن (لاغاش) تعود إلى نهاية النصف الأول للألف الثالثة.



لوحة لـ (أور نانشيه) ملك "لاغاش (القرن ٢٤ ق.م) ممثل
مع أولاده كمؤسس للمعبد أور – ناشيه مع فرقة غنائية.
يشرب نخب القيد والتسجيل (متحف اللوفر).



صورة رأس يتمثل بكونه من الأسلحة (ميسليم Mesilim)
مزركش بطبق يمثل رأس أسد (في أواخر النصف
الأول من الألف الثالثة (متحف اللوفر).



نقش لختم اسطواني (بني) شكوم

مملكة [اغادي Agade]

خلال حكم الاكاديين تكاملت لحمة الوقائع التاريخية، فتعددت المصادر، وامتد ورائها الشعور بان المسائل شملت كامل تاريخ بلاد ما بين النهرين وحتى المشوّه منها.

يتصف تاريخ المملكة الاكادية بيانياً بالبساطة، فسارغون، القادم وبعد ان لعب دوراً كبيرا في بلاط الملك "كيش" ثار على معلمه، وانشأ عاصمته "اكاد–او–اغادي" على موقع لا يزال مجهولا، ثم ، أوصل (لوغالزاجيزي Lugalzagesu) إلى الهزيمة، وكان البدء بتوسعه السريع نحو عام (٢٣٧٠) وبعد اخضاع "سومر وعيلام" استولى على ما تبقى من بلاد ما بين النهرين، ووادي "ديالا" ووادي الفرات بما يكون مدينة "ماري" واعلى الخابور. ولكنه خاطر بمغامرته في الاناضول. وبذلك وحّد حوض بلاد ما بين النهرين، وكان من الظاهر فقط، اما الحقيقة تتطلب الروابط، بين السكان الذين يؤلفون جماعات مختلفة ضمن تجمع واحد، وهي الادارة والحكم وتطبيق الايديولوجية الواحدة، وخاصة، ضمن ذهنه وفنه تتفق مع الرعوية الملكية. ولكن دويلات المدن (Cites- Etats) لم تكن مستعدة للتخلي عن شخصياتها ولا عن حب السيطرة، فكانت الاشارة الواضحة الى ذلك، هو الثورة العامة التي انهت حكم "سارغون".

استمرت الفوضى وعدم الانضباط في "سومر وعيلام" تحت حكم (ريموش ومانيشتوسي)، اما "نارام–سين" ابن "مانيشتوسي" عند ارتقائه العرش سحق الثورة العامة، وامضى مدة حكمه في الحروب، الامر الذي انهك بلاده. وعلاوة على الاخطار الداخلية التي تحوم حوله زادت عليه الاخطار الخارجية بشكل تهديدات من القبائل العمورية وضغوط "الغوتي"، وسكان جبال زاغروس. وفي النهاية ادت المخاطر، تحت حكم (سكاركاليشاري Ckarkalishari) ابن نارام – سين الى انهيار المملكة نحو عام (٢٢٣٠) . استمرت هذه المغامرة مدة (١٤٠) سنة، واثرت بعمق في عقلية سكان بلاد ما بين النهرين التي كانت تظهر من خلالها نموذجين متضادين تماما في المملكة، الا وهما (الخير والشر). مثل سارغون بالنسبة للذرية والنسل صورة المرجع الذي يفخر بالانتساب إليه كقاعدة بينما كان "نارام –سين" مضطرا لتجميع سائر القوى للحفاظ على ترابط المملكة. غير أنه اجتمعت ضده جميع السلبيات، ولكن من الجانب الآخر، هناك ثنائية القضاء، كما ان الايديولوجية الوحدوية

بقيت هدفا للنقاش يسعى اليه الملوك من سكان بلاد ما بين النهرين، في كل مرة، يستطيعون تطوير اطماعهم بالهيمنة على البلاد، "وسارغون" يمثل دوماهذه الفكرة .

ظهر "سارغون" وكأنه العاهل الاول السامي في عالم يسوده السومريون حتى الآن، وايضاً المعارضة الممثلة بالذين يعملون على الظهور في داخل البناء الملكي على حساب (المدينة – الدولة) السومرية التي لا يمكن ان تعيش وتستقر الاّ على اسس وقواعد قابلة للتحقيق وعلى مشاركة السومريين والساميين .

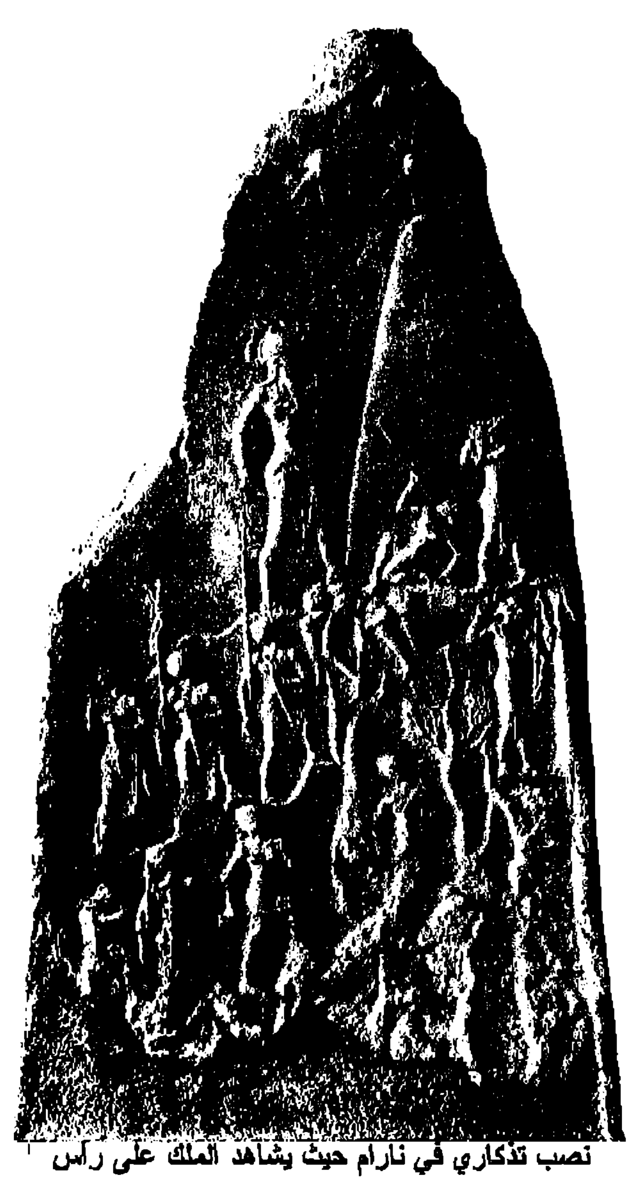
النهضة السومرية على يد اسرة (اور) الثالثة

حسب المصادر، وبعد انهيار المملكة الاكادية سادت في البلاد حقبة سوداء مظلمة حيث اسس "الغوتي" سيادة فوضوية مدة (١٢٥) سنة، حسب اللوائح الملكية، ومع ذلك فان حيوية النهضة السومرية، نحو عام (٢١٢٠ – ٢١٠٠) هي الدلالة على ركود وكساد مدن بلاد ما بين النهرين، ولكن هذا الركود لم يكن تاما، بمثل ما ورد في الوثائق القديمة، لان المبادلات والنقل للمواد كانت تجري بدون صعوبة، يثبت ذلك رواج تداولها مثل : النقوش الفاخرة في (غوديا ولاغاش) والكلفة الضخمة لنقل بعض المواد من سورية (من خشب الارز والاخشاب الاخرى الثمينة، الاحجار المقصوبة) أو من البلاد المشاطئة للخليج ووادي الهندوس (من خشب شجر الابنوس – الذهب – النحاس –(الحجر البركاني "الديوريت) العقيق الاحمر) لبناء المعابد للاله "نانجيرسو" .

أما النهضة، فقد ابتدأت، حسب مصادرنا، بدأ مع احد ملوك "أور" يدعى (أوتو– هيغال (Utu –hegal) الذي هزم آخر ملوكس (غوتي guti) ثم فيما بعد، هيمن "اور – نامو" بشدة على مدينة "اور" وعلى كامل البلاد السومرية. وامتدت سلطته حتى "ديالا الشمالية" . ولكن سيطرته على "بابيلونه" لم تكن موفقة رغم تلقبه "بملك سومر والاكاد" الذي منح له ليخطو على اثر "سارغون" . وعلى كل حال، تمكن من خلق ظروف تطور اقتصادي جيد في "سومر" اما ولده (السحلجي Suhlgi) خلال مدة حكمه الذي دام (٤٨) سنة اتبع مهمة تصحيح الوضع الداخلي، فكان عليه أن يقاتل "عيلام"، والقبائل الموجودة على اطراف جبال زاغروس وكردستان. حيث تمكن ولده "آمار– صن" من الاستيلاء على "اربيل" في الشمال، وبذلك تحقق في المملكة خلال ربع قرن استقرارا نسبيا.ثم خلف "آمار– صن" ولداه

"شو- صن - وابيّ صن" على العرش، غير ان هذا الملك الاخير اضطر لمواجهة الضغوط المتزائدة عليه من قبل العشائر العمورية، وشعوب منطقتي زاغروس وعيلام، فتعرض للعديد من الضربات التي ادت بالنهاية الى انهياره عام (٢٠٠٣) وقد كان نطاق اتساع مملكة الاسرة الثالثة، في اوجه، معادلا تقريبا لنطاق مملكة اكاد ، وتجاوزت هذا المستوى عند دمجها لاطراف جبال زاغروس، ولكن هذه المدة التي لم تتجاوز القرن كانت قصيرة. والمثل الاعلى الوحدوي تعذر عليه الالتزام بها، فقد رفضها العيلام نتيجة النزاع، والسكان الرحل من العموريين الذين باشروا بالبروز امام الملوك الاكاديين اثبتوا شيئا فشيئا، وجودهم وساندوا الفعاليات السامية على حساب الثقافة السومرية .

وقد ساد الشعور، بان التجربة الثانية بجعل المملكة ابدية الوجود سارت بطريق يمجد الدولة اكثر من المملكة السابقة، لان "اوز-نانو" وخلفائه تطرفوا الى اقصى درجة في مناصرة وتشجيع ادوات الحكم، فكانت النتيجة هي هيمنة البيروقراطية الثقيلة الدنقة : يثبت ذلك عشرات الالوف من اللقى ذات المضمون الاداري المستخلصة التي تحتوي على الادلة الواقعية لمستوى هذه الفعاليات في ذلك العصر. لقد قادت هذه البيروقراطية البلاد إلى الشلل وتعطل آلية الحكم. فهل كانت بنفس درجة المسؤولية مع ضربات العموريين، ومجهودات العيلم في سقوط واختفاء المملكة .



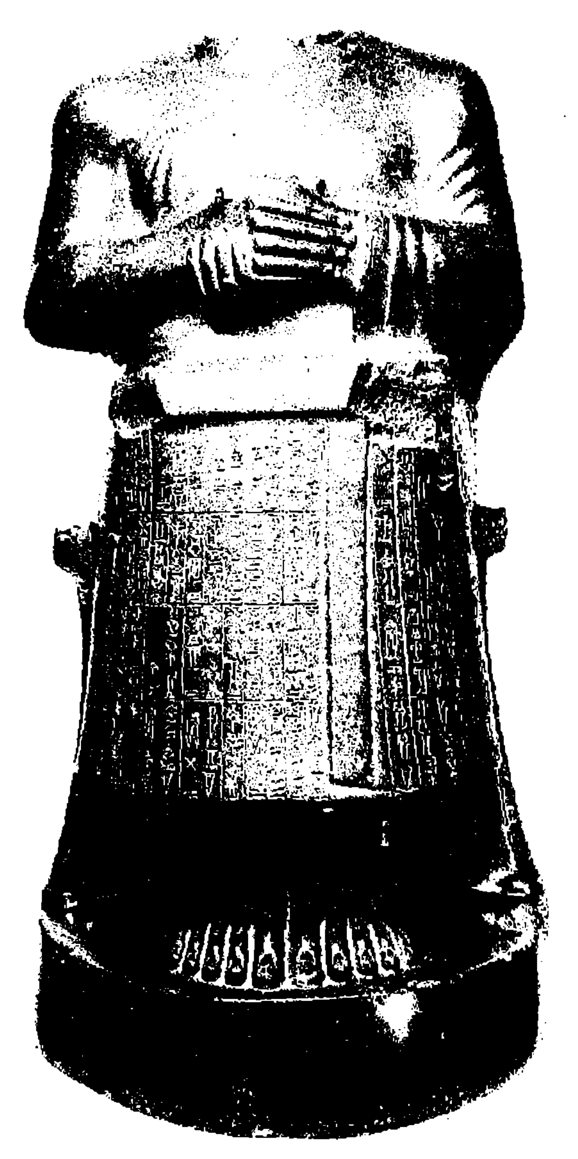
نصب تذكاري في نارام حيث يشاهد الملك على رأس قواته يتسلق جبل لولبي يحارب فيه منتصراً (القرن ٢٤) (متحف اللوفر).



مشهد لمعركة يظهر فيها نصب تذكاري لملك الأكاد
(Rimush) (القرن ٢٤) متحف اللوفر.

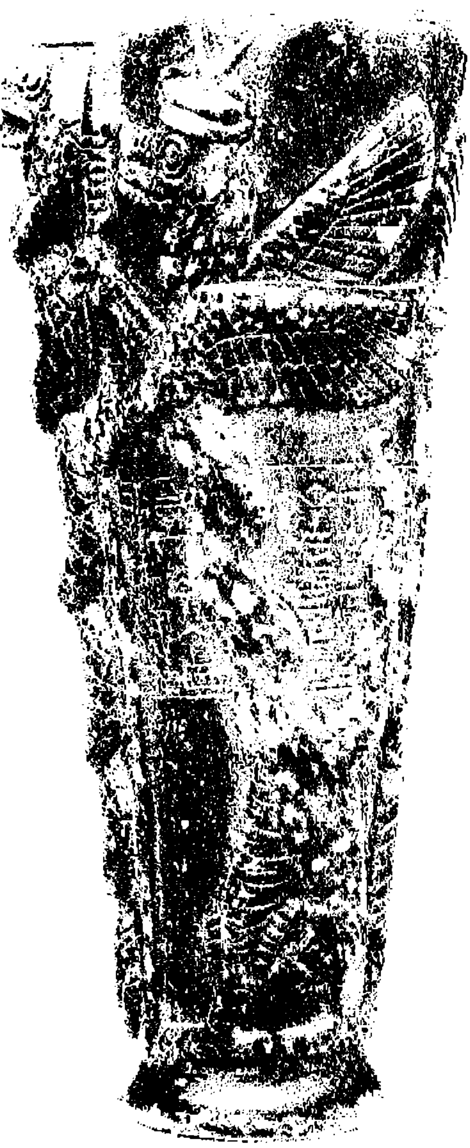


تمثال الأمير (لاغاش) (القرن ٢٣) منتصباً على قاعدة ممثلاً بوضعية الخضوع (متحف اللوفر).



تمثال لكوديا لـ(كوديا ده لاغاش 'وقيل المهندس لاغاش' حيث عثر
على نقش واجهة مرسومة على طاولة صغيرة محمولة
على ركبتيه (القرن ٢٢) (متحف اللوفر).

يوجد فرق كبير بين ظروف اختفاء مملكة "سارغون" وظروف مملكة "اور – نــــامو" في الاولى هيمن التقهقر والكساد بشكل عام بعد سقوطها، نذكر ذلك استنادا الـــى المصـــادر الشرقية وعلى نتائج التنقيب (اذا صحت فعلا تفسيراتها) ويُترك المجـــال مفتوحـــاً للتمعـــن ومناقشة هذا الشعور. ولكن الوضع بالنسبة لـــ "ابيّ–صن" يختلف تماما: فالذي اختفى هنا هو المملكة، أي الاسرة الثالثة "لاور"، غير ان البلاد نفسها لم يصبها الدمار، وما تمثّل فقط هـــو انفجار بعض الاحداث في المملكة، وتتابع العديد من الممالك التي كوّنت نفسها، والتي كـــانت اهدافها الاضطلاع بالمهام والسير بالمملكة لصالحها .



تمثال غوبيليه ده كوديا Gobelet de Gude مع وحش مخيف مؤلف
من (رأس حية – جناحين ومخلبين لنسر – سنور – لسان حية)
كحيوان يمثل الإله "نانجيزيدا Ningizzida الحامي للأمير
لاغاش (القرن ٢٢) (متحف اللوفر).



تمثال عديم الرأس لـ (ايدي – اللوم، سكاكاناك ماري
Skakkanak (القرن ٢٩) (متحف اللوفر).

الملك الفاتح

يذكر "يهدون سليم" ملك ماري في نهاية القرن التاسع عشر، بعبارات دوّنها على تسعة قطع فخارية خبأها في اسفل بناء معبد (شاماش Shamash) بحركته العسكرية التي قام بها في شمال سورية وعلى شواطئ البحر الابيض المتوسط .

منذ الزمن البعيد جدا الذي خلاله شيد مدينة ماري ولم يصلْ أي ملك سَكَنَ هذه المدينة الى البحر او إلى جبال الارز (البقس buis) أو الجبال الشاهقة، او اقتطع من اشجارها، ولكن "يهدون – ليم" ابن "ياجيد سليم" هذا الملك القوي القادر، الذي كان بمثابة الثور المتوحش بين الملوك، هو الوحيد الذي وصل الى البحر بفضل حلكته ومهارته وقـوة بأسـه، قـدّم الـى الاوقيانوس ضحية تليق بمقام مملكته، استحم جنوده في مياه الاوقيانوس – تغلغل في جبـال الارز والبقس المرتفعة جداً، وقطع اشجارها: (من بقـس– وارز، والسـرو، والايلامـاكوم Elammakkuma)، نهب كل ما استطاع سلبه، كوّن شهرة له، واظهر مهارته – اخضع هـذه البلاد الواقعة على الشاطئ تحت سيطرته، ورسخها طبقا لاوامره وجعلها تسير خلفـه، لقـد حملوا اليه قبائلهم فجعلها قبيلة واحدة .

ففي عام واحد، حارب ضده كل من (لاووم Laum) ملك (السـاما نـوم Samanum) "الاوبرابوم Uprapum) ومن (بهلو–كوليم Bahlu – kulim) ملك توتـول وبـلاد العمـانون Amnanun) ومن "ايالوم (ملك الاباتوم وبلاد الرّبوم Rabbum) وبالاضافة ساعدهم في هـذه الحروب قوات (سومو – أيبو Sumu - epuh) من بلاد يمهاد Yemhad) وفي موقع حصين فـي مدينة سامانوم Samanum) اجتمعوا للعمل ضده، ولكن بفضل سلاحه القوي تمكن من القـاء القبض عليهم وسجَنهمْ والانتصار على قواتهم وتكبيدهم الخسائر بعد أن كوّم جثثهم، ثم دمّـر معاقلهم وشتتهم عبر التلال والاراضي العراء. فقد دمّر مدينـة "هامـان" احـدى حصـون "الهانانيين" التي حصنها وعززها "هانا" Hana) وشرد أهلها أيضا عبر التلال واراضي العراء وسجن ملكها (كاتسوريهالا Katsuri hala). وبذلك سيطر على كامل شواطئ نهر الفرات .

(راجع : سولبرجر و "–ج–كوبر" النقوش السومرية والاكادية الملكية) – طبـع (ده سرف Cerf) ص(٢٤٦ – ٢٤٧) .

يُلاحظ خلال القرنين الذين يفصلان سقوط اسرة "اور" الثالثة عن بدء تأسيس مملكة "حمورابي" تطوراً واضحاً أبان مشهداً متناوبا اكتنف الاغلبية من الممالك الكبرى التي تاسست ثم اندثرت على هامش التحالفات والنجاحات أو الانكسارات العسكرية. ففي كل ذلك كانت السلطة بشاغل مع الملوك من اصل عموري .

وبموجب العرض، يمكن ، بيانيا استذكار الوقائع التي يعتريها بعض الغموض في زمن سابق، وعلى مضي خمسين سنة فيه، وتحت امرة (اشبي -ايرا) الضابط الذي خان (هيي -سين) وخلفائه (ايدين -داكان – واشم -داكان)، (ولييبب عشتار Yddin - Dakan ishme – Dakan , Lapit - Ishtar) حاول مدينة "ايسين" بسط سلطانها ولكنها لم تنجح. ونحو (١٩٣٠) حاول الثلاث ملوك في "لارسا" بدروهم، بسط نفوذهم. وزجّ (غانغونوم Gungunum) في بادئ الامر بقواته لمهاجمة "عيلام" ومدن ديالا، وقد نجح بالاستيلاء على "اور" واجتهد خلفاوه متابعة اهدافه ولكن ليس بمستوى نجاحه، ومع ان مملكة "لارسا" لعبت دوراكبيرا ومهمّا في الحكم مدة تزيد عن قرن ونصف، غير انها لم تنجح بشكل تام كقوة مسيطرة على بلاد" سومر"، مثل "اوروك" البلد الذي هو على بعد (٤٠) كم، والذي بزمن سابق اسّس (سانكاشيد Sinkashid) نحو عام (١٨٦٠) اسرة نجحت باحباط اطماع "لارسا" وعلى مدار ستين سنة وصلت إلى عام (١٨٠٣) ولكن "حمورابي" بابيلون تغلب على "ريم سين" لارسا نحو (١٧٦١) .

اما في الشرق تكبدت "عيلام" بعمق، النفوذ الاكادي وتدخلت في النزاعات المتعلقة بشؤون بلاد ما بين النهرين امام "حمورابي (١٧٦٢) وفي الشمال عرفت مدن ديالا نفس طابع هذه التقلبات مع ادوار متناوبة بين التفتت وتجمع القوى .

بينما في الممالك السورية مثل (لمهاد) حول حلب، والبا – وقطنا – التي كانت بمجمل حياتها متجهة نحو عالم المتوسط، وبصلات ضيقة مع بلاد ما بين النهرين، كما تدل عليها وثائق ماري، تطورت سلطة شمالية متمركزة في منطقة الخابور الاعلى، وهي البلد الاشوري، الذي اصبح في وقت ما، مملكة "ماري" تحت قبضة "شامشي – ادد الاول القوية (١٨١٤ – ١٧٨٢) . الذي صنع خلال مدة محددة أول تنظيم سياسي يرتكز نطاقه (حسب معرفتنا) على المناطق الشمالية ضمن مُجمّع يشمل جميع الوديان والسهول والجبال، غير ان بناءه هذا تفكك بعد موته، فقد تمكن ولده "اشم -داكان" الاحتفاظ بآشور لزمن وجيز،

ولكن استعادت "ماري" استقلالها مع (زمري –ليم) الذي حاول اعادة بناء السلطة القديمة لمملكة الفرات، غير انه هلك هو الآخر تحت ضربات "حمورابي" عام ١٧٦١. اما بادرة انشاء تلك السلطة، رغم خصائصها الهشة المنسوبة الى منهاج" شامشي– ادد"، كان هدفهما خلق تجمعا سياسياً يتفق مع واقع اقتصادي : خاصة وكانت التجارة بين بلاد ما بين النهرين الشمالية والاناضول نشطة جداً منذ زمن طويل كما تشهده مستعمرة التجار الآشوريين المنشئة في (كولتيب –كانيش Kultepe – Kanish) في كابادوكيا .

المملكة البابلية الاولى

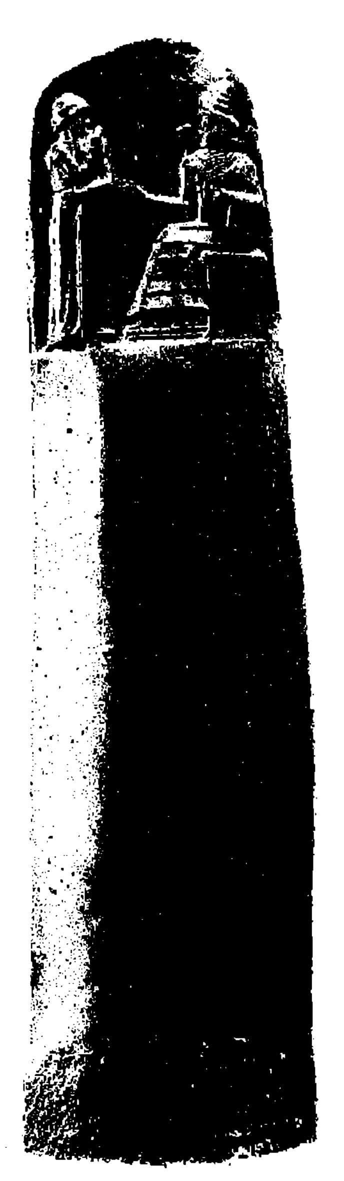
كان انشاء مملكة حمورابي إلى حد ما هو النتيجة المنطقية للسياسات المتبعة خلال قرنين من قبل الاسر الحاكمة العمورية التي ما انفكت تسيطر على بعضها البعض. فافسحت المجال لسيطرة المملكة البابلية .

برزت مدينة بابل في مقدمة المسرح السياسي نحو نهاية الالف الثالثة، فقد تجاوزت وصاية "اور" عليها وكونت امارة مستقلة في القرن العشرين واتسمت بالبدء، بسياسة حكيمة فقد ارتقى حمورابي العرش عام (١٧٩٢)، وكانت موارد مملكته، على ما يبدو، على درجة من الاهمية ولكن يعود الفضل في اتساعها إلى مهارته لانه وبشكل متتابع ادمج كل من قواته مع الاخرى بالوقت المناسب. ومنذ عام (١٧٨٦) اقتلع من اقوى منافسيه في ذلك الوقت، المدعو "رين –سين ارسا" منطقتي "ايسين واوروك" ثم قاد حملات عدة واقعة فيما وراء النحلة، كان محتلّوها دوما في حالة اضطراب. وفي عام (١٧٦٢) حطم بمساعدة "ماري" تجمعات مستعادة لصالح قوات دجلة وهم: الآشوريون – مدن ديالا – والعيلاميون. وفي عام (١٧٦١) ابتلع "لارسا" واعلن نفسه ملكا على سومر واكاد، وكان اول من انتصر لتجمع على مستوى القوات الشرقية سبق له ان استولى على "ماري" . فقد اكملت فتوحاته عام (١٧٥٣) بسقوط "اشورية" ومملكة "ايشنوما" (ديالا) .

وهكذا أعاد حمورابي وحدة حوض بلاد ما بين النهرين. وهذه هي المرة الثالثة خلال ستة قرون تعرف هذه البلاد، نظاما موحدا وسياسة هادفة الى ادماج وتناسق ارثا متناثرا موسوم بمنازعاته القديمة. وليس اصدار قانونه المشهور الاّ اشارة واضحة لسياسته بضبط النظام. كان قانون حمورابي مدعاة لانتشار شهرة حمورابي ووصفه بالامير العاقل، المحسب



تمثال برونزي ملبس ببعض أجزائه بالذهب يمثل متعبد جاث
لحياة حمرابي بابيلونة - 'عابد للارسا كما يقال
(القرن الثامن عشر) (متحف اللوفر).



نصب تذكاري "لحمورابي" مع القاعدة الحاملة لقانون حمورابي، ومع مشهد
في القمة يتمثل فيه حمورابي – أمام الإله (شاماش Samash)
إله العدالة (القرن ١٨) (متحف اللوفر).



رأس صغير من الحجر البركاني (الديوريت) البعض يعزوها إلى الملك
حمورابي وملك بابيلونة (القرن الثامن عشر – متحف اللوفر).

للالهة وخادمهم الاول المخلص الممتاز، الدافع عن شعبه ضد اعدائه، المعمم لحسن العيش والسعادة لشعبه برعايته الخاصة التي يمنحها للزراعة والري. وفي الكثير من النواحي حمل الصورة المثالية لملك بلاد ما بين النهرين . ومع ذلك يمكن القول بان التحريات الاخيرة التي قام بها "ج. م. دوران" و"د. شاربان" قادت الى التفكير بان "حمورابي" هذا الملك القادر، رمز العدالة والوحدة، كان مماثلا لملك اقوى قدرة وهو"سوكالما العيلامي. ولنتساءل اذا، هل كان توثيقنا بطبيعته مشوّهاً للحقيقة التاريخية .

وهذه المملكة، بعد ان اصبحت مرهقة، ورغم هذه الشهرة التي تمتعت بها، لم تكن اكثر صموداً ومناعة من سابقتيها. لانه، بالحقيقة، منذ انتهاء ملك حمورابي عام (١٧٥٠) تراكمت الاخطار من : عدم الاستقرار الداخلي – الازمات الاجتماعية – اشاعة التهديدات القادمة من زاغروس – والتغلغل السلمي (للكاسيت Qassites). وفي عام (١٧٤٠) تمكن "صمصو ايلونا" من احتواء هجوم شنّه هؤلاء الكاسيت المنحدرين من اعالي جبالهم، وقد تكرر هذا الهجوم مرة ثانية رغم احتوائه عام (١٧٠٨) تحت امرة "ايشهو" وتفككت المملكة خلال القرن السابع عشر، بعد ان ازداد ضغط وسطوة الكاسيت اكثر فاكثر، ملك الحثيين (مورسيلي الاول Mursili 1er) على بلاد ما بين النهرين التي ادت الى سقوط بابيلونة نحو عام (١٥٩٥)، ومع ان هذه المملكة عرفت العزة والسؤدد مدة قرن ونصف، وجدت نفسها مستضعفة منذ اوائل القرن السابع عشر. اما نتيجة انتصار مورسيلي الاول قضت بتسليم بابيلونة الى "الكاسيت"

سيادة الكاسيت – الميتاني – سورية

بعد انهيار مملكة حمورابي جاءت كما يقال (القرون المظلمة Siecles obscurs) فقد اختفت الوثائق المكتوبة، والكاسيت البربر الذين يحكمون بابيلونة منذ القرن السادس عشر هم المسؤلون حقيقةً عن اختفاؤها بالاشتراك مع (بورنا برياش الاول Burnaburiach) نحن لا نعرف الا القليل عن القرنين التابعين، وان مصدر معلوماتنا الرئيسي منذ (١٤٠٠) وحتى نهاية الحقبة هو "عكار –كوف (دور كوريغالسو D ur Kurigalsu) .

بالحقيقة، انتقلت مراكز المصالح الى الشمال، وهذا هو عنصر التنمية الذي اعقبه كامل السلطة والقدرة لمملكة الحثيين التي ادخلت مجموعة الاناضوليين ضمن اللعبة الدولية. وفي

المنطقة الشمالية من بلاد ما بين النهرين تم انشاء مملكة "ميتاني" ضمن ظروف غامضة وقد تميزت هذه المملكة في بادئ الامر، بسكانها الحوريين الذين نجدهم قاطنين في شمال سورية مثل: اوغاريت – آلالاك – وقطنه –، وحتى بلاد اشور الشرقية في "نوزي". ولكن، الى هذا العمق "الحوري hourrite " اختلط ايضا جماعات تحمل اسماء هندو – –اعتبارا من اوائل القرن السادس عشر، وقد بدت هذه الامور في حينه غامضة، كما ويؤمل العثور على وثائق جديدة لفهم البنية الداخلية لهذه الدولة التي حتى الان عاصمتها "واسّوغاني" لم يعثر على موقعها. اما المعلومات التي هي بين ايدينا حول هذه المملكة تفيد عن اطرافها فقط، لان تلك الوثائق تقتصر افادتها على "آلالاك" في سورية و"نوزي" في الطرف الآخر من ارض المملكة حيث كان يقطن فيها سيد كان يُعرف كمُولى اقطاعي لدى الملك (واسوغاني Wassugani) .

وهكذا، اصبحنا امام بابيلونه التي لم تعد تلعب دورا من الدرجة الاولى، فقيرة ومفككة، انحسرت الى الجزء الاوسط المركزي والشمالي من بلاد ما بين النهرين، بينما مملكة "ميتاني" التي تحتل كامل منطقة الجنوب في زمن الملك (سوستتار Saustatar) نحو عام (١٥٠٠) ولو كانت بحدود غير ثابتة، ولكنها لعبت دورا دوليا مهما وخاصة في العداوة التي كانت بين الحثيين والمصريين. فجميع تلك القوات كانت تمارس منازعاتها وحروبها على الاراضي السورية التي اصبحت حقلا للمنازعات الدولية. ان مصنفات ووثائق تل العمارنة في مصر هي بمثابة المذخّر المعلوماتي الذي يكشف بحدة تعقيدات اللعبة الدبلوماسية في القرن الرابع عشر.

في مثل ذلك الوضع المشبع بالنزاعات، استفادت سورية وعرفت عهدا خاصا مشرقا لم يصل الى مستوى مملكة واسعة وثابتة، ولكن كانت المزدهرة من بين الممالك الصغيرة التي البعض منها كان ينحسر إلى مدينة محاطة واراضيها غير قادرة على الدفاع بفاعلية وكفاءة ضد جشع الجار القوي جدا. فكانت اهدافها السياسية بشكل عام، استخلاص وانقاذ الاجزاء المهمة من هذا الوضع، بدعوة المجموع أو الممكن، للقبول بالاتحاد او الحماية واحيانا القبول بالهيمنة الخارجية المؤقتة. غير ان المدن السورية استطاعت التخلص من هذه المحن باضرار بسيطة، يشير الى ذلك غناها وتميزها بفضل التقنيات في ماري وآلالاك وايمار التي عززت تنميتها .

داخل هذا الخضم من النزاعات الكبيرة، انتصبت بشكل مكتوم عند الانطلاق، القـــوة الاشورية بعد مرور حقبة طويلة من الخمول المظلم تجاوزت احـــداث "الميتـــاني" وعـــادت للظهور كقوة حقيقية اعتبارا من القرن الرابع عشر ومعها "اشور- او "باالليت". وخلال اعوام (١٢٤٤ – ١٢٠٨) قاد (توكولتا- نينورتا الاول Tukulta – Ninurta) سياسة توسعية خاصـــة نشطة وفعالة باتجاه "زاغروس" – واعلى دجلة – والغرب حيث كبّد الحثيين خسارة كبيرة، ثم اجتاز الفرات، وبذلك، اشاد خلال زمن وجيز مجموعات واسعة لم تعش طويلا .

تمكنت بلاد آشور بهدوء اعادت الامور الى نصابها، ولكن البلاد الغربيـــة شـــاهدوا بوصول "شعوب البحر" اضطرابات عدة، منها التي في المملكة الحثية التي اجتيحت مع سائر المدن السورية نحو (١٢٠٠). فقد رافق هذه الانقلابات التحول من العصر الـــبرونزي الـــى العصر الحديدي ومن ثم دمجهما معا. وبذلك في جميع الاحوال، ابتدات حقبة مظلمـــة فـــي الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط .

تقلبات القوة الآشورية

ترافقت الازمة الكبرى التي انهكت كتف البلاد العربية بحدث رئيسي جسيم، كان عبئه ثقيلاعلى جميع الشرق. الا وهو وصول جديد من الرحّل الساميين الذين يدعون "الاراميـــون". على اثرها، تجددت سيناريو الغزوات العمورية، حيث مارست العصابات الجديدة ضغوطـــات مستمرة على كل مستوطن حضري، واصطدمت بقوة مع الدول الحثية الجديدة التـــي قـــامت على انقاض غزوات شعوب البحر الأبيض المتوسط والآشوريين والبابليين ايضا، ومع ذلـــك، رغم نجاحهم بالسيطرة على المدن السورية ورغم شيوع لغتهم وجعلها اللغة المشتركة العامة في الشرق، لم ينجحوا على تدمير آشور وبابل .

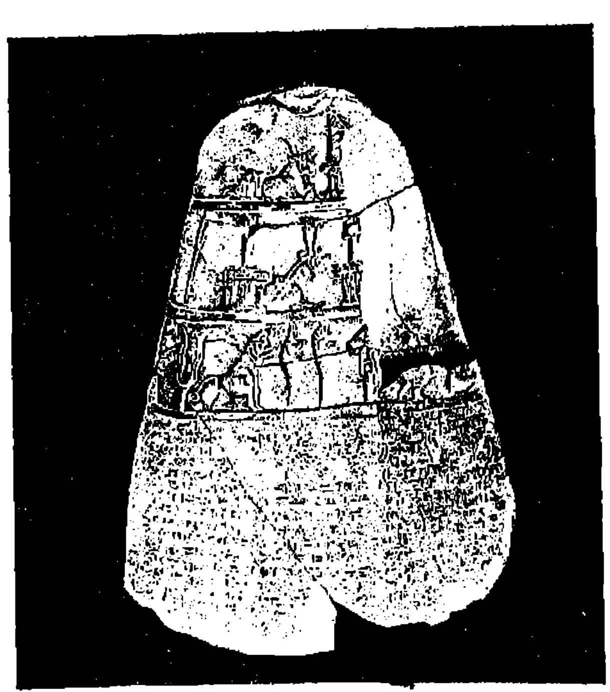
وبعد كسوف وتغيب دام عدة اجيال، يشاهد الان في المقدمة عودة المسرح الدولي فـــي بلاد ما بين النهرين ، فأصبح كل من بابل وآشور المركزان اللذان يـــهيمنان علـــى العـــالم الشرقي خلال الجزء الاول من الالف الاولي. فقد لعبت آشور الدور الرئيسي حتـــى ســـقوط نينوى عام (٦١٢) ولكن، قبل ان تخلفها بمدة ثلاثة ارباع للقرن، كما ان بابل لم تغب، بـــل حاضرة وثابتة نحو اهدافها مع قوة لم تكن ثانوية ابدا في كثير من الاوقـــات. امـــا بالنســـبة لسورية، كانت فعاليات المدن فيها حية وقوية، ولكنها لم تلجأ قط الـــى اســـتخدام الوســـائل

للسيطرة على الآخرين، بل توصلت في بعض الممـــرات الـــى الثبـــات ومقاومـــة القـــوات الا ستعمارية وايقاعها في حيرة من امرها .

في زمن سابق كان، يتوجب على الآشوريين النضال لايقاف تقدم الاراميـــن الرحـــل الذين قدموا على موجات مدمرة، وكان لا بد من الانتظار طيلة القرن العاشر لتلمّسْ صعـــود بلاد اشور ثانية، فقد استطاعت بفاعلية صياغة الالة العسكرية وتركيز الاعمال من جديد فـــي كافة البلاد ويعود لـــ "حدد-نيراري الثاني" (٩١١ - ٨٩١) الفضل في العودة الى عصـــر الفتوحات، حيث هاجم (اورارتو) وفي الغرب، هاجم البلاد الواقعـــة وراء الخـــابور تحـــت سيطرة الاراميين. وكان القرار المعتمد هو: في البلد - النهب والسلب - الفدية من المدن - ثم العودة اغنياء جدا دون البقاء في البلاد، ثم جاء بعده (توكولتي - نينورتا الثـاني- Tukulti Nninurta) (٨٩٠ - ٨٨٤) ثم بعده (اشور ناسربال Assur nasirpal) (٨٨٣ - ٨٥٩) الـــذي تابع نفس السياسة، ولكنه زاد باتخاذه تصرفا مبدئيا باستخدامه الشدة والقسوة لبسط الرعـــب بين السكان، وهكذا انتشرت الجيوش الاشورية في البلاد وتجاوزتها حتى حدود لبنـــان دون ضمها، اما بالنسبة لـــ (سلمنصر الثالث) (٨٥٨ - ٨٢٤) فقد تبدل الامـــر، حيـــث تنـــاول الاحتلال الفعلي لبلاد البحر المتوسط. ورغم محاولاته المتكررة في الاجتياح والقيام بالنـــهب والسلب المعتادين لم يقم بالهيمنة النهائية على مختلف ملوك سورية وفلسطين. غير ان فـــي القرن الذي خلفه، تعرّض لازمة داخلية حادة ادت الى اضعاف سلطات الملك دون الخســـارة في الاراضي .

وفي عام (٧٤٦) قامت ثورة في البلاد اوصلت"تجلات - فلاسار " للعرش، وكـــانت نهاية الازمة. واظهرت الملك الجديد وكأنه المؤسس الحقيقي للملكة الاشورية الجديدة. فقـــد باشر باخضاع بابيلونة، ثم التفت ضد(الاورارتو - الميديين Mdes) ثم الاراميـــن. وبعـــهده ابتدأ الاحتلال الدائم للاراضي المفتتحة، والتهجير الجماعي للسكان المغلوبين، فكانت سياسته تهدف الخلط والملغمة، وفرض ادارة موحدة في كافة المملكة. فكـــانت تمثـــل حقـــا سياســـة استعمارية بديلة لسياسة الصيد في الاراضي لطلب الفدية عن طريق الجيوش. وخلال القـــرن الذي تبع ذلك، سيطرت "آشور" عل مجمل الشرق الادنى ولكن ليس بدون جهد، فقد تتـــابعت الحرب على الحدود وبرزت صور عديدة لرجال خلال القرن، نذكر منهم: (سارغون الثـــاني باني (دورساروكان) في "خورسباد" والذي اخضع (اورارتو) بالقوة) _ ثم (اسرحدون) الـــذي

خلال عام (٦٧٤ – ٦٧١) توصل الى احتلال "مصر" التي بقيت الهيمنه هشــة حتــى عــام (٦٥٣) اضطر خلالها الاشوريون من الانسحاب – ثم (آشــوربانيبال Asswrbanipal) الــذي رسخ سلطته على بابيلونة وعيلام، وبعد موت هذا الاخير، عام (٦٢٧) بدت آشور فــي ذروة قوتها، ومع ذلك بعد خمسة عشر سنة، وفي عام (٦١٢) هلكت "نينـــوى" تحــت ضربـــات الميديين، كما ان (نابوبولاسار Nabopolassor) ملك بابيلون اعاد بلاده الى مكانتها الســـابقة، وكان الاندهاش كبيراً حول نهاية بلاد آشور القاسية والتي وقعت دون دليل مسبق، بـــالواقع، كانت البلاد منهكة بسبب الحروب، وايضا بسبب تبذير الملوك والاسياد الذين ضارعوا فـــي اشادة القصور .

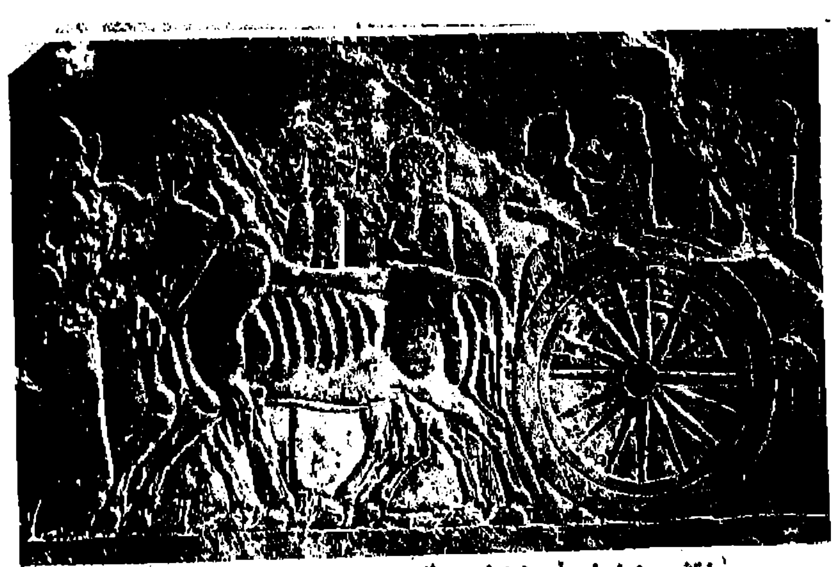


مشهد لملك الكاسيت (كيدوري – انليل) (١٢٦٤ – ١٢٥٦) عثر عليه في معبد البّبار – في لارسا يحتوي على ثلاثة مصنفات منضدة فوق بعضها، تمثل رموز الألوهية للعظماء المشهورين

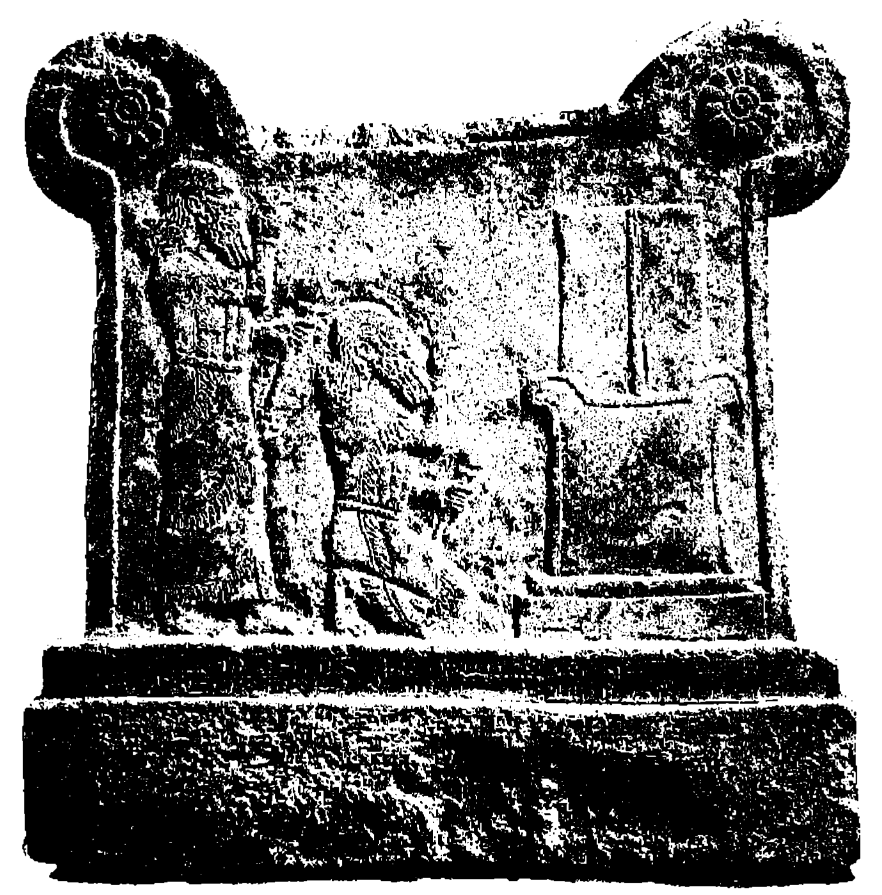


مشهد للملك (كاسيت نازي – ماروتاش marrutash–Nazi) ١٣٢٣ – ١٢٩٨

– يمثل كلب حراسة الآلهة (غولا) نقش ذات صفة بلاستيكية، وهو أمر مستغرب، حيث لا ينتظر وجود مثل هذه المادة في ذلك العصر.



نقش مزخرف في نينيف يمثل تهجير السكان المدنيين من قبل آشور بانيبال (القرن السبع – متحف اللوفر).



صورة لواجهة فندق الملك (توكلتي نينورتا الأول Tukulti Ninurta)
القرن الثامن، وقد تمثل الملك بوضعين مختلفين أمام فندق
(نوسكو Nusku) (برلين).

المملكة البابلية الحديثة

على اثر خراب المملكة الاشورية في اراضي بلاد ما بين النهرين وضع (نابوبولاسار) يده على البلاد، مع انه ساهم الى حد كبير في سقوطها. فاستولى ابنه (نبوخود نصر منذ عام <٦٠٥>) على سورية وعلى جزء من فلسطين، وفي عام (٥٩٧ و٥٨٧) كان الاستيلاء على القدس فتبعها التهجير، ولكن من جهة اخرى، بذل جهد كبير في سبيل التطور والتنمية الداخلية، وقد ظهرت القوة من جديد في هذه المملكة، ولكن خلف (نبوخود نصر Nabuchodnsor) لم يظهر الا متأخرا وبصعوبة، فقد قاتل آخر ملوكها (نابونئد) وهو في حالة محرجة ومربكة تجاه قدرة الفرس المجهزة الصاعدة، فقد اسقط "سيروس" بابيلونة بدون اية صعوبة، عام (٥٣٩) .

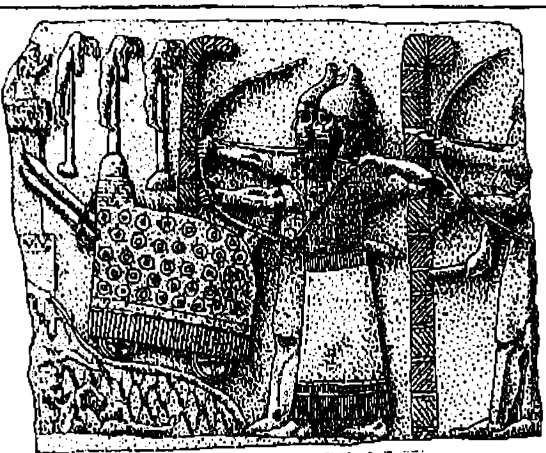
ان الذي مات مع سقوط بابيلونة ليست حضارة بلاد ما بين النهرين، بل استقلالها، مع انها هي التي سيطرت على كامل الشرق الادنى منذ أجيال. فعندما سلّط "سيروس" حكمه على بلاد ما بين النهرين كان عمله هذا من امتن مركبات القوى للمملكة، تجاوزت كل اشادة حتى هذا اليوم، فلم يحاول ابدا تدمير وازاحة ما هو جوهر الحضارة حتى ولو كانت مهدّمة، وهكذا ايضا، تمتعت بلاد ما بين النهرين بشهرة واسعة زادها الاسكندر وضوحا في سبيل مصلحته، ولكن لم يكن ذلك الا بصيص امل: فقد استمر استعمال الخط في المراكز والمناطق المحافظة. وفي "سيبار" عثر المنقّبون العراقيون على مكتبة حقيقية لا تزال على رفوفها، وتعود الى عصر" البارت" وتحتوي على مجموعات من التقاليد التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين، والتي تعتبر برهان على تجذّر الماضي البعيد، واشارة وافية عن زوال تلك الحضارة التي مضى عليها الوف متعددة من السنين .

تحيي حضارة بلاد ما بين النهرين نفسها الان حتى لو كان اختفاؤها بطيئاً، لان الهيللينية الظافرة التي اتسعت في الغرب خلال خمسة الاف عام، ستغطي الشرق وستتلقى منه القوة والحيوية. فان ولادة الاسلام اعادت التوازن، والعودة الى النزعة الاصلية .

وبما ان نطاق المسلسل التاريخي لحضارة بلاد ما بين النهرين اندثرت، لا تزال بعض الملاحظات المتممة تفرض نفسها .



نقش مزخرف لـ(دور – شاروكان) في "حورساباد) حيث تمثل فيها الملك "سارغون" الثاني حاملاً "وعلا بريا" للتضحية به (نهاية القرن الثامن – متحف اللوفر).



مشهد حربي في عصر الآشوريين، يمثل هجوماً على مدينة بمساعدة آلة ضد الحصار يعمل داخلها رماة السهام محمية بالدريئات الحامية، ويعمل خلفهم رجال مرفوعون على ازوق، (نقش لتيغلات – بيليزر Tiglat –Pileser) (٧٤٤ – ٧٢٧) (المتحف البريطاني).



رائب في بابيلونة. وفي العمق: ترميم وإعادة بناء معبد (نينماه)

مسألة التاريخ

انه موضوع سهل، هل نحن من صحة التواريخ الواردة خلال العشرة الاف سنة في هذا النطاق المعروض. وهل كانت شروط التاريخ واحدة في كامل هذه الحقبة، من الواضح ان المدة الزمنية الطويلة لهذا التاريخ، وتجذيره فيما قبل التاريخ، والاهمية غير المتساوية من حيث الكم والكيف، للوثائق المكتوبة خلال الثلاثة الاف عام حيث وجدت، لا تخول الحق في التوضيح بشكل متعادل، في كل زمن .

في القديم ايضا، لم يتطور قياس الزمن الا تدريجيا، لان مختلف الحالات وايضا الصعوبات التي تصادف المؤرخ، تظهر في تقدير ذلك التاريخ. في بدء الالف الثانية كان يقاس الحكم بعدد السنين التي امضاها، وكان يعطي لكل سنة اسم محتفى بذكراه، في سنة سابقة، فلا يوجد أي رابط منطقي يربط سني الحكم للملك، ولاشيء يربط هذه السنين في أي نظام خارجي. في مثل تلك الظروف، يعود معرفة ترتيب الاحداث في الحكم الى وضع عناصر الموضوع في مكانه تماما، وعندما يؤول هذا الترتيب الى وضع غير دقيق وغير كامل، تأخذ الاوراق او المقاطع مقطعا واحدا، فقد تأتي الصدفة او الحظ لتتعلق بورقة او قطعة اخرى لتصبح كسائر آخر. غير انه للصدف ايضا، قد تتوفر بعض الصلات الطبيعية او المعلومات التاريخية التي تعطي الدليل الموجه.

في الحقيقة كان الاشوريون يلقبون السنة باسم احد الشخصيات الكبيرة في الدولة، فتورخ الوقائع بمساعدة هذا الاسم، علما بان هناك قائمة رسمية تتضمن اسماء جميع الواهبين. وبفضل ذلك، يحتفظ المؤرخ المعاصر بجدول تاريخي مترابط .

يعطي هذا المسلسل للوقائع المنظم على قواعد مطابقة للنص، نقاط الاستدلال الطبيعية في موضوع التاريخ. ولكن عندما تكون الوثائق المكتوبة غير متوفرة، او عند توفرها، ولا تقدم المعلومات المطلوبة، على علم الآثار وحده تامين المراجع وقواعدها، ومن الواضح بهذه الحال، ان تصبح نقطة الاستدلال هي السنة المعتمدة، بل يعود الاعتبار الى مفهوم الحقبة الزمنية والى المدة القابلة للتغيير. فقد اجريت عدة محاولات لتحديد طول مدة الطبقات الاثارية على غرار استطاعة تحديد متوسط المدة للنسل او لمدد الحكم. ليس لهذه التجارب الان اية

قيمة، لانها لم تُمكن الوصول الى معطيات تأسيسية، كما هو الحال في معرفة الوضع واسباب تشكيل أي نوع من الطبقات الاثارية .

وبالمقابل، ارتفع الامل في المحيط العلمي لما قبل التاريخ، عندما اتاح تحليل الكاربون ١٤(-١٤) تقديم آلة قياس الزمن قابلة للتعويض عن غياب النصوص. ومنذ اربعين سنة اجريت مثل تلك القياسات، فتبيّن ان الحل لم يكن واضحا كما كان منتظرا، ولكن خطوة بعد خطوة قد تتضاعف مثل هذه القياسات، وستتعمق التحريات في هذا النطاق، كما ان الايضاح والتفسير ضمن نطاق واسع سيؤمنان القاعدة الصلبة اكثر فاكثر. فعندما نربط دراسة هذه المادة مع مواد اخرى تصبح اكثر افادة، والمثال على ذلك هو " Dendrochronologie" دراسة علم الاشجار، وله مزيد الاسف، فان الشروط السيئة لحفظ المنتجات العضوية للاراضي الرطبة في الاودية الشرقية لا تسمح ابدا بالتبصر في كيفية استعمالها، ومن جانب آخر يوجد عمليات اخرى للتأريخ توجب التدخل مثل الاضاءة الحرارية التي تسمح بتحديد التاريخ في الاواني الفخارية، واذا كان الامر يتعلق بحقل تسلسل الاحداث التاريخية، لا يمكن الوصول الى تحقيق ذلك فهناك الامل بان يصبح في متناول ايدينا بالمستقبل القريب .

مدى قابلية التصديق في نطاق تسلسل الاحداث التاريخية

ان درجة الاشتغال بجهاز التوقيت في مطابقة تسلسل تاريخ الوقائع في بلاد ما بين النهرين تتمثل حاليا بما يلي :

خلال الالف الاولى، اتاحت المطابقة مع جميع المصادر الجاهزة - وحساب الاعياد السلوقية - وقائمة واهبي الاسماء من الاشوريين - الملاحظات الفلكية - جداول الاسر المصرية الذي اتاح اعداد مسلسل الاحداث التاريخية والتي يمكن اعتبارها صالحة لمدة سنة او سنتين .

ومع مرور الزمن، تنامى عدم الثقة بشكل تدريجي خلال النصف الثاني من الالف الثانية ومع ان هذا اليأس لم يتجاوز عشرات السنيين فقد قدر بان الخمسة عشر قرنا الاخيرة من تاريخ بلاد ما بين النهرين اهملت منح الثقة او عدمها للاحداث التاريخية ولم تعد تهتم بها.

غير ان الوضع ليس بجيّد خلال النصف الاول من الالف الثانية، بسـبب الانقطـاع الواضح الذي ظهر خلال الحقبة المظلمة التي تلت مملكة بابل الاولى، فقد كانت النصـوص فيها نادرة. في هذا الوقت نملك قائمة بالأسر العمورية، وجداول ملوك اول مملكة بابلية التـي نعرف مدة حكم كلّ منهم، ومعرفة اسماء السنين ايضا. ان تزامن التواريخ مع بعضها يسـمح بالمطابقة المتوازية وبالتكامل والقبول بين مختلف الحكومات، ولكن الوضع يتفاقم بشدة عندما يُلجأ إلى لجمه بالكامل تجاه احداث مستقبلية. فقد توصلت التحريات والدراسـات فـي هـذا النطاق الى اعداد ثلاثة مقترحات تاريخية مختلفة، حُـدّد وصفـها بالطويلـة والمتوسـطة والقصيرة، فالاول حكم حمورابي من عام (١٨٤٦ – ١٨٠٦) والثاني من عـام (١٧٩٢ – ١٧٥٠) والثالث من عام (١٧٢٨ – ١٦٨٦). انها السلسلة التاريخية المتوسطة للاحـداث، التي تمثل ادنى الصعوبات، رغم عدم حل جميع المسائل المرتبطة بها، غير انها على العموم لا زالت معتمدة، بانتظار اظهار اية وثيقة أو مادة تساعد على حـل الموضـوع، أي فـهي الوحيدة التي قيد الخدمة .

اذا كانت سلسلة الاحداث الداخلية للاسرة الثالثة في "أور" ، سليمة وامينة فان موقفـها ليس مستقرا دوما، لانه اعتبارا من ذلك الوقت كلما تعمقنا في احداث الالف الثالثة، كلما اتسع الغموض والابهام، فان أسس الانظمة المقترحة ترتكز بصورة رئيسية على اللوائح الملكيـة المنظمة على الغالب اثناء عصر "ايسين" بشكل تزامني. ويُقدّر زمن عصر الاسـر المالكـة القديمة من اربعة الى خمسة قرون تبتدي نحو (٢٨٠٠) لانـه بالنسـبة للحقبـة (٣٠٠٠ – ٢٨٠٠) التي تعود الى عصر "جمدت نصر أو اوروك٣" تتوفر فيها المستندات والوثائق التي هي متزامنة ومتطابقة مع عصر "الثينيت" المصرية الحسنة التاريخ. وبالفعل، لاجل تثبيـت تاريخ تسلسل الاحداث لعصر الاسر المالكة القديمة لا بد من التوجه الى الآثار والى مـالكي النصوص للتظافر بالعمل معاً، رغم ندرة هذه النصوص وغموض البعض منها .

منذ الان ومستقبلا، تبقى المناهج الاثارية والعلمية الوحيدة التي يمكن تفويضها لتمـهيد تأريخ المسائل التاريخية ضمن الشروط المستحضرة .

النصوص المسؤولة عن التشوه البصري

ان توفر النصوص في عصر لا يوجد غيرها في مدينة اخرى، باستثناء مصر التي يكسب "سومر" فائدة ويعود الفضل إلى هذه النصوص في معرفة اسماء الملوك، واستكشاف العلاقات بين المدن، والتقاط البعض من بين بقايا الوقائع التاريخية، وايضا دراسة تطور المجتمع الذي كان فيه الخط، نتاج افراز داخلي غير مُتبنّى من أي نظام خارجي.

على سبيل المطابقة، قد تقود هذه الوسيلة الى عدة حالات يبالغ فيها تقدير وقائع العصر الذي تظهر فيه النصوص، فتعزى اليه كل شيء جديد. مثل: اسناد المحاولة الاولى لتوحيد بلاد ما بين النهرين الى (لوغالزاجيري Lugalzagri) ومثل اعتبار النجاح الاول في هذا المجال يعود الى "سارغون – اكاد" .

يوجد فعلا ما يثبت وقوع حالة مماثلة في هذا المجال، خلال القرون السابقة وكانت ناجحة، مثل هذا التنظيم السياسي ليس له علاقة بملكية الخط أي الكتابة. ان الكثير من الممالك الافريقية رأت النور دون ان تمتلك الخط، وما من شيء يثبت لنا بأن كل ما يبدو امامنا هو جديد اذا عرفناه عن طريق الخط الذي هو بمثابة الالة الاقتصادية وليس بدء للتطور، والاكثر من ذلك فان نتيجة كل تطور الولوج .علما بان مثل تلك الملاحظة لا تنظر الى استعراض الاعمال والوقائع بشكل صريح، مثل انشاء مملكة في عصر ما قبل التاريخ بل فقط لمقاومة الميول الضارة والمفسدة، والمنتشرة عبر التاريخ والتي تبخس قيمة الحقبات السابقة لوجود الخط، معتبرة فقط ان مرحلة بدء الخط احدثت مباشرة لقفزة عظيمة الى الامام في سبيل فائدة الانسانية، وانقطاع نوعي للماضي. مع ان التنقيبات الاخيرة اوضحت بأن الاعداد الاقليمي لمملكة "ماري" ولقناة النقل فيها بطول (١٢٠كم) انجزت في زمن تأسيس هذه المدينة نحو عام (٢٨٠٠) او ما قبل. بالوقت الذي به كان الخط في خطواته الاولى. لذلك هل ترفض هذه التسمية باتساعها، وننكر على كل دولة قدرتها عل الالتزام والتقيد بمثل ذلك المشروع. فإن مثل هذا الاعداد فقط يُمكّن فهم وادراك اسباب انشاء المدينة، والان لنعط عصر "اوروك قيمة ماضيه الحقيقية باعادة نظرة سليمة .

تنقلات مراكز التوازن

ان تاريخ بلاد ما بين النهرين هو بمثابة تاريخ المدن، منذ البدء أو بالاحرى منذ لحظه بالوثائق المكتوبة، لقد كانت لعبة القوى بيد المدن التي كان هدفها الشاغل هو السيطرة على الجوار. قوة صاعدة تتحول الى مملكة التي لم تكن الاتجمع مدن تحت امرة واحدة وفي المرحلة اللاحقة تتكون الامبراطورية باندماج أو ابتلاع مملكة او اكثر اقل قدرة ومقدرة. وفي اوج البناء تحقق المدينة السيطرة ، كبيرة كانت او صغيرة مثل: "اكاد – أور – بابيلونة" .

ولكن النزاع بين المدن ليس بالصدفة، بل ان القوات القادرة هي التي تتمسج لحمة تاريخ البلاد. فكانت بلاد "سومر" هي البادية بالانطلاقة، وهل يعتبر ذلك من الصدفة، ثم كبرت ونمت بشكل متواز حضارة الهندوس، وخلال الالف الثالثة تمت في "اكاده" المحاولة الوحيدة التي لم تكن جنوبية بحتة، وقد بدت مشابهة تماماً للمحاولة السامية المعروفة، فقد انتهى نزاع المدن في عصر الاسر العمورية الحاكمة بانتصار بابيلونه، وبنتيجته انتقل محور التوازن نحو وسط بلاد ما بين النهرين، غير ان هذا يتفق مع انحطاط نسبي في "سومر" بدون شك، الى ضعف الاقتصاد الزراعي في الجنوب، وايضا الى زوال حضارة (حارابا في وادي الهندوس). ومن جهة اخرى اظهرت التنقيبات الاخيرة الجرأة في الخليج بان الالف الثالثة الاولى كانت، وجه "سومر" الديناميكي النشيط وبالمقابل الوجه الباهت خلال الالف الذي بعدها، فكان كلٌ يمضي، وكان زوال حضارة الهندوس تلقت العديد من الصدمات وصلت حتى بلاد ما بين النهرينن وهذا بلا شك، تم باضعاف القنوات التجارية التي تسلك الطريق البحري .

لذلك تم اعادة تركيز المحور نحو بابيلونه في الوقت الذي به سورية كانت خلال الالف الثالثة في فلك بلاد النهرين تبرز كشخصية فريدة ذات فائدة ملموسة وجديدة لمنطقة البحر المتوسط. ولكن هذا التركيز الجديد لم يصل الى مداه المطلوب، لانه خلال الالف الثانية كانت مملكة "شمسي – حدد" هي مجال التجربة الاولى لبناء المنطقة الشمالية التي احتلت بعد اقل من قرنين من قبل "ميتاني" ومنذ ذلك التاريخ، اتضح بان القوات الحقيقية تواجدت في القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، وبان مصادر التموين من مادة المعدن، لعبت دورا فعليافي هذا الموضوع. كما اصبحت منطقة السهول الواقعة على سفوح الجبال التي منذ زمن

طويل فكانت تشكل أحد اقطاب التطور الاقتصادي للحوض، والتي اصبحت خلال مجرى الالف الثانية القادة للتشكيلات السياسية، وفيما تخص تصاعد القوة الآشورية فليس ذلك بفضل الصفات لعسكرية التي اصبحت ملموسة خلال الالف الاولى، وبفضل الاهلية التجارية المؤكدة منذ الالف الثالثة عندما كانت تمارس التجارة مع (كبادوكا)، ويعتبر ذلك مؤشر آخر لانتقال محور التوازن المرتبط انطلاق حوض المتوسط خلال الالف الثانية. اما وضع مملكة بابل الحديثة بدأ وكانه عارض في بحر هذا التطور، اثبت صحة ذلك قصر مدته، وكل ما حدث يُعدّ صغيرة بالنسبة لانهيار "آشور" القاسي وغير المنتظر علما بان الميدين لم يصلوا بعد الى الحالة التي تمكنهم من السيطرة على بلاد ما بين النهرين .

وعلى ما يبدو، قد استجاب تنقل محاور السلطة خلال الالف الثالثة الاخيرة من تاريخ بلاد ما بين النهرين، الى اقطاب خارجية يمكنها ان تلعب دورا جذابا وناجحا فيما يتعلق بالهيمنة على الطرق التجارية .

العوامل الرئيسية

حتى الان، ان القائمون بهذا التاريخ لم يحتفظوا لنا بالكثير منه، فهم يستحقون كل تقدير، نذكر منهم السومريين والساميين، انهما مجموعتان عرقيتان مشهورتان ورئيسيتان، وقد ذُكرت لنا اوضاعهما سابقا فالسومريون يقطنون الجنوب، واغلبية الساميون في الشمال ما وراء (نيبور)، اما زمن قوة كل منهم في التاريخ يمكن تلخيصها بما يلي:

سيطرة "سومر" خلال الالف الثالثة – السيادة السامية خلال الالف الثانية مع اختفاء السومريين الذين لم يُمثلون الاّ كمرجع ثقافي للماضي في وسط الكتّاب والناسخين .

بالحقيقة، هم السومريون الذين لعبوا الدور الاقدم والذي صدر عنه الكثير. فقد عثر في اسفل البلاد على رجال يستخدمون اللغة السومرية منذ بدء التاريخ وطالت التحريات لمعرفة مكان قدومهم وزمن مجيئهم، وحتى الان لم يُعطى أي جواب مرضٍ، لا ترتبط لغتهم بأي غصن معروف، كما ان التكوين المادي لحضارتهم تبدو متوضعة بخط مستقيم ضمن انجازات عصر "اوبيد" وايضا، فان استكمال تطور الثقافة المادية كان اثر تأثيرا من التصدعات التي اريد ترتيبها في المقدمة، بغية تحديد زمن وصول السومريين. وضمن تلك الظروف ومهما كان نوع السؤال عن جذور اللغة، يبدو انه من المناسب التوجه بالتفكير حول

سكان بلاد ما بين النهرين الواطئة هل هم خلاصة لخليط زئبقي من السكان المتنوعين الذين استقرو منذ بدء العمل بالزراعة، او قبلها بعد ان تجددت بمشاركات خارجية، تجاه ذلك، لا داع للتفكير، بان الصورة التي ينقلها لنا العصر التاريخي عن وجود تجدد مستمر تختفي فيه خصائص كل عرق، وبانها تختلف عن الخصائص التي سبقت مباشرة، ظهور النصوص .

بالنسبة للساميين، فهم موجودون منذ بدء التاريخ، ولا جدوى للتحري في سبيل معرفة زمن قدومهم. فالموضوع الان، هل يشكل السومريون والساميون مجموعتين عرقيتين متناقضتين فعلاً؟ يسعى كل منهما الاحتفاظ بكل عناية بنزاهتهما العرقية، خاصة عند حدوث أي نزاع بين المجموعتين كما فكر بذلك بعض المؤرخين حيث ذكروا ان نزاعا وقع بينهما في الالف الثالثة انتهى لصالح المجموعة الثانية. بالحقيقة انها قضايا العرق والنسل التي يصعب قبولها. ففي الجنوب، كانت اللغة السومرية هي السائدة خلال الالف الثالثة، اما الاكادية في بابل الوسطى، وكل منهما كان يسيّر ثقافة غير قابلة للتبادل مع الاخرى، ولما ضعفت الفعالية الاقتصادية في الجنوب، وخاصة عندما اخذت "بابل" التناوب Relais اصبحت اللغات السامية بطبيعة الحال، تحت سيطرتها، مما عزّز العمق ذات الاصول السامي، وتجدد بثبات بفضل السكان يتكلمون نفس اللغة منذ الفي سنة .

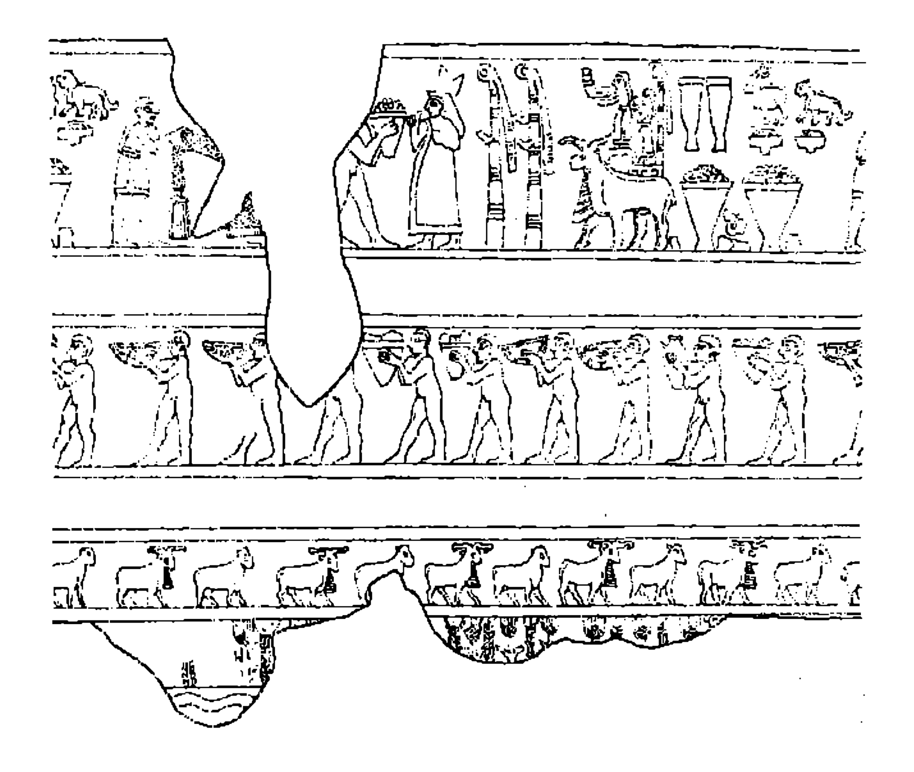
بدت بلاد ما بين النهرين، وكأنها عالم المدن السومرية او السامية، ولكن في الخلف، السكان الرّحل الذين يلعبون باستمرار دورا اساسيا رغم ظهورهم بالمظهر السيء في وثائقنا، لأن علم الآثار بنوعيته لا يستطيع ابراز وجود رجل قديم لم يترك آثارا متوضعة ومتراكمة في مكان واحد في زمن ما، خاصة اذا لم يترك اية فاعلية. بالاضافة الى ذلك، لا يذكر الرحل في النصوص الا عند تماسهم مع الحضر. ولم يلاحظ ذلك الا ضمن وثائق "ماري" عندما البعض منها سلط الضوء على شؤون الفرات خلال مدة (١٥) سنة اتاحت الحصول على بعض الافكار حول هذا العالم من حيث طريقة معيشتهم وتصرفاتهم مع الملك "زمري سليم" والحقيقة ايضا تفيد ان السكان الرحل عاشوا منذ العصور القديمة حتى العصور الحديثة بجانب السكان الحضر بوضع مستقل وحرية متبادلة. ولكن طرق المعيشة والتفكير مختلفة كانت تؤدي الى المنازعات، وبفضل النصوص المكتوبة تبيّن وجود جماعات من الرحّل منذ بدء التاريخ أي نحو (٢٣٠٠) تحت اسم "قبائل العموريين" وان وجودهم سبق اول تدوينات نصية، وكان تواجد هذه القبائل لعدة قرون مسبّبت القلق الدائم لمسؤولي المدن الذين كان

يتوجب عليهم بشكل مستمر، الصراع والمقاومة – او لتحالف – او التفاوض مع عدو يتعذر القبض عليه، او تسليمه اراض او تسبيه للجيش، وعلى المدى الطويل، اذا صمم هؤلاء الرحل على التحضر فانهم يتجمعون ليقيمون داخل البنى السكنية الموجودة، ويمكن اعتبارهم عنصرا مهما للتجديد المستمر للسكان، وغالبا ما يفكرون بالسعي لاستلام السلطة في المدن كما فعل ذلك العموريون ومن بعدهم الاراميون، وفيما بعد العرب، ان الذي يثير الدهشة في هذا العالم الشرقي، هو الوجود المستمر للسكان الرحل الذين يمارسون الضغط الشديد على السكان الحضر عندما تزداد اعدادهم، الامر الذي يدعو الى التحدث عنهم، اما موضوع منبتهم، بالحقيقة، حتى الان لا يوجد لها حلول، فمثلاً بالنسبة للعرب فقد قَدِموا من شبه الجزيرة العربية ولا غرابة لديهم ان يشاهدوا بين ظهرانيهم رجالاً قادمين بين زمن وآخر، وعلى شكل موجات كبيرة من مخزونهم الطبيعي القديم. فقد اقترح بعض العلماء تحديد مصادر جغرافية اخرى، لاول جماعة على الاقل. وتساءل علماء اخرون فيما إذا مناطق السهوب والاطراف الصحراوية في الشرق الادنى تصلح لإفراز سكان رحّل بشكل مستمر .

فهذا الموضوع لم يحل بعد، وعند معالجته لا بد من التفكير الى الرأي الاخر المتضمن شعب بلاد ما بين النهرين القاطنين في اعالي الجبال، لان الجبال الشمالية والشرقية التي هي جزء من بلاد ما بين النهرين، تشكل على غرار المناطق الصحراوية، مصنعا دائما للسكان المنجذبين طمعا بغنى السهل او للتفتيش عن العمل. وعندما تفيدنا النصوص بشكل واف، يجب تطور (العلاقات التنازعية Conflictuelles) بين بلاد ما بين النهرين وساكني الجبال، وان التاريخ بكامله خاضع لنزول هولاء الاخرين الى السهل، وللنزاعات التي تقودها المدن مثل: نارام –سين واللولوبي (نصب تذكاري لنارام –سين راجع ص٦٤) – غزوة وسيطرة غوتي – تمركز السكان الحوريين في الشمال – سيطرة الكاسيت–هذه جميعها امثلة. ومن الجدير بالذكر، بان الآشوريين اشادوا مملكتهم بالاستناد على السهل والجبل والوديان الشمالية بآن واحد، فكان الاسهل، السيطرة على سكان الجبال المحتاجين، اعتبارا من آشور – ونينوى او من (كالهو) او –بابل او –اور. اما عيلام او الميتاني هما من جهة اخرى، امثلة اخرى عن مملكة الخيالة في السهل والجبل التي تبيّن بان البناء السياسي لا يشاد على الحوض الهيدروغرافي فقط، بل ايضا على الاطراف .

يتصف سكان الصحراء الرحل وسكان الجبال بالقساوة والخشونة تجاه ظروف تواجدهم الذي تكتنفه بعض الصعوبات، فهم اعداء الداء للسكان القاطنين في الوديان والسهول والذين يكسبون رزقهم عن طريق استثمار اراضيهم، وعن طريق التبادلات التجارية، الامر الذي لا يُيسّر لهم تطوير قدراتهم الحربية على مستوى جيرانهم، لانه عند مهاجمة الرحل لهم، لم يكن بمقدورهم الا الدفاع عن ارزاقهم، مما يجعلهم دوما من الخاسرين .

سلكت بلاد ما بين النهرين وكأنها بؤرة يتجدد فيها باستمرار توافد القادمين من البلاد المحيطة. ومن هذا المزيج المستمر انبثقت حضارة جديدة مُتبناة من قبل هؤلاء القادمون الجدد، الذين بالرغم من ذاتيتهم النظيفة يبقون مزيخ خطوط وأثار حضارة السهول الراسخة فيما بين النهرين متغلبين على الفردية المتطرفة لدى الرحل وسكان الجبال.



تسلسل من الافاريز المتنوعة لإناء من المرمر في "أوروك" راجع الصورة ص التي تمثل اشتراك رموز الزراعة والتربية في طقس شعائري، حول تقدمة مرفوعة إلى الآلهة العظيمة: "إينانّة" (نحو عام ٣٠٠٠ – بغداد).



تمثال لجنيّة بأجنحة تقوم بعمل تعفير، إنها تفرك أزهار الثوية مع عناقـ
ذكر النقش والزخرف من (نمرود) (القرن التاسع – متحف اللوفر).

تدرج الوسط المهيمن

برز تاريخ بلاد ما بين النهرين، لمدة طويلة، وكأنه تاريخ متتابع لممالك عدة، عندما نستذكر (سارغون – اكاده) ، وحمورابي وبابل، وغيرهم من ملوك بابل وآشور الجدد ، وهل هناك صور أخرى تخطر لبالنا .

ولكن هذا الاهتمام الذي توجه نحو الاعمال العسكرية والسياسية حجب حتى الى عصر متأخر الاصالة الحقيقية للمغامرة البشرية في هذا الجزء من العالم. الذي بالحقيقة ولأول مرة يلاحظ فيه، ان رجالا تمكنوا من المرور من وضع قاطع الطريق الى منتج. وهذا يعني تماما انهم استطاعوا الهيمنة على وسطهم وعلى تدجين الحياة الطبيعية، وان يتكيفوا مع الطبيعة بدلا من ان يكتفوا بقطف الثمار النامية المؤقتة، كما استطاعوا ايضا ان يطوروا استخدامهم لقوى الطبيعة، وأخرى، مثل: المياه والنار. وهكذا توصلوا الى التحضر بدلا من حياة الترحال القائمة .

ان هذه المغامرة التي انبسطت عدة الاف من السنين تُظهر لنا الفائدة الحقيقية التي تكسب من دراسة عالم بلاد ما بين النهرين، ومن جهة اخرى، يلاحظ ان المواقف الاكثر اهمية في هذا التحول وقعت قبل اكتشاف الخط الذي كان بحد ذاته موصل الى هذه النتائج. ويعود لعلم الآثار الذي اهتم بحيوية، خلال الثلاثين سنة الاخيرة، بالقاء الضوء وبنجاح على هذه المناطق المظلمة، وقد تبين الان تاريخ الالوف الثلاثة الاخيرة لحضارة بلاد ما بين النهرين ليست الا النتائج البعيدة جدا للتحولات المستخلصة من الخمسة الف سنة سبقتها .

وعلى ما يبدو، يتعذر، بصورة متزامنة ومتوافقة عرض التغيرات والفتوحات في المجالات الاخرى المتنوعة مثل: الغذاء – التنظيمات في المناطق – والامور التقنية. ومع ذلك يجب أن لا يغيب عن الاذهان، بان جميع هذه الحقول التي اتينا على ذكرها تطورت بصورة متلازمة يتعذر فصل أي خط مستقيم عن الاخر. فكان التطور شاملا فكل انجاز فيه تمّ وفقاً بمقتضى الاسباب والنتائج المرجوة .

السيطرة على الموارد الغذائية

تتميز المرحلة الاولى التي تشغلنا، كما يبدو، بتحول الصيادين القطافين الى مزارعين ومربين، ويعتبر هذا التحول ظاهرة مهمة جدا لتطور حوض بلاد ما بين النهرين، مما يجب الوقوف امامه قليلا قبل تفرس الوضع الذي سيهيمن على العصور التاريخية .

من السالب قاطع الطريق الى المنتج

فيما بين الالف العاشرة والثامنة بدا الرجال المتمركزون في المنطقة التي اتفق على تسميتها "الهلال الخصيب" طريقة معيشتهم بشكل اساسي، فقد وافق هذا التبدل تلك القرينة المناخية الخاصة التي لها علاقة مع المرحلة الجليدية الكبيرة. ولكن تدخلت عوامل اخرى زادت التنقيبات التاريخية ايضاحًا منذ الوقت الذي نشر خلاله السيد (ر . بريدوود – .R Braidwood) قواعدها منذ اربعين سنة .

وسائل البحث والدراسة

وقد تبين مباشرة بان وجود الانضباط مع النظام المستقل المتكامل حول هذا الموضوع، يؤدي الى فهم هذا التحول الذي يبدو أنّ لا مفر منه، وان التحريات المتصلة ((بالبالنولوك– Palynoloque) – بعالم النباتات)) – و"((بالآثار الخاصة بالحيوان ((Archeozoologai"وبعالم (مناخ عهد الجيولوجي القديم)، وأيضاً، بالاضافة الى التنقيبات والتحريات الاثارية التي قام بها علماء ما قبل التاريخ، جميعها، قادت الى ايضاح وتفسير المواقف والطرق التي ادت الى التغيير. فقد ركزت التحريات هذه على الادوات – على مجموعة بقايا النباتات – Macro – Sestes - Vegetaux " – غبار الطلع – وبقايا العظام البشرية والحيوانية .

والى مؤرخي ما قبل التاريخ يعود تحليل الادوات التي عثر عليها في المواقع الأثرية. فقد تحققت نجاحات ضخمة عندما تم العدول عن التحري حول اشكال الاحجار المقصوبة ونماذج تقطيعها والتركيز، على استيفاء المعلومات حول هذا النوع بدراسة مختلف الوظائف

المحتملة استناداً الى بدء الانهاك والحت. والى اقتراب حضور او غياب اية فئة او صنف من الادوات التي قد تكون كاشفة، دون استخدام آلة طحن الحبوب، أو أية منجل ملمّع لقطع السنابل ولم يكن الفكر او التبصر في الزراعة لينال مستوى دخلها. ولكن هاتين ليستا كافيتين للدلالة على الفعل الحقيقي، بل يعني فقط قطع جذور الحبوب والقصب او طحن القمح والحبوب الاخرى لا غير، ولكن مثل تلك العمليات لا غنى عنها ايضا عند القطافين والمستهلكين للحبوب البرية، فان تلك الآلات ليست بمفهوم معين سوى الدلالة على الاستخدام، وليس لوفرة الانتاج. فان التقنية الحديثة في تحليل آثار الفائدة من الادوات الحجرية تساعد على فهم وايضاح قيمة المادة التي وظفت هذه الآلة. وهكذا تبين بان الصقل والجلي ابتكرا ليس فقط لقطع القصب بل ايضا لجلي وصقل الحجر والخشب والجلد، بعد ان تترك وراءها آثاراً لمواد اخرى وبهذا امكن الحصول على بقايا معدنية أو عضوية نتيجة استخدام هذه الالات. وبذلك ايضا تحققت الفائدة بفضل البحث والتحري .

كما يسمح تحليل بقايا النباتات مثل الحبوب التي يعثر عليها والعائدة لعصور قديمة بمعرفة مدى توفر خصائصها وصلاحها للزراعة البرية، او ماهي التغييرات التي طرأت عليها بعد التدجين .

ان تحليل غبار الطلع كمكوّن ميكروسكوبي مذكر الذي يعمر طويلاً، والذي يمكن ايداعه الى وقت معين في مختبرات الآثار، يساعد على تكوين مبحث جديد لمجمل من بقايا النباتات في عصر معين، لكي نحصل على ادلة قد تكون ثمينة جداً، ولمعرفة كنه الانواع المعاصرة وبفضل دراسة كميات كبيرة من كل نوع، تتحدد عندئذ فيها الصورة الكاملة لكل نوع. وبطبيعة الحال، تتجاوز هذه الدراسة نتائج المعلومات الغذائية لتوضح طبيعة المناخ القديم عن كل نوع من هذه النباتات وعن محيطها ووسطها العام .

وأخيرا، تمثل دراسة تعظم الحيوانات التمهيد الوحيد الممكن من موضوع التدجين. كما يسمح التحليل المورفولوجي تحديد الفرق فيما لو كان داجنا او بريا، لان السيرورة الى الحالة الداجنة تقود بالنسبة للحيوان الى تغييرات عميقة يحاول البحث ايضاحها. ومن جهة اخرى، بعد الدراسة الستاتيكية المتعلقة بفئات الاعمار والاجناس للعظام الملتقطة ضمن شروط ومستويات واضحة، يمكن الوصول الى تحديد العلاقات الواقعة بين القاطنين حينذاك في الموقع، هل هي صيد عادي او انتقائي او هي ما قبل التربية او خلال التربية نفسها .

وبصورة عامة لا بد من الخبرة التمهيدية لجميع هذه المسائل في حال التنقيب عن المواد القديمة جداً وتأسيس مركز للبحث حول الكائنات البرية والمتوحشة. كما هو الحال في (ارديش Ardeche) حيث تحاول فرقة "ج. كوفان" على توفير مواد البحث والدراسة، وعن مدى تأثير تقنية الحصاد على تغير الاجناس وسياق الانتقاء .

نحو ممارسة الزراعة

تتمثل الوقائع حتى هذا اليوم، كما يلاحظ، بالشكل البسيط، بيانيا:

في نهاية العصر الاعلى الحجري، "كيباريان Kebarien" او بين عام (١٣٠٠٠ و ١٠٠٠٠-ق.م) يقدر انه داخل فلسطين التي كانت "محتلة بكثافة Densement " ، ان وجود ادوات الطحن المخصصة فعلا لاستهلاك الحبوب تتطلب نوعا من التحضير للعمل نذكر منها: ارتفاع درجة الحرارة نسبياً مرفق بالرطوبة وبنشر الحبوب البرية بالهواء الطلق .

في (ناتوفيان Natoufien) (١٠٠٠٠ – ٨٣٠٠) وفي الوقت نفسه في العديد من المواقع في فلسطين وفي سورية الشمالية ظهرت لاول مرة قرى حقيقية، فقد ازداد اتساع التحضر المدني وازدادت أيضاً ادوات الطحن، الالات المعدنية الخفيفة، شفرات الحصاد الملمعة والحادة، وبذلك تجلّت بوفرة اهمية استخدام هذه الالات في مواسم اقتطاف الحبوب مما زاد حصتها في الغذاء. وفي نفس الحقبة، تبين بأن موقع (زاوي شمي شانيدار) الكائن على حافة رافد نهر الدجلة في العراق الشمالي تمثل بخصائص قريبة جداً من خصائص منتجات سورية وفلسطين. فكان هذا النطاق الواسع جداً في الاستخدام المتطور للحبوب البرية، يغطي جميع بلاد التلول التي تدعى "الهلال الخصيب" .

تمثلت نهاية الالف التاسعة واوائل منتصف الالف الثامنة (العهد ٢) بزمن التطور الحاسم، حيث تحقق فيها الخبرات الحقيقية الاولى في الزراعة، فكانت بالوقت نفسه، نقطة الاتصال والوصول للتطور الذي ابتدأ منذ الفي عام، ونقطة الانطلاق للتغيير الحقيقي، الذي لا ينعكس في (irreversible) الطرق المعيشة، فقد تبدل مفهوم الاحتلال بالاستنتاج ولو كانت المواقع كانت قليلة العدد، يُكتفى بالموجود فعلاً لاعطائه اتساعاً اكثر، وهذا يؤدي فعلاً الى تجمع قوىً في القوى الاكثر اهمية، وهناك ايضاً تغييرات مهمة حصلت نحو عام (٧٧٠٠) في اريحا "فلسطين" حيث قادت الى نتيجة تفيد بان تغيير طريقة التدجين ارتكزت على

القمح المنشى وعلى استخدام الشعير بطريقتين، وفي الوقت نفسه، في تل الاسـود بمنطقـة دمشق، دلّ الرسم البياني Diagram لغبار الطلع على وجود خاصية قوية جـداً فـي نمـو الحبوب، ويلاحظ من خلالها وبشكل طبيعي الفاعلية الزراعية لأنواع الخضـار - وللحمـص والعدس التي اكتشفت فيما بعد. وفي ("المريبط" -٣ -ب) اعطت دراسة غبار الطلع نفـس النتائج رغم كون (الشعير والقفقاس Engrain) لا يتوضح فيهما حتى الآن التغييرات الاساسية المرتبطة بالتدجين. بالحقيقة، إن التنقيبات التي جرت في "زاغروس" والتي لا تزال محـدودة افادت بأن الخطوات الاولى نحو التحليل الحديث لخواص الزراعة القديمة لم يصل الى نهايته بعد، فيما عدا موقع (زاوي شمي شانندار) الذي يتبين بأن الاهتمام يتجه فيـه نحـو تدجيـن الحيوانات .

لقد شاهد نهاية الالف الثامنة والسابعة تعميم تقنيات الانتاج الحديثة في الشرق الادنـى حيث تصل نسبة الامطار فيه الى (٢٥٠ملم)، ومع ان مهنة القطاف والصيد لم تُهملا حتـى الآن، ولكن يستنتج فـي كـل مكـان بـأن اسـتخدام المزروعـات والحيوانـات الداجنـة لا يزال سارياً ومعمولاً به. اما انواع النباتات المكتشفة في التنقيبات فهي متفرقـة وليسـت بموقع واحد :

ففي بلاد الشرق يزرع (القفقاس Engrain) في (ابي هريرة - اريحا)، ويزرع الشـعير ضمن تصنيفين في " ابي هريرة" والقمح القاسي والمنشى في (تل الاسود واريحا) والبقـول مثل الحمص والعدس في "ابي هريرة والاسود"واخيراً الكتان في تل الرماد (وهي زراعة غير غذائية) .

اما في زاغروس يشاهد (القفقاس Engrain) والشعير والقمح المنشى .

وفي الالف السادسة قُدّر ايجاد منفذ جديد ينال بشكل خاص بلاد ما بين النـهرين، لان العمل الزراعي لدى خروجه من "المنطقة النووية Nucleaire" تنتشر فـي وديـان الفـرات والدجلة، وفي بابيلونة الوسطى وأخيراً في بلاد ما بين النهرين الجنوبية يهتم الجميع بالمناطق التي ينزل فيها المطر خلال كافة السنة بكميات ادنى من الحد المطلوب لزراعة بعلية غـير مروية أي (٢٥٠ مم) وبهذه الحالة يُلاحظ شكلان من التبني :

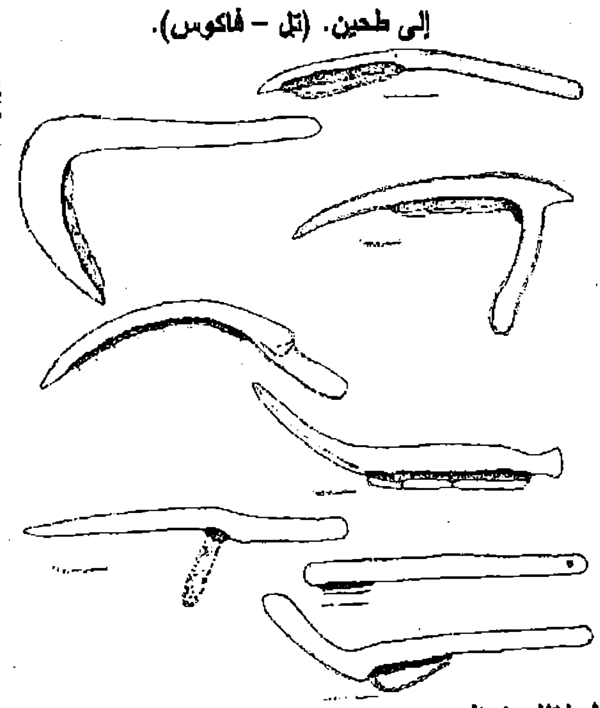
١ _ في القطاعات القاحلة مثل: بقراس – الكون – ام داباجيا، التي يضعف فيها وجود المياه، يلاحظ بذل الجهود النشيطة لتحسين تربية الدواجن، ومهنة الصيد التي تُعزّز من وقت لآخر كما هو الحال في داباجيا .

٢- عندما يتوفر وجود مصادر هيدروليكية بشكل سواقي ومجـاري ميـاه، لابـد مـن تطويعها بشكل او بآخر، لانضاج النباتات. وليست المرحلة الزراعية في بلاد ما بين النهرين الا الدلالـة عـن القفـزة الاولـى فـي هـذا النطـاق بعـد ان انتـهى الامـر الـى موقع (تل الصوان) الذي استحسن فيه زراعة جميع أنواع الخضرة، والشـعير ذات السـتة اصناف (انه من النوع الذي لا ينمو ولا يُنتج الا بالسقي) وايضا بالكتان الذي يحتـاج الـى الكثير من المياه على طريقة منتظمة في السقاية ولو كانت لا تزال بدائية. ولاجل ذلك رُمّمت في (شوقا-مامي) الاقنية القديمة .

هذا هو الموقف بل المرحلة الاولى التي امكن اجتيازها، فقد أتاحت تطور بلاد ما بين النهرين، ونظراً لاهميتها كُرّسَ الفصل اللاحق شرح هذا التطور. ولكن بالوقت نفسه، لا بـد من الاشارة الى أن اكتشاف الزراعة المروية يعود فضلُـهُ الـى ظـروف مختلفـة: منـها (تشاتال حويك Tchatal _ Huyk) الواقعة في سهل "كونيا" في الاناضول، حيث زرع، رغـم قِدَمْ المفهوم السائد، بان أيّة سقاية غير مفيدة، الشعير ذات الستة صنوف، فقد كـان الـهدف الوحيد لتحقيق انتاج عالي الدخل، ولعل ذلك الذي اكتشف فائدة الري والسقاية الكثيفة.



صورة لمركز نضوج القمح مع صورة المطحنة الدائرة في المكان على حجر مطحنة من نوعها ثابت. كلاهما مرتكزان على قاعدة مرتفعة يجثو تجاهها العامل على ركبتيه للطحن وتحويل القمح إلى طحين. (تل – فاكوس).



صورة لمختلف نماذج المناجل القديمة، يلاحظ فيها التنوع الكبير في أشكال الشفرات فيها واختلاف طريقة تثبيت الخشب والقبضات مما يجعل إجراء القطع بشكل موحد.



صورة تمثل التربية التقليدية

تطور التدجين الحيواني

يُقدر تدجين الحيوانات والنبات حسب درجة القابلية الذهنية للرجل، ودرجة التطور الاجتماعي، ولاعجب بذلك اذا ظهرت الصورتان في نفس الحقبة. فكلاهما يدلان على موقف جديد تجاه قوى الطبيعة، والشيء الوحيد الذي يتبدل هو: الموضوع بالذات، ففي حالة: الخاصة النباتية وفي أخرى الخاصة الحيوانية .

ومع ذلك لا يمكن اختلاط هذين الحقلين لان الأمكنة والاوقات التي تتم فيها هذه التغييرات لا تسمح بهذا المزج. لان كل فئة منهما، تمتلك آثارا خاصة، لابد من أخذها بعين الاعتبار .

في بادئ الامر، تولد التدجين الحيواني من الصيد، الذي يمارس بشكل طبيعي وانتشر عالمياً ومثله أيضاً الاقتطاف. اما ولادة الزراعة كانت نتيجة لشروط خاصة اصبح استخدامها مع مرور الزمن عادياً، لاسيما زرع الحبوب البرية في الهلال الخصيب. اما تدجين الحيوانات، بالمقابل، فقد انطلق على ما يبدو في العديد من المراكز في زمن واحد .

كانت احدى مقدمات التدجين لنوع معين، هو الذي يتكاثر في منطقة محددة، بشكل قطعان، حيث لا فائدة اقتصادية عند تدجين الانواع النادرة، ومن جهة اخرى، تم البعد عن تدجين الانواع التي يقترب أنواع غذاؤها من غذاء الانسان، لتفادي خطر المزاحمة، فالكلب والخنزير بقيا مستثنيين عندما تبين للرجل عدم تطويرها في حال ابقائهما على التغذية من غائط الانسان. لذلك تركز الانتقاء على الغالب، على الحيوانات المجترة كونها تتغذى بسليلوز النباتات التي لا تدخل في غذاء الانسان، وقد خص هذا الانتقاء الخراف والماعز وهي حيوانات مجترة صغيرة وديعة وقابلة للحجز والتربية، اما تدجين الحيوانات الكبيرة الحجم مثل الابقار لم تصبح ممكنة الا بزمن لاحق عندما امكن السيطرة على صغارها .

لقد تم المرور من حالة الصيد الى حالة التربية بعد اجتياز مرحلة ما قبل التربية Protoelevoge) التي اتخذت طرقا متنوعة، بل التي حسب (ب ديكسوس) تتطلب بعض الخصائص الاساسية المهمة، وهي انتقاء نوع من الحيوان الذي لا يهرب عند قدوم الانسان وللعيش في منطقة محددة على مقربة من الرجال الحضريين. وعلى صاحب القطيع ان ينتقي بكل دراية وتفحّص الفرد الذي بحكم تجاربه يحسن تربية القطيع واستثماره. مثلاً بحصره

ضمن واد يصعب الافلات منه يتواجد فيه الكثير من الرعي ضمن مساحة واسعة تترك لـه. غير انه مثل هذا الاجراء من حيث انتقاء المكان يبقى موقتا، ولا بد من تبديله. وهكذا ايضاً في "مريبط" في الالف الثامنة تطورت مبقرة " Protoelevoge" للابقار رغم ممارسة الصيد فيها جميع انواعه، ودون أي تغيير في مكان الرعي "Faune " الذي كان يتمثل بغابـة "– Foret Galerie " محاطة بأشجار السبسب " Savan". ان انتقاء مثل هذا النوع من الصيد للابقار قـد يكون هو الذي أوصل الى ممارسة التربية عند انعدامه (أي الصيد) دون معرفة السبب، ومع كل ذلك بقيت ممارسته مرغوبة وخاصة باعتبارها تمثل مفهوماً خاصاً للغنى الذي لم يكن لـه أي داع على الاطلاق في ذلك الزمن .

يقود التدجين الى حدوث تغييرات عميقة لدى الشـخص لانـه يحـدث "الارتباكـات Stresse " العديدة اثناء العمل به من حيث حجز الحرية والمداخلات المفاجئة للرجـل. فمـن جهة الخروف المدجّن يصغر حجمه اثناء تربيته ويتكدس الدهن حول ذنبه الذي لا بد له مـن أن يختفي، يتكاثف شعره الذي يقص سنوياً فيستفاد منه نظراً لوفر كميته. ومـن التغيـيرات الاخرى، هي التي تتعلق بالهيكل العظمي وبالقرون التي تختفي او التي تتشعب حيث تتيـح لعالم الآثار للحيوان تحديد الزمن او النوع . المدجّن عند التقاطه للرسوم والعلامات التي تؤكد ذلك .

فقد سمحت التحريات الاخيرة عرض التطورات المرافقة للتدجين، تحققت في خمسـة انواع من الحيوانات الدجنة في الشرق الادنى وهي: الكلب _ الخروف _ الخنزير_ المـاعز والبقر .

فقد تحقق اشتراك الكلب في الصيد واعتبر الذئب صياد لان تصرفاتـه قريبـة مـن تصرفات الرجل في الصيد .

اما الخنزير ظهر في اوربا وآسية منذ العصر الحجري الاعلى، وفي الشـرق ظـهر لاول مرة نحو عام (٦٧٥٠) في "جارمو" بكردستان، أي بعد مرور عدة الاف من الاعوام .

بالنسبة للخروف حسب مجموعة (س. بوكوني S..Bokonyi) ظهر خـلال الالـف التاسعة في "زاوي شمي شانيدار" في الشمال الشرقي من العراق، وبالنسبة للتدجين يعود الى "علي كوش" في ايران من الغرب في اوائل الالف الثامنـة. امـا بالنسـبة للآخـر حسـب "ب. دوكس" فان التدجين لديهم لم يتحقق الا خلال النصف الاول من الالف السابعة في "ابـي

هريرة وجارمو"، ان مصدر الخروف هو الاناضول ومن هناك انتشر الى اليونان وسورية وفلسطين و بلاد ما بين النهرين .

ودجنت الماعز في نفس العصر في "ابي هريرة" ، اما في فلسطين فالامر لا يتعدى زمن الرعي .

كانت الابقار هي الاخيرة في التواجد، ففي الالف الثامنة لم يكن لها أي وجود في (المربيط Protoelevage) غير انها شوهدت في اليونان في الالف السادسة، وفي الشرق الادنى في الالف الخامسة .

وهكذا قبل حلول الالف الثامنة، وفيما عدا الكلب والخنزير في اوربا، لم يعثر على أثر التدجين. وفي الالف الثامنة عرف الشرق الادنى تربية "Protoelevage" الخروف والماعز والبقر، وفي الالف السابعة تربية " Protoelevage " للخروف والماعز فقط بطريقة التدجين، الذي انتشر الاخذ به عبر الشرق الادنى، كما ظهر الخنزير في تركيا وايران والشمال الشرقي من العراق وفي جارمو، - وفي الالف السادسة لم يحدث أي جديد، وفي الالف الخامسة جاء البقر ليكمل السلسلة للانواع التي نجدها الان في كل مكان .

فقد ترسخ طراز جديد من العلاقات بين الرجل والحيوان خلال هذه الحقبة .

صعوبة تحديد الاسباب

ان شرح النتائج والملاحظات المستخلصة من التنقيبات تساعد على رؤية نقاط ومواقف التغيير، ولكن الآراء الصائبة والعميقة تحتاج الى الوضوح، وعندما نتحدث عن الزراعة وتربية الحيوان، ومن جهة أخرى لا يمكن عرض ماهية الاسباب بنفس الاسلوب عندما نتحدث عن الزراعة والتربية. وفي الحالتين هنا لا بد من توفر المستوى الحقيقي من المعرفة والادراك للمسائل المطروحة. غير انه في بعض المعايير، تبقى السيرورة التي تقود من مهنة الصيد البسيط الى التربية عن طريق الصيد الانتقائي عصلاً داخلياً، شريطة ان لا ينفذ ضمن أي مفهوم. لان السهوب المتسمة في آسيا الوسطى لا تشجع على الانفتاح بالتربية، كما ان المناطق في سفوح الجبال التي تصل السهل بالجبل تبدو مناسبة بالمقابل. ويصعب حصر التطور الذي باساليبه المتدرجة تمارس مهنة الزراعة ، لانه يمر بحالات

محلية خاصة تتمثل بامتداد الرقعة الزراعية وبالمناخ وطبيعة الارض التي ليست واحدة في كل مكان

كان "ر. بريدوو" المتواجد منذ بدء التنقيبات في الشرق الادنى، يرى في ظهور مهنة التربية والزراعة كنتيجة للنضوج الاجتماعي والثقافي في الوسط " Zonenueleaue"المناسب جداً لبعض انواع النبات والحيوانات. ومع ذلك ظهر مباشرة شرح آخر، سبق عرضه بالاستناد الى الضغط والكثافة السكانية في الوسط مثل: "بوسيروب" او باطرافها مثل:(بنفورد Boserup – Binford) حيث اضطر فيها سكان هذه البلاد الى التفتيش عن حل للاجابة على هذا الموضوع غير المنتظر. اما "م . س. حوج – كوفان" اللذان عارضا هذا الطرح بالعبارة التالية:

١-لا يمكن ارجاع موضوع بمثل هذا الاتساع الى سبب واحد .

٢- ان المعطيات المناخية لعبت دوراً مشرقاً، لانه بواسطة المناخ الحار والرطب نسبياً، ولدّت ركيزة للتطور الاساسية: في الاولى: نحو الالف العاشرة أي عند تأسيس قرى "ناتوفيان " الاولى. وفي الثانية: بين عام (٨٠٠٠ – و – ٧٧٠٠) مع اول امارات بدء الزراعة في مريبط .

٣- واذا الححنا في طلب الايضاح حول متممات هذا الموضوع، يشار بسهولة إلى القوة المندفعة والمتضامنة في القرية، لانها هي التي تقوم بالتنظيم المتطور والتي تفرض شروط انطلاقتها، حيث إن معطيات اجتماعية جديدة ساعدت على اكتشافات عظيمة في الزراعة والتربية خلال الالف الثامنة. وهنا لا بد من توفير التفسيرات الفنية بشكل خاص، وصبها بقالب شامل ومفيد حول جميع تلك الظواهر. وقد بقي لولوج هذا التطور فهم المبادئ وايضا الفكرة المستخلصة من طول مدة خزن الحبوب، ولذلك فقد توصلوا الى وجوب تغيير صفة المادة لأجل تفسير استهلاك الخبز الا وهو الطحين للحبوب، ويجب ان لا ننسى ان اكتشاف ادوات الطحن هي التي جلبت انظار علماء الآثار حول كيفية استخدام الحبوب وطحنها لتحويلها الى الخبز، وهذا يعني ان لاستهلاك الحبوب طرقاً مختلفة .



صورة إناء من الرخام الشفاف في (أوروك – Uruk) يبين أهمية الزراعة وتربية الحيوان في المجتمع السومري في اول زمن السكن والتحضر في المدن الذي قلل من أهمية هذه الفعاليات راجع ص (نحو اللف الثالثة – بغداد).



سلسلة لختم اسطواني يعود لعصر (أوروك) يرمز إلى العلاقة الخاصة التي تربط الرجل (يمكن أن يكون هنا ملكاً أو كاهناً) والحيوانات الداجنة قطيع الآلهة "اينانا" هي التي تقدم الغذاء (نحو الألف الثالثة).

النتائج الرئيسية

كل عمل له اسبابه، لذلك من الصعب وضع علامة الاستفهام على أي من نتائج هـــذه الاكتشافات دون معرفة الاسباب .

منذ البدء، ان الظاهرة الاساسية التي كانت بالحقيقة، عاملاً حسيا للمزارع، هي الرغبة المستمرة في تقديم الفائدة الممكنة، ولو كانت محدودة بحيث يكون السبب وتقابله نتيجة، امـــا السبب فهو تأمين مذخر احتياط عن طريق حصاد غلة الحبوب، وهذا بدوره يؤدي الى امكانية حفظ المواد الغذائية لمدة اسابيع بل شهر وعدم استهلاكها الا عند عدم توفر مـــواد اخـــرى، ونجد نفس الفكرة في موضوع تدجين الحيوانات، حيث يصبح بالامكان ذبحه عنــــد حاجـــة الانسان إلى لحمه للغذاء. هذه الخاصة التي تتناول الجاهزية المســـتمرة للمـــوارد الغذائيـــة، أحدثت تغييراً كبيراً في الحالة اليومية للرجل وفي تفكيره. لقد تيسر في المـــاضي امكانيـــة الادخار للمواد الغذائية، (مثل اللحم الجاف) لفترة محدودة، ولكن بواسطة الوســـائل الجديـــدة امكن ادخار كمية كبيرة حققت الاطمئنان وراحة الفكر رغم زيادة وأهمية العمل وبذل الجهد. لان استكمال تأمين الغذاء المذّخر يسمح بتنظيم معيشة المزارع لمدة سنة كاملة حتى الحصاد اللاحق، فتُكرّر العملية من جديد وهكذا .

لقد رتبت هذه الصلة بين الرجل ومواده الغذائية، سلسلة من المتطلبات، ولو ان البعض منها سهلة الاجراء يمكن انجازها بالتفكير السليم وتطبيق ملاحظات عالم الآثار المختص الذي يسجل تطورها بشكل طبيعي، مما يعطي المجال لشرح النتيجة النهائيـــة حـــول المجتمعـــات المتحضرة. وبالفعل، يُمكّن الاحتياط المذخر من تامين مستقبل الغد ويقلّل المجاعة او الحرمان في الجماعة. وهكذا تجمعت الشروط المناسبة للنمو الديموغرافي الـــذي، علـــى المســـتوى التسلسل التاريخي، لا يتحقق الا ببطء غير محدد المدة، وشديد الوطأة، بالقياس مـــع تطـــور الزمن السائد قبل التاريخ. فقد توضحت وقائع تحمل نتائج مضنية تمثّلـــت بضـــرورة خلـــق مذخرات غذائية احتياطية بكميات مرتفعة تزيد عن حاجة المنتجين لمدد طويلة، لا بـــد فـــي سبيل تحقيقها من تكليف بعض الاعضاء للقيام بها. لذلك، وفي سبيل الفائدة الجماعية، انطلقت

فئة التقنيين للقيام بجملة من الفعاليات الشاملة وليس فقط للمنتجات الغذائية، مستندة على مخططها "Creneau" العام .

ولّدت تقنيات الانتاج الحديثة نوعين من نماذج (خصائص الوجود المستمر) في الشرق الادنى منذ اقدم العصور وحتى أيامنا هذه الا وهي: (الترحال والرعوية – والحياة المتحضرة المستقرة) – وقد لوحظ كما، مرّ سابقا، ان التحضّر هو البادئ في منطقة " Zone nucleaire " وله الفضل في ظهور مهنة الزراعة وتربية الحيوان اللذان كان لهما اشد التأثير على تكوين هاتين الفئتين المتعارضتين "Antagniste" والمتممتين لبعضهما خلال كامل تاريخ الشرق. ومع كل ذلك، لم تزل ظروف الولادة غير واضحة تماماً. لان اعمال التحريات الاثارية حول الالف الثامن دعت الى النظر والتبصر في صحة وجود حياة الرحل البدائية ذات الصلة مع مرحلة "ما قبل التربية Protoelevage" في سهل سفوح جبال زاغروس. بعد ان تبين بان التربية والزراعة كانتا من اعمال السكان الحضر والقرويين. وبأنه ايضاً في اوائل الالف السادسة ظهر وجود حياة ترحالية رعوية، تشرف عليها مراكز سكنية متحضرة وبشكل محدود وخالية من أي نقش او زخرفة وعلى مسافة قريبة من القرى السكنية المبنية، ما لبثت مع طول الزمن، ان تنامت وتممت في المحيط وقدّرت أهميتها للحياة ولتاريخ بلاد ما بين النهرين، ولكن لا بد من وجود تحفظ على الشيء النموذجي او الاساسي مثل الترحال خلال فصل من السنة (الفصلي) الذي يحقق بدأ من القرية حتى التجمعات السكنية الاعلى، موارد مختلفة ومتكاملة بفضل ازدواجية المناخ وفي مثل تلك الحالات تتم التربية عن طريق السكان الحضر ولكن بمستوى ومردود أقل، ويمكن ان يطلق عليهم اسم (المزارعون – المربيّون الصغار)

كان لممارسة الرحل من كبار المربين نتائج كبيرة ومضنية، ومع ذلك فهي طبيعية، لان ترحالهم مستمر لا يتوقف لكونه محور ونقطة مبادلات (موجهة Vecteur) فهم الذين ساهموا وسهلوا بخلق سياسة الاقتصاد التبادلي (المقايضة) الذي اصبح قاعدة اساسية في حضارة بلاد ما بين النهرين والذي فيما بعد محصلة لتقنية الانتاج الحديثة التي وجدت سبيلاً لتصريف ومقايضة مخزونها الفائض.

والذي يثير الدهشة في هذا المضمار، هو انه في الشرق الادنى تتحقق جميع تلك الخاصيات خلال زمن قصير جداً. ومع ان بعض ومراكز التربية مارست تقنيات مختلفة

ولكنها لم تمتلك اية مبادلة بمثل هذه الاصالة والسرعة والشمول في طريقة الحياة المعاشـــية. وعلى غرار بلاد ما بين النهرين لم ينفرد أي محيط التوصل الى ما وصلت اليه هذه البـــلاد بأن تجتاز وتنتقل بأقل من خمسة آلاف عام من الخلية العائلية الى تنظيم اجتماعي مؤلف من عدة آلاف فرد.

الزراعة والتربية الحيوانية في بلاد ما بين النهرين خلال العصر التاريخي

لقد مر فيما سبق، كيف انفردت سهول الدلتا وما حول الانهار في بلاد بلاد مـــا بيـــن النهرين بالزراعة، على اثر السيطرة الناجحة على اراضي الانهار بفعل التقنيات ذات الخبرة في الهلال الخصيب، فان ادخال تقنية الري في بعض المناطق و"التجفيف Drainage" (راجـــع الفصل اللاحق) قلب رأساً على عقب، كافة الحوض النهريني وحوله الى اداة انتاج بطـــراز جديد لان السعة الواسعة للمساحات المحتلة ادخلت حجماً واتساعا كبيرين وجديدين في التقنية الزراعية الفنية، حيث لم تحقق لأول مرة في تاريخ البشرية اقتصادا ناجحا بمثل هذا الاتساع وهذه الامكانيات بشرط التقيد التام بتنفيذ سياسة تنموية فعالة، وبخاصة منها، الاهتمام بمجاري المياه التي استوجبت النداء المستمر لبذل الجهد وتحقيق النمو للاستفادة من طرق المقايضـــة من تصريف الفائض من الامواد الاولية التي لا غنى عنها مثل: (الخشب والحجر والمعـــادن) منذ الالف الثالثة وخاصة وعندما لا تستطع البلد تكوين أي (محرض Stimulant) من المرتبة الاولى .

استمر انتشار شهرة الغنى الزراعي في بلاد ما بين النهرين طول مدة القدم في التأريخ واعتبرتها الملكة "هيرودوتا" البلد الأفضل في انتاج الحبوب، وهذه الحقيقة لم تكن واضحـــة فعلا، ولكن ما يؤكد ذلك هو كيف ان اليونان، البلاد المحدودة الاراضـــي، صُعقـــوا عندمـــا حرموا من أراضي الحبوب في بلاد ما بين النهرين .

المصادر الموثقة

تُعلمنا النصوص والمعطيات الآثارية الاخرى عن الفعاليات الزراعية في العصور التاريخية، بأن أغنى معلومة اتت من الرسائل والكتب وتقارير العاملين الذين يعلمون القصر أو المعبد عن نتيجة المهام التي كلفوا بها او عن الصعوبات التي صادفتهم خلال تنفيذ مهامهم او جهودهم الفعالة والمبذولة لحياة المستقبل. يضاف الى ذلك، عقود الايجار او المزارعة والحالات الاخرى الواردة في القانون والتي يمارس بمثلها الآلاف في الحياة العادية. وباستثناء بعض النصوص الادبية لا نملك أية مجموعات من اللوحات عن حياة الريف والحقل، والمعلومات التي بحوزتنا تعود الى الألوف من الاخبار المتفرقة التي عثر عليها. ويمكن استخدام المعاجم القديمة حيث جُمع فيها حسب التسلسل المنطقي جميع العبارات التي تدل على النباتات – الاشجار – والحيوانات البرية المتوحشة والداجنة .

ومن التنقيبات الآثارية امكن التوصل الى بعض المعطيات على شكل اجزاء مثل بعض التحاليل المجراة على غبار الطلع تعود الى العصور التاريخية وعلى بقايا النباتات الكثيرة، وعلى القليل جداً من بقايا العظام، وفي كل تنقيب اوتحرّ جديد كان الهدف ينصب على شكل تنظيم الهيئة في المنطقة، وعلى طراز السكن او التمركز في الاراضي، بغية استخلاص المعلومات الصحيحة عن تنظيم الفعاليات الزراعية .

يبقى أخيراً موضوع السلالة ومدى التلقي، فهذا يعود الى النظر بالتقنيات الحالية للزراعة وتربية الحيوان التقليدية، التي قد تحتوي على مصادر انعكاسية تسهل فهم الممارسات او الوقائع القديمة، على اعتبار ان التقنيات التقليدية يصعب تطورها إذا لم يطرأ أي تغيير على أية وظيفة من وظائفها .

تعليمات عامل إلى ولده

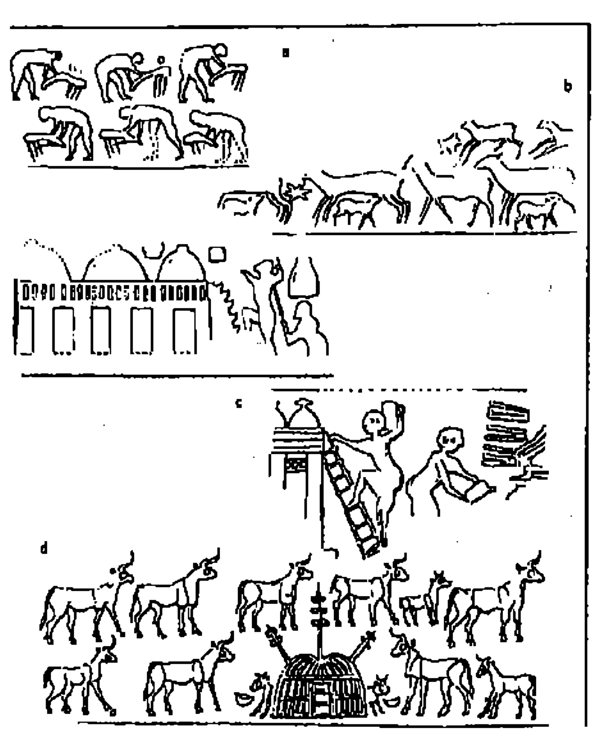
في زمن غابر وجه عامل نصائحه إلى ولده بما يلي:

عندما تجهز لزّراعة حقلك، عليك أن تهتم أولا بفتح أقنية السقاية بعدم تـرك المياه ترتفع إلى مستوى عال جداً في أرض الحقل. وعندما تفرغ الاقنية من المياه، احرص على أن

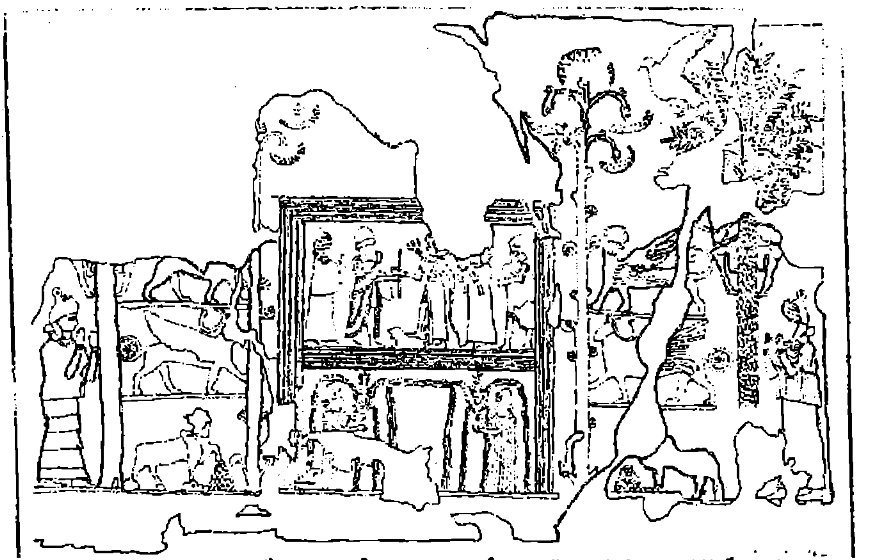
تكون أرض الحقل الرطبة مسطحة، ولا تدع أي رأس بقر تائه يطأ فيها. ا
واعتبر كامل الحقل ارضا متماسكة محرمة. استصلح أرض الحقل بواسطة
لا يزن الواحد أكثر من ثلثي الليبرة. يجب أن تقلع بقايا الحصيد باليد، وتر
رزمات أما الفراغات الناتجة بسبب القلع يجب أن تملأ بواسطة المشط. يـ
من الأربع جهات. في الصيف عندما يصبح الحقل تحت وطأة الشمس الـ
إلى أربعة أجزاء متساوية.

عليك أن تدع الآلات تدندن بقوة وفاعلية – ورتاج النير يجب أن يـ
يجب أن يكون سوطك جاهزاً ومعلقاً على مساميز. اما المقبض القديم يجب
تعطله لدى اولاد العمال.

(ن. س كرامر: راجع: التاريخ يبتدئ في سومر (ارنو ص ١٠٤ -



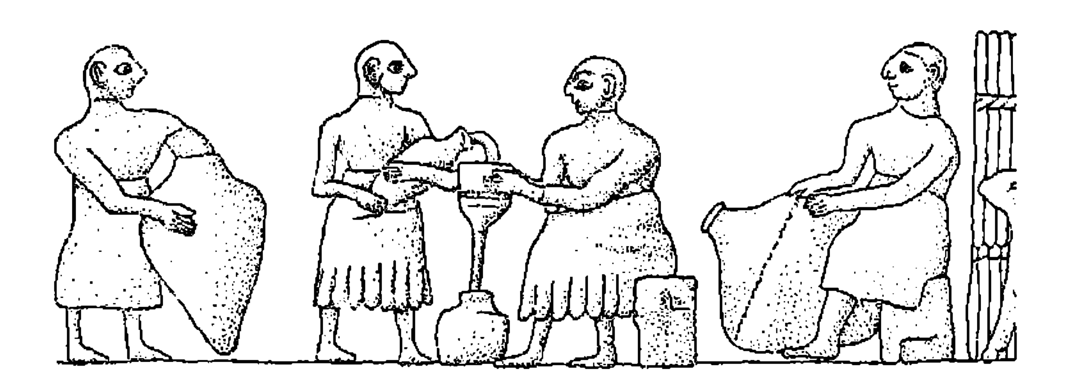
مشاهد لحياة زراعية منقوشة على لويحات اسطوانية في سوز



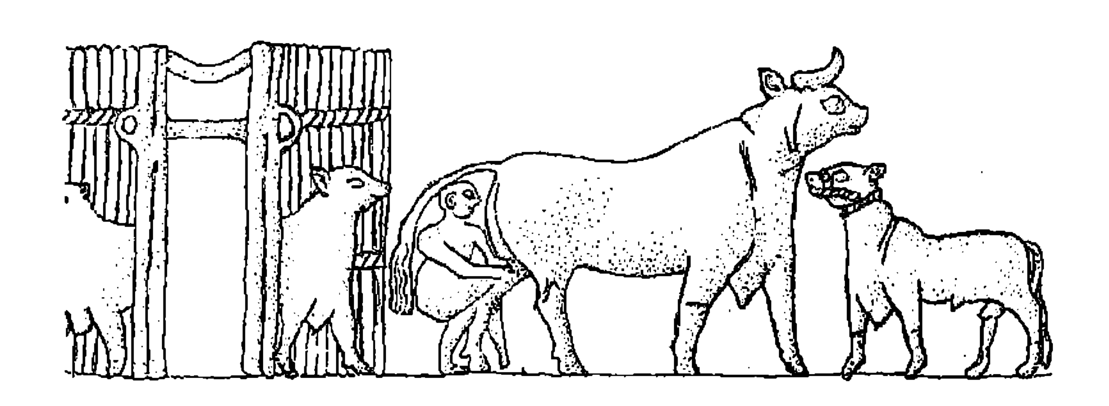
صورة تقليدية للقصر الملكي الكبير في ماري. وفي اللوحة من اليمين تمثل شجرة النخيل حاملة للتمر مع محاولة من قبل شخصين لقطف ثمارها. وفي المشهد الوسط فيه يمتثل الملك أما الإلهه (عشتار). وفي الأسفل صور مسجله لإلهة توزع هيات المياه. (نهاية القرن ١٩ - وأوائل القرن ١٨ق.م (متحف اللوفر).



صف من النخيل حول بستان محاط بحائط بسور



طنف لمجمع الحليب والألبان في (معبد العبيد) مع مشهد لطريقة الحلب على اليمين - وعلى طريقة استخراج السمن على اليسار، على جانبي الاسطبل، (النصف الأول من الألف الثالثة - بغداد.



الارض والمساحة

تعلمنا متون الحياة اليومية في مصراع هذا الفصل، انه اذا أُفلت قسم من الارض من أي اجراء عقدي، يتعذر بنتيجة ذلك معرفة وضعها .

ومع ذلك تبين خلال تاريخ بلاد ما بين النهرين، انه كان جزءٌ مهمٌ من الاراضي محوزٌ بين ايدي القصر والمعبد أو بيد الاقطاعيين الكبار الذين كانوا يؤجرونها الى الخاصة. لذلك فان مثل هذه الممارسات، بالاضافة الى متطلبات دفع المكوس والضرائب، أوجبت الحاجة والضرورة لتحديد الحقول والملكيات الاخرى، لهذه الغاية وُجد الكُتّاب الذين كانوا يقومون بتحديد هذه الحقول بغاية فرض الضريبة وتسلّم الارض. باستثناء القرية التي تعود الى عصر الاسرة الثالثة "لأور" (راجع فصل القرية) حيث كان يتوفر بشأنها الوثائق التي تصف وضع الاراضي سواء على مستوى القرية أو الاراضي الواسعة خارجها، لان مساحيّ الاراضي يقومون باجراء المقاييس وتحديد الحصص فيها وتقدير الغلة .

لقد تركزت وحدات الاستثمار حسب التقاليد والعادة، على "البور– Bur" الذي يساوي تقريباً "٦ ش ١ Hia" وكان يتم تمييز تلك الوحدات إمّا بمرتفع من التراب حولها، امّا بالاقنية او بالنصب. ويقاس ثمن الاملاك المسلمة "بالبور Bur" او بالعديد من امثاله. أو بالمقايضة باملاك أخرى اذا وجدت، وتأتي فائدة – البور – ايضا كوحدة فعلية للتعويض عن بعض أنوع من الخدمات .

الزراعات الواسعة في السهل وأعمال الحقول

تتضمن الزراعات الواسعة في قلب بلاد ما بين النهرين ، الحبوب بالدرجة الاولى مثل: (القمح – الشعير – الحنطة الرومية وأنواع اخرى). اما السمسم الذي دخلت زراعته فيما بعد، يُستهلك بحسب طبيعته، ولكنه ينتج الزيت عندما يُسحق، واخيرا شجرة النخيل "التمر"، انها تحتل حيزاً مهما في اقتصاد البلاد .

في بلاد ما بين النهرين، تكون ارض الطمي والغرين جافة جدا بسبب حرارة الشمس، وعدم الاستعمال، لذلك يرتكز الجهد الاول على تنعيم الارض، وبعد قليل، تأتي غلة الربيع

وبعدها يباشر بحراثة الارض بالقدر الكافي من العمق وكسر قشرة سطح الارض بواسطة الحرث (المحراث) الذي يجره بقر الحراثة. ومن ورائه المشط المسنن الذي يمهد التلعات ويعيدها مستوية، وفيما بعد، تتم السقاية بالمياه مرة او أكثر وتترك الارض للراحة حتى الخريف. وهو الزمن الذي يمارس فيه زراعة الارض حيث تحفر الخطوط (الاثلام) بفاصل بعض السنتميترات بين الواحد والاخر، بعد وضع البذار وفي اسفلها وفي النهاية يغطى التلم .

يمكن انجاز المرحلة الاولى (بالمّر) الذي يعتبر مادة اساسية في الزراعة وخاصة للفقراء جداً. وفي القديم ايضاً، كان يستخدم المحراث بعد تجهيزه بالبذار الذي كان يسقط الحبة بالتتابع في اسفل التلم المحدث مباشرة بواسطة المحراث الذي يجره البقر. اما نمو الحبوب المزروعة يتوقف على كمية الامطار النازلة على الارض خلال الشتاء والمتمّمة بمياه الري، وفي بعض المرات، اذا شعر المزارع في بدء نمو المحصول، انّ المزروع مكتظا وكثيفا يلجأ الى تفريده بقلع قسم منه. ليمنح الباقي وهو الكثير، قوة النمو وفاعليته. وفي آخر فصل الربيع يتم القطاف (شهر آذار او نيسان)، ويعتري المزارعين الخوف دوما، مع طول نهري الدجلة والفرات، من فيضان النهر الذي فاض مبكّراً أو زادت مياهه وتعذر تحجيمه فيما بين السدود، يوشك أن يدمر الغلة والحصاد، لذلك كان يجب انهاء الحصاد قبل تدفق الموجة التي تدخل الاراضي السورية في نهاية شهر نيسان او خلال ايار. فقد كانت الجذور تقطع بالمناجل التي منذ العصر الحجري "النيوليتي" كانت تصنع من شفرات السيلكس المثبّتة بواسطة الغار بنصاب خشبي ذات شكل معكوف وفي عصر"اوبيد" استخدمت المناجل بكثرة، غير أنها كانت مصنوعة من الطين الترابي المشوي، حيث لم يظهر المعدن إلا في الالف الثالثة، وكان في بادئ الامر "البرونز" ثم "الحديد" في الالف الاولى. وعندما يتم قطع السنابل، تجمع في بيدر الدراسة التي تتم فيه بواسطة ضرب العصي او بمرور المدرج المسحوب من قبل حيوانات. وبذلك تتم العملية بالتذرية بواسطة الهواء.

وتختلف كثيراً زراعة أشجار التمر كونهاتعود الى غرس الشجرة في بستان النخيل الذي كان يطلق عليه لدى القدماء، اسم "البستان" والذي كان تحت رعاية البستاني. ولا غرو، فإن خلق بستاناً للنخيل يتطلب عملاً لسنين عديدة. ففي حقل مساحته"بورا" واحدا يمكن ان يغرس فيه (الف) بسيلة يأتي ثمرها بعد مرور (٤ – ٥ سنوات) لذلك فالمحصول الجيد لن يأتي قبل (١٠ – ١٥ سنة). يسوّر البستان بحائط علوه متران، لحمايته من الرياح

والرمل والرجال وكان يحفر فيه شبكة من السواقي لايصال المياه الى كل غرسة. وهكذا خلال (٤ – ٥ سنوات) لا بد من السقاية وتنعيم الارض حيث يبلغ ارتفاع الغرسة (١،٥٠م) فتعطي بواكير ثمارها.

ان تدرج الانتاج في شجرة التمر كانت معروفة جيدا لدى سكان بلاد ما بين النهرين، يتم اخصابها بشكل طبيعي بواسطة الهواء الذي يؤمن نقل العناصر المخصبة في الزهرة الذكر على سفح من الازهار المؤنثة. اما الجانب الاتفاقي في العملية يرتكز على أن سكان بلاد ما بين النهرين في سبيل اللقاح يلجأون، بشكل فني، الى فرك الازهار الانثوية بالعناقيد او السنيبلات الذكرية، وهذا العمل كان يتم في الفترة الواقعة بين شهري كانون الثاني وآذار.ولا يتم عشوائياً، بل لا بد من تحديد الوقت المناسب من قبل الاخصائيين بعد تضحية بجزء من الغلة التي تنضج عادة خلال شهر تشرين اول من العام، ولكن اذا اريد الحصول على مردود افضل، يلجأ احيانا إلى القطاف المبكر للثمار المبكرة الاولى حيث يعمل على انضاجها على مسطح من الخشب. ومن ثم، فان الشجرة التي تخلصت من بواكيرها يمكنها الوصول باثمارها الباقية الى حالة النضوج الطبيعي، فتستطيع شجرة التمر مثلا، ان تنتج سنويا (٣٠٠) ليترا من التمر. كما ان مثل هذا الاجراء يحقق فائدة اكبر .

اما بالنسبة لسكان بلاد ما بين النهرين، فان شجرة النخيل هي "ملكة الاشجار" كما هي المسيطرة في الحقل الزراعي. لانه بمجهوداتهم وبمبادراتهم وعناياتهم اوصلوا منتوج هذه الشجرة الى اعلى مستوى. غير انه على الصعيد الاقتصادي، اذا ما قورنت هذه الفائدة مع ما يُجتنى من زراعتها، نجد بالمقابل، ان خشبها الكثير الالياف لا يحقق الفائدة المرجوة في البناء أو في صناعة الاشياء ومع ذلك، يمكن ان يصنع منها الكثير من انواع الانسجة والحبال بواسطة أليافها، ويستخرج ايضا من ثمارها حسب (سترابون Strabon) (الخبز – والنبيذ – والخل – والعسل – والطحين بانواع مختلفة) اما بذور الاثمار يحتفظ بها للوقود او تكسر كغذاء للحيوانات .

البساتين والزراعات الاخرى

بجانب الزراعات الواسعة، (للحبوب – للخضراوات الجافة – للتمور – للسمسم) التي تشكل حيزا رئيسيا في الاستثمار، كان لا بد من الاحتفاظ بقطاع صغير لزراعة البقول والخضار الطازجة والنباتات العطرية، ولكن كان ينشأ مثل هذا البستان الذي كان يحوي العديد من حقول هذه النباتات، اذا توفرت مياه الري والسقاية بجانبها، لانه في حال نقص مستوى صرف المياه عن مستوى الصرف في الحقول الاخرى لا بد من تأمينه من مصادر اخرى بشكل نظامي ومستمر. لذلك كان المنشئ ينتقي موقع البستان بقرب مجرى المياه واذا تعذّر ذلك، كان يجهزه ببئر مياه مستقل. كما كان يستغل الفراغ الموجود بين الاشجار للزراعات الخفيفة مثل (الخيار وما شابهه – القرعيات – البصل والثوم – الفاصولياء – الفول – الحمص) اللاّزمة للاستهلاك المنزلي.

كما كانوا يبيعون الفائض في المدينة، وينطبق ذلك ايضا على على الثمار المزروعة بين اشجار التمر مثل : (التين – التفاح – الرمان) التي اضيف اليها منذ الالف الثالثة : (الاجاص – السفرجل – الخوخ – الدراقين – المشمش الذي تواجد في العصر الآشوري) .

في محيط حوض بلاد ما بين النهرين

كما يمكن استثمار بعض الزراعات مع طول محيط هذا الحوض، أي في القطاعات الجبلية الاعلى ارتفاعاً، وفي المناطق الغربية، وحسب اختلاف طبيعة الاراضي واختلاف المناخ والارتفاع كان الجوز يصدّر ويباع من المناطق الجبلية .

وفي اغلب الاحيان، حاول هؤلاء السكان تأقلم بعض الاغراس في الاراضي السهلية بعيداً عن موقعها الاصلي، كما كان الحال في الكرمة التي كانت تزرع بشكل طبيعي في بلاد الشرق، وخاصة في سورية، التي اكتسبت شهرة كبيرة في وفرة انتاجها، لذلك وجدت "آشور" البعض من اراضيها موافقة وضمن العوامل المناسبة لزراعة الكرمة، تتوفر فيها عناصر البستنة وخاصة الكرمة التي تشتهر عظمتها بوفرة النقوش والزخارف بصور ولائم النبيذ فيها. بخلاف للسهل السومري الذي لم تنجح فيه مثل تلك الزراعة، رغم تفاخر "غوديا"

بنجاحها في تبلّد هذه الزراعة، التي ثبت بانها كانت استثنائية لم تدم طويلاً. غير ان المناطق الغربية كانت صالحة لزراعة اشجار الزيتون، والمعروف ان (سيناشـــيريب Sennacherib) حاول، عبثا ودون نجاح، ادخالها الى جنوب بلاد ما بين النهرين .

كانت جميع تلك المحاولات تترجم الرغبة الصادقة في زراعة الحـــاصلات الغذائيـة المستوردة عادة لتبليدها وتأقلمها أو لاستخدامها لعدم وجود البديل، مثل الحاجات الصيدلانيـة او غيرها من المنتجات الفاخرة. ومع ذلك، كان هناك بعض التجارب التي تَتَوّجتْ بالنجـــاح مثل ادخال زراعة القطن في العصر الآشوري بهدف ترقيتها والوصول بها الـــى المســتوى الاقتصادي المناسب. ان جميع تلك التجارب والمحاولات كانت تبرز حقيقة الجـــهود الثابتـة والمستمرة التي قام بها سكان البلاد في سبيل تطوير وازدهار بلادهم، حتـــى فـــي الغايــات العلمية منها .

اهمية الانتاج

بطبيعة الحال، لا نزال نجهل حجم الانتاج السنوي لمجموع بلاد ما بين النهرين سواء كان لفترة محددة واضحة، او لمجمل تاريخها حيث يصعب تكوين او استنباط اية فكرة جليّـة حول هذا الموضوع. ومع ذلك، بعض المصادر التي تصف نفسها بالدقة وحســـن التنظيـم، تضفي على هذا الانتاج طابع الاهمية .

لقد افادتنا بعض الوثائق الاثارية الادراية بأنه كان يبذر (٥٠٠) ليترا لاستثمار مساحة من الارض تساوي "بورا" واحدا أي (٦ هكتار) على امل الحصول على غلة قد تتراوح بيـن (٦ – ٩٠٠٠ ليترا من الحبوب)، حتى ان الايراد الذي يصل بين (١٠ – ١٥) ليترا لا يعـد ايرادا استثنائيا، وبذلك يمكن الجزم بأن شهرة الغنى في بلاد ما بين النهرين ناتجة من ســعة المساحات المزروعة بالحنطة وليس من نسبة الغلال. وعلينا ان لا نستغرب هذا الملخص اذا تذكرنا ان بلاد ما بين النهرين كانت تتمتع بمساحات واسعة جدا مكرسة للزراعة، وبان النتاج الحاصل كان باغلبيته مخصصا لتغذية الانسان، وايضا لاطعام الحيوانات وما يفيض عن ذلك للتجارة .

ونفيد بما يلي عن تقرير لمسئول رفعه لملكه، يبين فيه نتائج غلة بعض الحقول في مقاطعة صغيرة ضمن الولاية: وهي ان ستة حقول مجهولة المساحة انتجت (٤٠٨٤- هيكتو-ل) من الحبوب أي ما يساوي (٣،٤٠) .

وان وكيل اعمال الملك "حمورابي" استوجب عليه كمية (٥٤٠٠ - هيكتو-ل) من السمسم وبعض المبالغ النقدية من الفضة، كغلة سنوية من الحقول التي استأجرها من الملك .

كما اصدر الملك "شمشي - حدد" ذات مرة، امرا بتسليم (٣٠٠٠ ل) من السمسم لتأمين قصر "قاطونان" بالزيت الذي كان مركزا اداريا ثانويا لمنطقة "وادي الخابور"، اما بالنسبة لقصر "ماري" كان تقدير الاستهلاك اليومي من زيت السمسم يتروح بين (١٠ - ٣٠ ل). واخيرا في عصر حمورابي كان اثنان من الجباة يقدران المحصول الواجب تسليمه للملك من قبل متعهد مركز الولاية لزراعة النخيل، بكمية (٨٠٠ ١٠ -هل) من التمر.

وهكذا يبدو لنا جليا، بان الانتاج الزراعي كان يتميز بالفاعلية الاقتصادية الاولى في بلاد ما بين النهرين رغم نقص المعطيات المتوفرة لدينا والتي حالت دون امكانية تقدير الحجم الكامل لهذه المنتجات مما تعذر التقدير الفعلي لموارد السكان حينذاك .

التربية الغذائية بطابعها التقليدي

تشكل الاجناس الخمسة الحيوانية المدّجنة ، دوما واثناء العصر النيوليتيكي (الحجري الاخير) الصنف الاساسي في البلاد الذي سبق لسكان النهرين ان استخدموه، ومع ذلك، قدمت اجناس اخرى لتضاف اليها .

ولكن منذ البدء، حصل تطورا كبيراً على الوضع، فاتخذت تربية الحيوان اشكالاً مختلفة بحسب المجموعات الاثنية او الاجتماعية التي تسودها. فقد اتجهت القبائل الرحل بصورة رئيسية، نحو تربية الحيوانات الصغرى التي بفضل ذلك، تمكنوا من الحصول على المحاصيل الغذائية اللازمة والضرورية لحاجاتهم اليومية، عن طريق التبادل. فكانوا، بلا شك، يجوبون الصحارى والمناطق السهوبية، مثل الصحراء السورية، ولكن كانوا يركزون تنقلاتهم باستمرار على مقربة من ينابيع المياه أو الابار لاسقاء قطعانهم .

اما السكان الحضر، كانت تسود غالباً، لديهم التربية القليلة المصغرة للدواجن. التـي تؤمن للخلية العائلية بعض الكميات القليلة من الحليب – ومن الصوف – ونادرا من اللحـوم. وكان يضاف إلى ذلك، تربية الطيور في المحيط المجاور والمناسب، حيـث يتوفـر الغـذاء الرئيسي، ولكن بالنسبة لهؤلاء السكان لم تكن مثل هذه التربية كافية المردود .

انها القطعان الكبيرة التي كانت الاكثر فائدةً ومحصولاً من الناحية الاقتصادية. فكـانت طرق التربية تتناول بالافضلية، تربية الخروف الذي كان يكتفـي بـالمرعى البسـيط ذات الاعشاب الادنى صفة من التي ترعاها الابقار. ومع ذلك، كانت تتواجد بعض القطعان مـن الابقار بحراسة رعاة متخصصين، وهنا ايضا طريقة تربية أخرى تمارس في الاسطبل حيث تطعم فيه الحيوانات المراد تسمينها بالحبوب .

وفي الاغلب، كان كبار الملاكين هم المالكون لقطعان الابقار الكثيرة العدد، حيث كانوا يلجأون إلى تجميع البعض منها وتعيين رعاة متخصصين لها لقيادتها الى المراعي وحمايتـها من الوحوش الضارية ومن اللصوص. يعاونهم في ذلك بعض المساعدين مع الكلاب الداجنـة فكانت تقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة، وكانت اجورهم سنوية لضمان استقرار اعمالهم كمـا كانت اسفارهم طويلة ومتتابعة لانهم يتنقلون بالقطيع ضمن المراعي الطبيعية غالبا ما تقع في القطاعات الزراعية على حواف الوديان او السهوب، واحيانا كانوا يتواجدون بيـن الرحـل يتنافسون المراعي الخصبة. وبعد الحصاد كانوا يُدخلون قطعانهم الحقول لرعي بقايا الحصاد او اعشاب الحقل قبل زراعته .

تبين النصوص المتوفرة، التنوع الكبير، في سلالات الخرفان التي كان يطلق عليـها اسماء مـن الرجـال مثـل: (خـروف عمـوري – اكـادي – هنـائي) وايضـا اسـم (خروف الجبل) . وفيما يخص الاجناس الاولى، لا بد من الرجوع الى طرق التربية او الـى عملية التزاوج. اما بالنسبة للجنس الثاني قد يتعلق الامر بكونه عرقا نظيفا كان يعيـش فـي وسطٍ يختلف عن وسط السهول. اما الخروف الذي بقي الاكثر استمراراً في ذكره وتربيتـه هو : (المعروف بذنبه العريض) .

تتواجد الماعز في السهول، ولكن مجالها الطبيعي هو المناطق الجبلية ومناطق التلال، ولكنها في سبيل غذائها، لعبت دوراً مسيئا وسلبيا كما هو حالها في المتوسط، بسبب اتلافـها للغطاء النباتي للاشجار .

اما قطعان البقر فكانت تقسم الى فئتين كبيرتين: وهما الابقار العادية العامة والجاموس ذو القرن الطويل، الذي يرغب العيش مع طول الانهر ومجاري المياه وللاستحمام بها. وفي السهوب كان يعرف (الثور البري المتوحش) وهو بري غير مُدجّن كان عرضة للصيد.

وقد اضيف الى مجمل طرق هذه التربية، الذي يبدو مسار تطورها الطبيعي متوافقا مع ما بدء به في اول العصر الحجري الاخير، تربية الطور المُجتلبة من الهند. ولم يكن يعرف زمن استيرادها الحقيقي ولا مدى فائدتها في الحياة اليومية. اما الخنزير كان يشكل موردا مهما إلى حد ما، وكان يربى على شكل قطعان كل منها يحتوي على عدة من المئات، وعلى عدد قليل أو فردي لدى المستثمرين الزراعيين الصغار، وحتى ايضا في المدن رغم قذارتها .

الاجناس الجديدة المدجّنة

خلال العصر الحجري الاخير استخدم التدجين كبديل للصيد وضمن منظور محدد وهو الغذاء، ولم يتم استخدام القوى الحيوانية للنقل والحمل الا في العصور التاريخية او قبلها بقليل، وهذا يعني بحسب الوقوعات أي عندما اتسع مدى التبادلات الغذائية او التجارية واصبحت الضرورة تقتضي وجود وسيلة اكثر فاعلية لنقل حاجات الانسان. وفي الاجابات المتتابعة اللاحقة يلاحظ مدى تدرج التطور في كل موقف.

خلال الالف الخامسة كان الثور أليفا مدجّنا، ومنذ ذلك الزمن كان يستخدم كحيوان للجر، واصبح المفضل بعد ان ابطل عمله هكذا أو حلّ محل بعض اعمال الرجل، فقد رُوّض لجر القاطرات والطنابر وسكك الحرث، والمشط والنورج واي حمل آخر. وكان استخدامه في اعمال الحقل قد البسه طابع الاختصاص في مثل هذا العمل، لان ثور الفلاحة انفرد بهذه التسمية بعد ان كرس الرجال نصيبا من اوقاتهم لترويضه وبيعه فيما بعد تحت هذا الاسم. علما بأن قوة الثور تتيح له جر العربات الثقيلة الى حد ما، ولكن ليس لمسافات طويلة جدا بل محدودة ولنقليات خاصة .

كان الحمار هو حيوان النقل الذي كان يتم بغاية الجودة، في ارجاء الشرق، بعد أن دُجّن في نهاية العصر الحجري الاخير او بعده بقليل، فكان في زمن "الاوروك" يعتبر من

ضمن الكيان العائلي حسبما اظهرته اللوحات البيكتوغرافية الاولى. وسابقا قدره الاقدمون كثيرا واعترفوا له بالذكاء نسبة للحيوانات الاخرى، فلم يكن يصدر عنه أي عناد أو حماقات، فهو حيوان النقل المفضل حتى ان اسمه اطلق على حيوانات النقل التي استخدمت بعده بالتتابع مثل: الحصان وكان يلقب (بحيوان الخيل) والحمار الوحشي (بحيوان الصحراء) والبغل (بحيوان الامير) والجمل (بحيوان منطقة البحر). يعيش الحمار الوحشي في السهوب ويبقى عرضة للصيد النظامي خلال الالف السادسة في "امّ الدباغية شمال العراق، وعندما تم تدجينه استخدم لنقل الاحمال الخفيفة، وحتى البدء باستخدام الجمل، كان الحمار والبغل يؤمنان نقل المواد المنزلية او للتبادل الى مسافات طويلة، تؤكد ذلك النصوص التي تذكر القوافل المؤلفة من عدة مئات من الحمير .

وغالبا ما كان يوصف بالحمار الوحشي، ما يدل على بعض اجناس من فصائل الخيل خلال العصر السومري (راجع علم أور مثلا) ولكن على ما يبدو يتناول هذا الشكل الحمار البري في السهوب .

كان الحدث الاول الكبير خلال العصر التاريخي، هو ادخال الحصان في اعمال الخدمة نحو نهاية الالف الثالثة بدون شك، يشهد ذلك، لقبه حينذاك (حمار الجبال) فقد جلب من الجبال الشمالية والشمالية-الشرقية وايضا يُحتمل ان يكون من احد روافد التهجير "الهندي – الاوربي" غير انه من جهة اخرى، لم يفرض الحاجة اليه ولم يعمم استخدامه الفعلي الا في الالف الاولى فقد استخدم كحيوان لجر الاحمال الثقيلة مدة وجيزة، لان عملية الكدن كانت تسبب له الضغط على الوداج وتجبره على الاستمرار في رفع رأسه مما يقلل من مقدار ثقله وجهده في عملية الجر . لذلك كان اغلب استخدامه في الحرب كناقل للمحارب او في جر العربات كونها المهمة التي توسعت بدءً من منتصف الالف الثانية. ولعب دورا كبيرا في الاستعراضات والاحتفالات وكانت الملوك تحتضنه كحيوان يُفخر به وكان ينسب اليه نسب الشرف الذي لم يلقب به أي حيوان آخر. فيما عدا القاب الحمار التي سبق ذكرها. وفي اوائل الالف الثانية كان يوجد نوع من المنافسة في استخدام هذين الحيوانين اثناء الاحتفالات، لقد كان ملوك العموريين الممتدة سلطاتهم على جميع الممالك، يميلون الى انتقاء الحصان النشيط، اما التقليديون كانوا يكنون للحمار كل تقدير، ويمكن ان يلاحظ في هذا التناقض شكلا قد يكون متخلفا يعود الى الخاصية السومرية تجاه هؤلاء الساميون القادمون والممثلون بالعموريين.

وفي جميع الاحوال كان ثمن الحصان غاليا في اوائل الالف الثانية، حيث البعض منها كـــان يصل ثمنه الى مقدار خمسة كيلوات من الفضة كما ذكر عن الحصان ملك قطنا، وكان هـــذا يعادل ثمن (٥٠) اسيرا، وكانت تربيته تتطلب اعتناءً خاصاً، كما كانت بعض المراكز تشتهر بتربيتها وانتاجها مثل منطقة "قطنا بسورية" التي اشتهرت بمراعيها المخصصة لتربية الاحصنة فقط، وايضا في "كبادوكة الواسعة الشهرة" .

مع ممارسة هذه التربية، عرفت فائدة التزاوج بين الحصان والحمارة وبيـــن الحمـــار والفرس لنيل البغال والنغال، علما بان البغال هي مفيدة جدا للنقل بصفة خاصة. فكانت تعرف المقاطعات التي يجلب منها ذكور او انثيات الحمير والتي تعطي افضل النتائج، من جراء هذا التزاوج، وبصورة خاصة كانت الطلبات تتركز على انثى حمير بلاد " غوتس Gotis" فـــي جبال زاغروس وعلى الذكور منها في بلاد (انداريا Andaria) في وسط منطقة الدجلة .

اما الجمل، هو بالاحرى، وحيد السنام الذي بالنسبة للعرب يمثل النقل بالقوافل عـــبر الصحراء، والذي ينتحل عالم (سيدنا ابراهيم) القديم، كما يمثل (قديماً مُعاداً) في العالم الشرقي. بالحقيقة كان هذا النوع معروفا منذ منتصف الالف الثانية، ولكن في نهايته او في اوائل الالف الاولى أُدخل الى بلاد ما بين النهرين، وانطلاقا من الخليج الفارسي لعـــب دورا اقتصاديـــا مميزا في نهاية هذا العصر. بينما "ابراهيم" الذي عاش في بدء الالف الثانية كان يتكون قطيعه من الاغنام والحمير .

نظام الاراضي

كانت ثروة "الشرق الادنى" في القديم ترتكز على الاراضي لان مالكي تلك الاراضـــي والحاصلات المنتجة منها هي التي حققت غناه الحقيقي. كما كـــانت الارض ايضـــا قـــاعدة السلسلة الاجتماعية لكون امتلاكها يكسب القدرة والسلطة. بينما النظام المالي لم يستقر طيلـــة تاريخ بلاد ما بين النهرين .

بالنسبة للعصر الحجري الاخير، نحن نجهل كل شيء عنه، وتبقى معلوماتنـــا مجـــالاً للشك، فيما يتعلق بأزمان السومريين الاولى (أي النصف الثاني من الالف الرابعـــة واوائـــل الثالثة) وعلى قاعدة تفسير النصوص واهميتها والتي تبقى مجالاً للحدس والتخمين، هناك بقايا

اثارية في "اوروك" وتحليلات اشتقاقية لعبارات ظهرت في بعض النقوش والنصوص تعـــود لعصور متأخرة كان يسود فيها النظام باشراف رجال الدين. فالارض بكاملها بملكية المعـــابد التي كانت تقع على مسؤولية تنظيم الحياة الاقتصادية باسم الالوهية، وكـــانت الاســـتثمارات تقسم الى ثلاثة اقسام: فالقسم الاول كان يزرع من قبل المواطنين لفائدة الاله، والثاني كـــان يعهد الى اعضاء الجمعية لتغطية احتياجاتهم، اما الثالث والاخير كان يؤجر الى المزارعيـــن لقاء اتاوة تتراوح بين (١/٣ الى ١/٦ من مح الغلة) العائدة للمعبد. وهذا الاخير كان يلـــتزم بتقديم : (الادوات - والحيوانات - والبذار اللازمة للزراعة) ، كمـــا كـــان يقـــوم بتقســـيم المنتجات الباقية كجرايات غذائية. اما التحريات الاثارية الحديثة لا تمكن من مسك مثل هـــذا البيان بشكل مثالي، وكما يبدو بان الملكية الخاصة كانت سائدة في هذه العصور العليا. فكـــان هناك ايضا اختلاف في انظمة الاراضي مثلا بين الاكاديين واراضي السومريين كمـــا قُـــدّر ذلك، ولكن دون اثبات. وقد استنتج هذا الخلاف بسبب كثرة النصوص ذات الاصول المتنوعة بشكل ظاهر .

اما الخطوط المميزة لهذا الاختلاف ظهرت اعتبارا من منتصف الالف الثالثـــة حيـــث كان القصر مع المعبد يشكلان وحدة اقتصادية كبرى، وكان الملك يملك الحقـــول الواســـعة، ومنذ قيام المملكة الاكادية أو قبل ذلك، كان الملك يستخدم نظاما للتأجير ليس كالنظام العـــادي السائد في استثمار الاراضي ولكن ليجعل تحت سيطرته جميع الموظفين الكبار والعســـكريين ايضا. فكان هذا النظام بمثابة الرابط الشخصي المتين الذي يربط الملك بجميـــع مســـتخدميه بواسطة الارض. كانت التنازلات تمنح نظريا فقط وبشكل شخصي، اما المال والثروة كـــانت غير قابلة للصرف، فكان الملك يستخدم هذا التقييد لكسب احترامه الخاص. وكـــان انـــهيار المملكة أوالامبراطورية يترافق دوما وفعلا بخصخصة الأراضي وتحويلـــها الـــى القطـــاع الخاص. وكان الملك القادم الجديد في سبيل استعادة سلطته، يضطرر الى الســـعي الحثيـــث لاستعادة الاراضي، لا بل، كان احتلال البلد الاخر هو من احدى الوسائل المستخدمة لايجـــاد القواعد الاقتصادية الراسخة للحكم عن طريق الاستيلاء او استعادة اراضي المغلوبين .

في اوائل الالف الثانية عاش نظام الروابط الشخصية بيسر مع التطور ايضا، فقد اقدم "حمورابي" مؤسس أول امبراطورية بابلية على توزيع العديد من الاراضي لمساندة واصـــلاح وضع الفئات المحرومة في المجتمع ولتحضير السكان الرحل ومكافئة العساكر. ممـــا امكـــن

تطوير فئة جديدة من المتزمتين الفقراء وجعلهم بموازاة المزارعين العاديين، مالكين لحصصهم على غرار كبار موظفي الدولة .

وقد نتج عن ذلك اتجاه جديد، توضحت ملامحه بشكل اوسع، خلال الالف الثالثة، حيث أُنشئت الملكيات الخاصة الكبيرة انتهت بتبلور نظام مالي عادي وقانوي في الالف الاولى. تمّ تطويره على حساب صغار المالكين. وكان يوجد ايضا على اسفل السلم الاجتماعي، طبقة من المزارعين والفلاحين المحرومين من الارض ويشكلون القسم الاكثر حرمانا في المجتمع. غير انها كانت اكثر عددا في القديم مما هو في الالف الاولى، ولا بد من التساؤل فيما اذا كانت موجودة بكثافة زائدة منذ اوائل المجتمع المتحضر .

ولا بد من التنويه هنا، بان نظام الاراضي خضع لبعض التغييرات تبعا لتطور الشروط الزراعية. لان الارض لم تكن تستثمر بطريقة واحدة، اما بسبب كثافة الاستثمار الذي انهك الارض او بسبب ندرة او نشاف حقول وموارد المياه التي قللت الانتاج. ومثل تلك الاعراض كانت غالبا تدل على التغييرات العميقة التي استطاعت انتياب منطقة كاملة. وهكذا وَجدتْ بلاد سومر تحجيم زراعة الحبوب في اوائل الالف الثانية لتحويل الكثير من الاراضي الى مراع. وعلى اثر هذا التبدل الكبير الذي ظهر وكأنه احد اوجه انحطاط بلاد سومر، انكشف ايضا واقع ملوحة الاراضي الذي جاء بعد فرط الاستثمار، اضافة الى ذلك، يمكن تصور وقوع اسباب اخرى ضارة حتى لو صعب معرفتها الان. فهذه التغييرات لا تبدو للعيان استثنائية لان المصادر المتوفرة بكل اسف لا تمكن احيانا من استبانتها .

"ماري" انها المثل في احتلال الاراضي

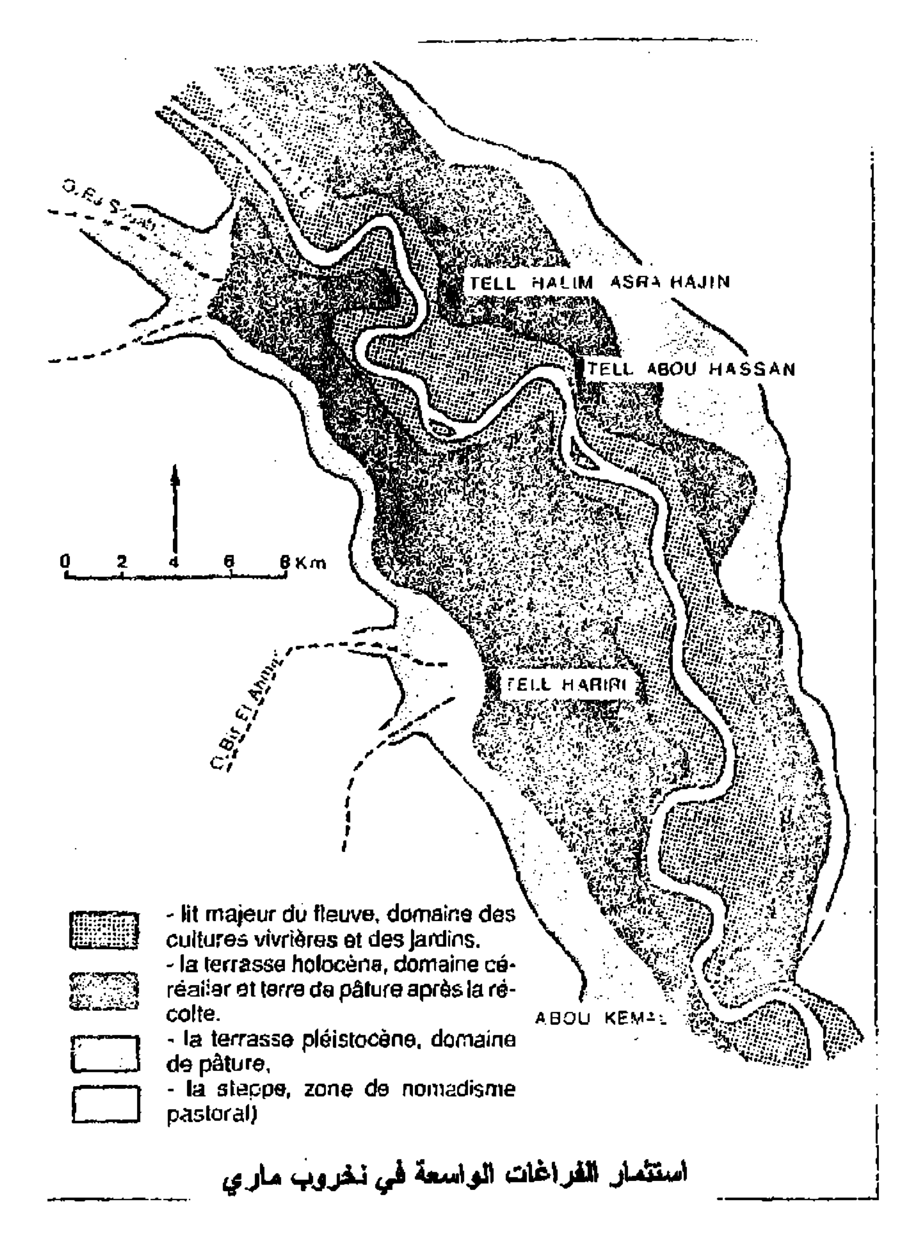
هناك ايضا صيغ اخرى سيئة جدا، في احتلال الاراضي، صنع منها الاقدمون كنايات وتلميحات غير مباشرة لم تُثير بال المنقبين والمحللين الا بالقدر القليل ومع ذلك، اعطت التنقيبات الحديثة في "ماري" مثلا عن استخدام الوادي الكائن بضواحي العاصمة، لا يمكن تعميمه على كامل اراضي بلاد ما بين النهرين ولكن لتوخي الفائدة من خلال عرض حالة ملموسة .

كانت توجد على ضفتي النهر الملكيات التالية :

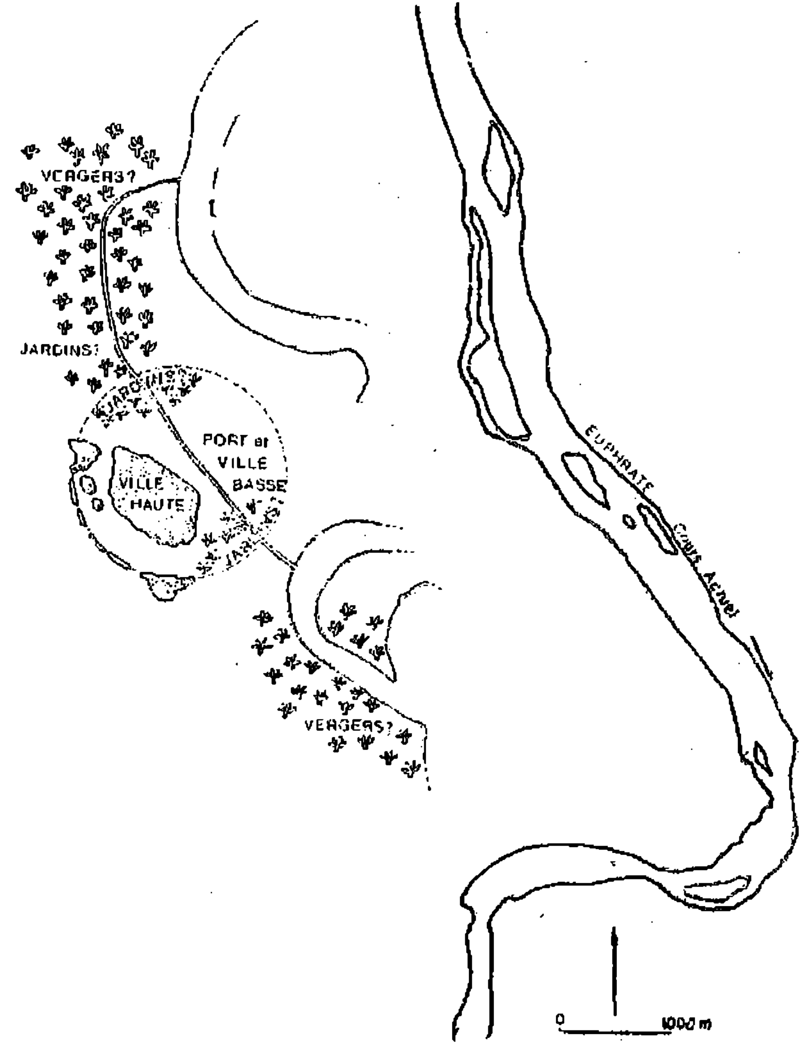
١- المساحة التي يغمرها النهر في فيضانه: انها عرضة لتعرجات متبدلة وغير ثابتة ولتشكيل سطوحات حديثة من جراء الطمي، قد تكون ضعيفة احيانا بسبب الموجات او المراحل الاخرى التي تطال الجزء الخلفي او اللاحق بها. كما انها منطقة واسعة تخصص للحقول ولزراعة البقول، ولان قربها من مياه النهر ومن مستواه لا يتطلب كثافة في الاعمال للقيام بالسقي وبتربية الحيوان. على طريقة " شادوف 'Shadouf' بل كان يُكتفى بسقاية الحقول.

٢- اما السطح: فهو من عصر الحقبة الرباعية التي لا تتلقى سوى مياه الامطار ولا تصلح الا للمراعي اذا لم تهيأ لمشاريع كبرى مصونة، اما اذا اضطر لذلك، يمكن لهذه المساحة الواسعة ان تصبح حقلا زراعيا ذات ابعاد يُؤمّن، ان لم يكن كاملا، معظم احتياجات المدينة، وليس بالمستغرب، فإذا أحسن صيانة شبكة الري والسقاية يصبح الحقل غير صالح الا لزراعة الحنطة، وبعد غلاله في الربيع وايقاف السقاية المستمرة كان يمنع زراعته من جديد حتى الخريف وفي زمن الزرع كان يعاد هذا الحقل الى نزعته الاولى، أي لانبات العشب والرعي .

٣- وايضا، على حواف الوادي، فان السطوح المكونة منذ بداية العهد الرابع وحواف المرتفعات كانت مخصصة لرعي المواشي، وكانت تتحرك فيها قطعان الغنم الكبيرة متوغلة داخل السهوب الممتدة عندما تكون المراعي فيها كافية، وهذا لم يكن متيسرا الا بعد امطار الربيع .

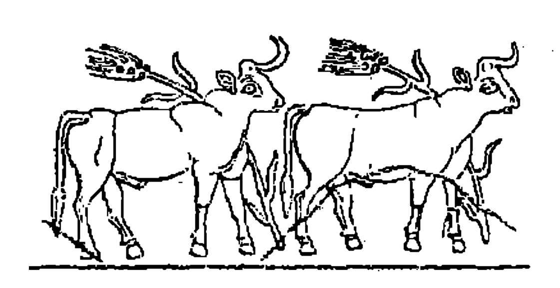


استثمار الفراغات الواسعة في نخروب ماري

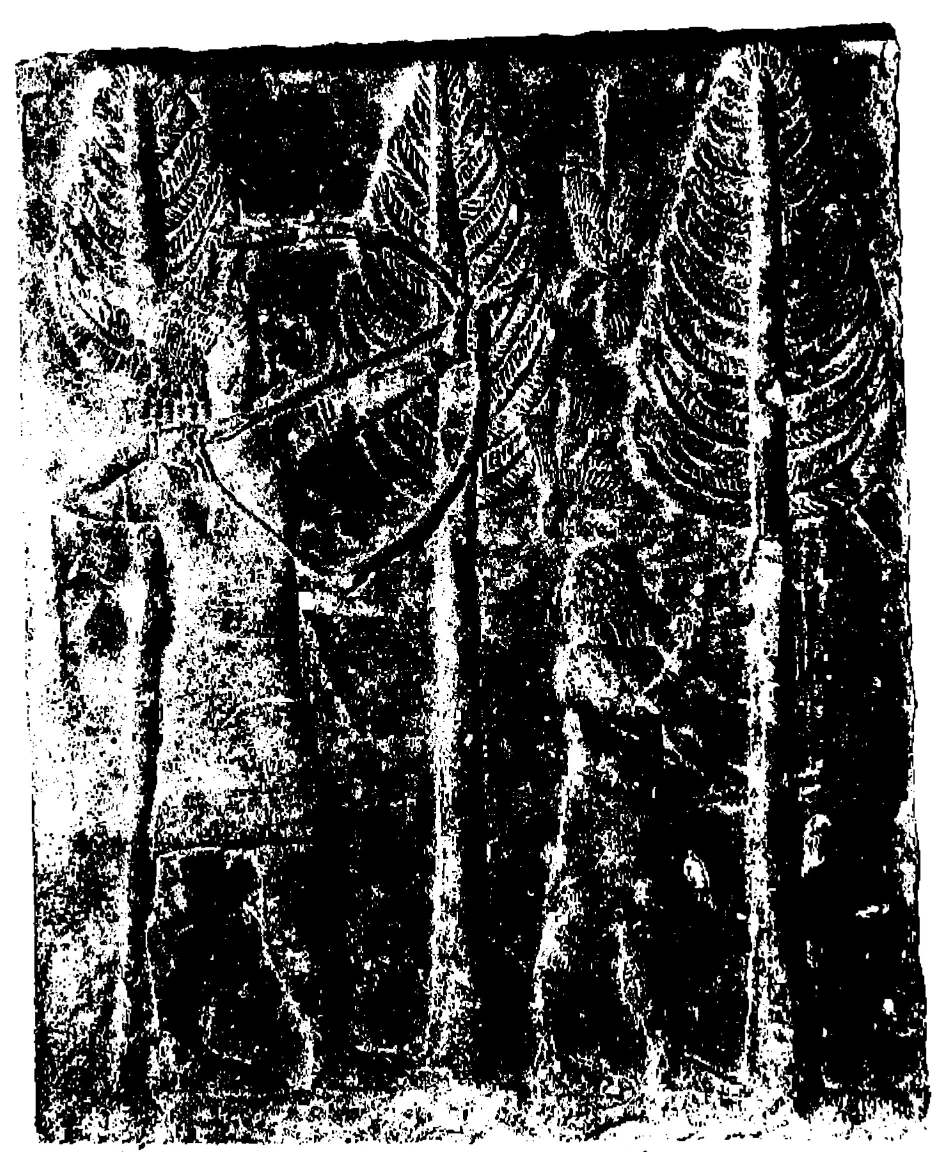


La ville de Mari avec son canal de raccordement à l'Euphrate et une probable utilisation des terres pour des jardins et des vergers dans et hors les murs, en étroite association avec le canal.

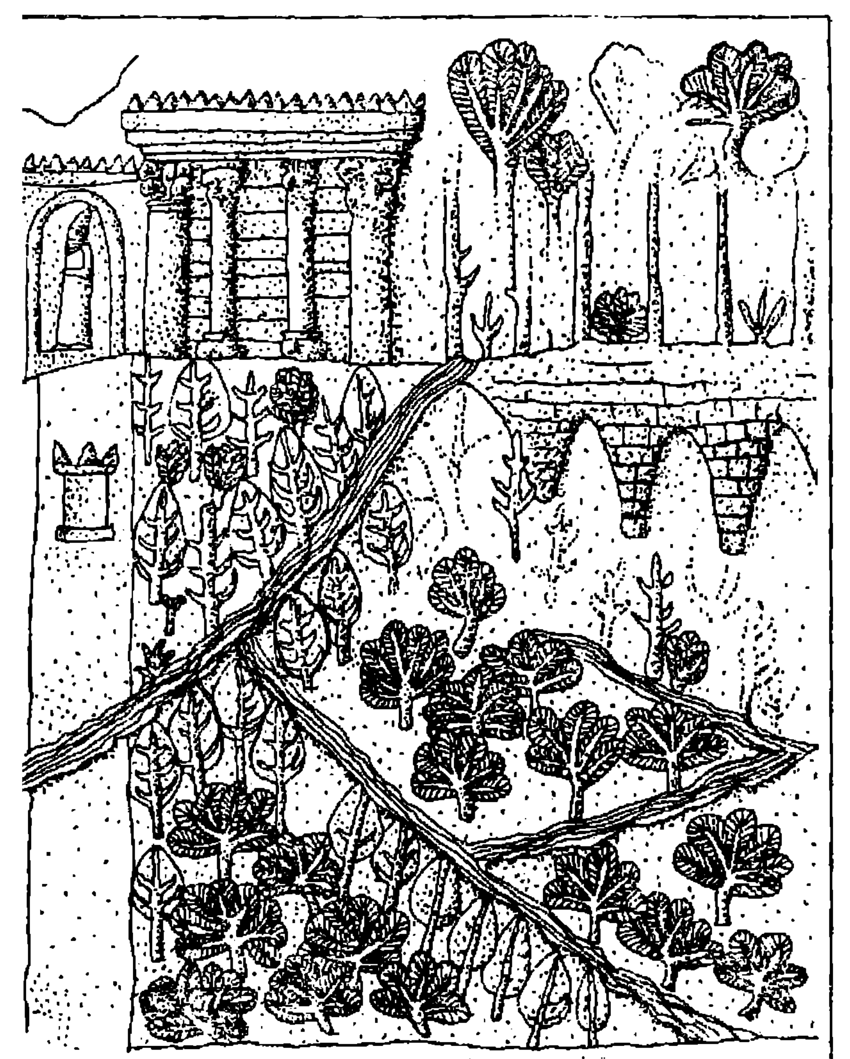
مدينة "ماري" مع القناة المتصلة بنهر الفرات مع أراض مستخدمة مبساتين وكروم داخل وخارج الأسوار على مقربة من القناة.



رسم في عصر (أوروك) يرمز إلى ابتكارين في الشرق الأدنى وهما الزراعة وتربية الدواجن.



مشهد يتناول صيد الطيور بواسطة القوس ومساعدة الصقور – ممثلاً في زخرف في دور شاروكين Sharrukin)خخورشباد (نهاية القرن الثامن – متحف اللوفر).



جزء من زخرف (لآشور بانيبال Assurbanipal) (٦٣١ - ٦٦٨) في نينيف، تمث أرضاً طبيعية مسواة من قبل الرجل، ومقسمة إلى بساتين وأشجار النخيل بفضل سلطة المياه المتمثلة بشبكة من الأقنية وبجسر بالقرب منها (المتحف البريطاني).

سلطة المياه

لا يستطيع الانسان العيش دون مياه، وهذه بديهة لا تمثل اية فائدة، واذا الانسان عاش في مكان محدد فلأنه وجد فيه المياه اللازمة لقضاء حاجاته، والمياه هي مآزق الشـرق فـي التاريخ، وايضا تستمر جهود السكان في الشرق لسد الحاجات، وهذه من مآزق سبل العيـش في تاريخ الشرق. وكانت جهود سكان بلاد ما بين النهرين منذ العصر الحجري الاخير تتركز على السعي للحصول على الوضع المعاشي الافضل منطلقين من وضع شـيء، لاحتـلال اراض تتوفر فيها مصادر المياه لا تكون عرضة للمزيد من الكثافة السكانية .

المعطيات الإساسية ✧ عدم الكفاية او الإفراط

اثناء الترحال لا بد من الجاهزية ومن التبصر في التموين بالمياه، لذلك فإن الموازنـة التي يجب تربيتها في هذا المضمار، تتطلب قبل كل شيء، كيفية سد العجز بالمياه باعتبارها المعضلة العامة لان (٩/١٠ من مساحة.الشرق الادنى تتلقى >١٠٠مم< من ميـاه الامطـار سنويا). يضاف الى ذلك وجود عدم التعادل في زمن سقوطها وفي مختلف ارجائـها، كـون التكوين الجيولوجي لبعض المناطق يجعل معطيات الامطار ومسار الينابيع مختلفة القيـاس. وبجرد سريع لهذه المعطيات يمكن، بقدر من الاختصار، تحديد هذه المنـاطق بشـكل عـام ودقيق.

امطار السماء

تتضمن المعطية الاولى المهمة الهواطل المطرية بعـد فحـص الخريطـة المطريـة (ص١٣٠) يتبين لنا وجود توافق دقيق بين تضاريس الارض (ص١٢-١٣) ومجمل كميـة الامطار النازلة، فان المنحنى لدرجات الرطوبة يتبع دوما القـوس الجبلـي الـذي يحيـط بالحوض، قد يصل سقوط المطر على سلسلة الجبال الى (٦٠٠مم) واكثر احيانا، وهـذا قـد يكون كافيا للزراعة والاشجار المثمرة ولكن ما ان يبتعد عن قمم الجبال حتى تتناقص نسـبة هطول الامطار بشكل حاد وسريع، وبعد اجتياز الاطراف الجنوبية لجبال زاغروس مسـافة

(٢٠كم) تنحدر نسبة الامطار من (٦٠٠مم) واكثر الى (٢٠٠مم). وايضا اذا كانت "بيروت" تتلقى (٩٠٠مم) فعلى بعد (١٠٠كم) شرقا أي خلف سلسلة جبال لبنان، نجد دمشق لا تتلقى منها اكثر من (٢٠٠مم). وكلما ابتعدنا عن تضاريس الجبال العالية وعن البحر واتجهنا نحو الجنوب، كلما تناقصت نسبة الامطار .

كما تبين خريطة المياه بان المهم من اراضي الحوض المروية من الفرات والدجلة، باستثناء المناطق الجبلية، هي تابعة لمنطقة لا تتلقى من الامطار الا نسبة تتراوح بين (١٠٠- ٢٠٠مم) من المياه كحد اقصى، وكل ارض تحيط بهذه المنطقة من الجهة الغربية والجنوبية تتلقى اقل من (١٠٠مم) من الامطار، وتعد من الاراضي الصحراوية .

بصورة عامة، ان مقدار (٢٥٠مم) من نسبة هطول الامطار هي جديرة باهتمام المزارعين، واذا ما تركنا جانبا بعض الاوضاع المحلية، وتجاوزت نسبة الامطار المقدار المذكورة اعلاه، تصبح زراعة الحبوب القاسية هي الحل الطبيعي التلقائي، والحقيقة، عند الوقوع تحت وطأة مثل هذا المانع، تصبح ممارسة الزراعة اتفاقية ومن ثم متعذرة دون استخدام وسائل الري، فيما عدا الحالات الاستثنائية. لذلك يلعب هذا الخط المطري المحيطي في تاريخ بلاد ما بين النهرين دورا اساسيا لأن القسم الرئيسي في الحوض المروي بواسطة النهرين سيصبح خارج المنطقة وغير ذات شأن زراعي .

اما الهواطل المطرية هي ايضا غير متساوية من حيث زمن سقوطها فقد تهطل الامطار بين نهاية تشرين الاول وآذار بشكل عواصف او زخة المطر الشديدة، غالبا ما يفصل هذه الهواطل فترات طويلة. ومن شهر آذار الى تشرين الاول تقع مرحلة الجفاف التي تمر قاسية وشاملة. كما ان الامطار تبقى متنوعة الكثافة والمقدار من سنة الى أخرى، واذا تتالت عدة سنين دون تلقي الامطار يؤدي ذلك الجفاف الى كارثة .

واخيرا لم تكن الهواطل المطرية ثابتة من حيث الزمن خلال الاجيال المتعاقبة السابقة كما يلاحظ، فقد مرت حقبات عديدة كانت تسقى الاراضي خلالها بشكل جيد ففي "ناتوفيان" (نحو ١٠٠٠٠ سنة ق.م) تتابعت الازمنة التي تخللها القحط الشديد. (ونحو نهاية الالف التاسعة مثلا) كانت تمر ازمنة تتبدل فيها عتبة المطر (٢٥٠مم) كما كانت تتبدل المواقع والمناطق التي تجف فيها الزراعة وتصبح من الممكن العيش دون الري والسقاية. كانت الامطار التي تنزل على سطوح البيوت تُجمع في الجرار لاستعمالها في الحاجات

المنزلية ليس هذا الاجراء سوى استعانة ثانوية للتخفيف من سخرة تأمين المياه للضـــرورات اليومية التي كان يقوم بها قديماً، وحتى في ايامنا هذه افضلية النساء ومن ثم الرجال. غير انه في الازمنة الاخيرة "خاصةً العهد الروماني – البيزنطي" اشيد في سورية الجنوبية "بصرى"، او الشمالية "الرصافة" خزانات كبيرة لتلقي مياه فصل الشتاء لاستعمالها في الفصول الجافــة، وعلى ما يبدو لم تكن هذه التقنية معروفة خلال الالفيات السابقة .

المياه التي تجري على سطح الارض

كانت مثل هذه المياه تلعب دوراً رئيسياً لانها سهلة البلوغ ومحصورة في مكان معين، وقد اسهمت بفاعلية في تثبيت سكن المجموعات البشرية.

لعبت الينابيع المتفجرة في اسفل الجبال او التلال دورا كبيرا وجذابا لانها كانت تقذف بمياهها المخزّنة في جوف المرتفعات الى الخارج طيلة السنين. وتوجد منـــها فـــي الجبـــال والسهوب والصحراء ولكنها، لسوء الحظ، تضيع في التربة او تتناقص عن طريق التبخر، أو أنها تولّد اثناء مسارها واحة متسعة كما هو الحال في تدمر والسخنة في الصحراء السورية.

اما الجداول والانهار تنبع من داخل اقواس الجبال او من منافذها وقد تضيع مياهـــــها كما هو حال نهر الاردن الذي ينتهي في نهر الميت، او البحر الابيض المتوســط كمـــا هــو حال"الليطاني – والعاصي"، او يغذي الانهر الكبيرة مثل"بليخ – الخابور – الـــزاب الكبـــير والصغير – ونهر ديالا" والبعض الاخر، قليل الاهمية قد يجف خلال الصيف اذا كان مخزونه غير كاف في حال الازمات المطرية. وعند دوام مجرى الانهار فانها تكون مدعـــاة لانشـــاء المدن والقرى التي يسهل العيش فيها. ولكن كل مشروع للري انشئ محصـــورا فـــي قعـــر الوادي كان على العموم يلقى النجاح الذي كان يغذيه الشعور السائد لدى المزارع بامكانيـــــة تحقيق الغنى بواسطة هذا النوع من الزراعة المروية .

ان مياه النهرين الكبيرين هي اقل سهولة، ان الفرات والدجلة هما نـــهران عظيمـــان ينحدران من جبال ارمينيا ولكنهما شاذان وخطران احيانا تصبح مياهـــهما شـــديدة الغـــزارة ومتلاحقة في زمن ذوبان الثلوج الذي يحدث خلال شهري نيسان وايار تقريبا، واذا اضيـــف الى ذلك مياه الامطار الغزيرة التي يغلب سقوطها، عندها يصبح تدفقهما خطرا قد يؤدي إلـــى

كوارث، خاصة عندما ينفك مستوى المقارنة في أي منهما، عندئذ يصعب تقدير كميات المياه التي تنصب في الوديان ةالسهول وتقدير الدمار والاضرار الذي يصيب حقول القمح الكاملة النضوج، والمدن والقرى في الارض المنخفضة التي تفاجأ بموجات السيول. وفي حال انحصار الدجلة اوالفرات ضمن مرتفعات الجزيرة تدخل مياه النهر في سريرها عند نقص المياه، وتنتشر في السهول الغرينية عندما يرتفع مستوى المياه فوق الطمي، تاركة مجراها الاصلي، مدمرة للمزروعات ولكل غلة، ومشكلة تجمعّات مائية وغدران بعيدة عن محور جريانها الاصلي، منعزلة، لا بل جامدة دون حركة .

يتبين من ذلك ان الشذوذ وعدم الاستقرار يرافقان هذين النهرين، لان الفيضان المدمر والشديد الوطأة والضحولة الضعيفة لا يشجعان على سكن الانسان، ولهذا السبب كانت بلاد ما بين النهرين هي الاخيرة في الوصول الى الثورة الزراعية .

المياه الجوفية

ان المصادر المائية التي كانت تتواجد في الحقول المائية الجوفية لم تكن معروفة قديما، وكان هذا يتطلب الالمام العميق بالاتجاهات الجيولوجية التي يمكن ان تسيل فيها المياه كما يتطلب التحري هنا وهناك على مصدر في باطن الارض وغير منظور، فقد ظهرت المياه الجوفية عن طريق الابار منذ العصر الحجري الثاني وتأيد استخدام هذه المياه وتم العثور على رسوم واشارات بخط تصويري نقشي (نهاية الالف الرابعة - اوائل الثالث)

تشير إلى اثار وجود سابق لبعض المنشئات للسكن البشري مرسومة على اراض محرومة من الانهر ومنابع المياه وتمتد مع طول الطرق المتجهة نحو المناطق الصحراوية اما الطراز الإيراني الحذق لاقنية المياه المستخدمة لجمع المياه الجوفية في فتحات او ممرات افقية متصلة بآبار عمودية تسمح بدخول الهواء وتسهيل الولوج، لم يظهر، كما يبدو، الاّ في اوائل الالف الاولى في سورية وفي شمال بلاد ما بين النهرين .

لقد لعبت المياه الجوفية قديما، دورا مهما كمصادر مياه مساعدة ومكمّلة، ومارست نفوذا قويا لتعزيز الفكرة الشرقية التي نعيشها الان، غير انها لم تلعب دورا من الدرجة الاولى.

تحمل طبيعة اراضي الشرق الادنى صفة الجفاف، رغم وجود بعض الاراضي الطمي نتيجة الحالات الخاصة. ومن هذا المنطلق، لا بد من المعرفة بأن هذا العالم منذ القديم وطيلة حياة ساكنيه كان ولا يزال يسعى للسيطرة على مسألة تأمين المياه .

المواقف الاولى نحو السيطرة على المياه

توضعت الحياة الحضرية ومن ثم الحياة الزراعية في المناطق التي تنمو فيها زراعة الحبوب حسبما دلّت تعليه التحليلات الاولى، حيث تبين بأن الوسط والمناخ المناسبين افادان بأنه حول منتصف الالف السابعة (الحقبة الرابعة) كانت المجموعات الزراعية في القرى متطورة ومزدهرة في هذه المناطق النووية حسب تحليل (بريدوود Braidwood) .

غير أنّه قُدّر بان نحو عام (٦٥٠٠) تمركز مزارعون جدد في مناطق تختلف عن التي استجرتهم سابقا للزراعة، فأنشأوا "راس شمرا" على الشاطئ حيث كان التوافق مع البيئة مقبولا، ثم شرعوا بالنزول نحو الجنوب مستثمرين وادي الفرات حتى انهم انشاوا موقع "بخراس" في الوسط الصحراوي، وكان النهر في مرحلة الطمي يختلف عن وضعه الحالي، ينقسم الى العديد من الاقنية وتحتل مياهه كامل عرض الوادي وهو تصور لايوحي بامكانية استخدام وسائل الري في حينه، وعثر على بعض من هؤلاء المزارعين الاوائل في "تدمر" او في "الكون" EiL koum في قلب الصحراء، وما العثور على شفرات للمناجل، في تلك المواقع سوى دلالة على ممارسة الزراعة.لانه من المستبعد وجود وتطور مثل هذا النبات في الاطار الصحراوي حتى لو كانت نسبة الجفاف قديما اقل من الان .

وقد تتبعت هذه العوامل بعد ان تهيأت لها الظروف، حيث نحو الاعوام (٥٥٠٠ – ٦٠٠٠) تمركز مزارعون في السهل الاشوري في "الحصونة" حيث كانت تمارس زراعة الحبوب القاسية، ومن ثم اتجه هذا التطور نحو الجنوب في سهل بلاد ما بين النهرين، وتمّ احتلال المواقع بمواجهة تل الصوان الواقع ضمن المنطقة التي لا يمارس فيها زراعة الحبوب الناشفة .

ان ذلك الانشاء المتدرج في المناطق التي كان يصعب مزاولة زراعة الحبوب القاسية فيها هو الدالة المفضلة الوحيدة التي يمكن ان توحي للرجل بالسعي لأن يلتزم بطريقة او

بأخرى بسحب الجزء المفضل من المياه الجارية على سطح الارض. وبهذا المنحني الجديد او السيطرة اذا اردت، يوجد دالة اخرى الا وهي، في "ابي هريرة" على الفرات منذ الالف السابعة – وفي تل الصوان خلال الالف السادسة، ان يزرع الشعير بأنواعه الجديدة (رتبة ٦) بدلا من الشعير (رتبة ٢) الذي ينتج حتى الان، وهذا يتطلب وحسب رأي الاخصائيين معالجة السقاية باليد اضافة الى زراعة القطن بالمياه والتي تقع في مثل هذا الوقت والتي تناولت الري المبكر او الغمر الفصلي او أي تقنية اخرى كان يستخدمها الرجل للوصول إلى النتائج المستهدفة .

لا تزال الادلة المادية الملتقطة من هذه المواقع قليلة العدد وغير مفهومة تماما فقد ظهرت آبار منذ الالف السادسة وحسب (ارباشيا • غاوورا – شوقة مامي – Arbachiyah Gawra – Choqa mamu) ولتحديد هذه المواقع يتطلب الامر معرفة مكان وجود المياه الجوفيه وكيفية استعمالها من قبل المجموعة المختصة بها، ما يتطلب صفات المياه الطبيعية، ولكن هذا التحليل لا يتناول بالحقيقة مياه الري رغم استخدام مياه البئر لسقاية اغراس البستان، ومع ان اكتشاف الاقنية والحفر كان ولا يزال عرضة للتساؤل، فإن معرفة تاريخ هذا النوع من المواقع تتخللها بعض الصعوبات وخاصة التساؤل فيما اذا كان الوضع في مجرى المياه لا يزال كما هو منذ القديم. فلا تزال حفرة "تل الصوان" التي بشكل (٧) (وبعمق ٣م – وعرض ٢،٥٠ في القمة – و٥٠سم في القاعدة) عرضة للتساؤل فهل كانت نفقا لحماية الموقع او للتموين بالمياه؟ وحسب الواقع كان "شوقة مامي" وحده الذي قدم البينات غير الواضحة تماماً في هذا الشأن، المتعلقة بنهاية الالف السادسة في منطقة التلول وسفح جبال زاغروس. وقد فكر المهندس الاثاري (جان اواتس Gaan oates) بالعثور على آثار الاقنية بدءً من مجرى السواقي ومتابعة انحناء المستويات على مسافة بعض المئات من الامتار متتبعا انتشار المواد الكيمائية في مياه الوديان خلال فيضان الربيع مع الفرض بان تقنية الري والسقاية قد تكون تولدت من جراء هذه الممارسات البدائية حيث كان ينطوي الجهد على اتساع مجرى المياه خلال الفيضانات. علما بان مثل هذا النهج استخدم في الجوار في كوزيستان الايرانية خلال العصر نفسه .

يبدو حتى الان، ان الاثار الاولية المعلّمة تدل على المحاولات الاولى في استخدام المياه للري يدويا لحاجات الزراعة، لم تكن تتم في السهل الغريني، بل في مناطق السفوح

الجبلية ومن الممكن ان تكون حدثت محاولات اخرى لها طبيعة مختلفة، وحققت قسطا من النجاح في سهل الغمر، واختفت آثارها أو حتى الان لم يعثر عليها .

ومهما كان الامر فهناك اشياء ثابتة، منها ان عصر عبيد (من نهاية ٦، الى اوائل ٤) شهد الاستعمار الناجح والمتدرج لمجمل بلاد ما بين النهرين الجنوبية، غير ان الرجال لم يستطيعوا العيش فيها ضمن الوسائل التقليدية المتاحة لديهم حينذاك، الا بعد السيطرة على المياه السطحية. حيث في ذلك الوقت، قامت مجتمعات باستخدام طرق جديدة بعد ان تحقق التقدم والتطور في الزراعة وتربية الحيوان، وبعد السيطرة تقنيا على طرق الري والسقاية، مما يدل على ان ترجين المياه حقق موقفا جديدا مهما في تاريخ بلاد ما بين النهرين. ويمكن، بدون تحفظ، ان توصف هذه المرحلة بـ ("بدء المجتمعات الهيدروليكية " أي المستخدمة للمياه) لكونها الرشيم للثورة الثانية للتحضر بجميع محصلاته .

اعداد البلاد في العصر التاريخي

حتى الان قد يكون من الصعب كشف إتساع الاعمال التي حققها سكان النهرين، لانه مع الاسف، منذ عشرين سنة فقط امكن العثور على آثار هذه التنظيمات التي عرفت نتائجها مؤخرا والتي بدت مذهلة .

فهناك الدراسات التي تناولت تنظيمات وادي "ديالا" والتي تحققت تحت ادارة (ب . مس آدام B. Mc, Adam) وهناك ايضا عملية اخرى اجريت في منطقة "اوروك". شاركه فيها (ش.ج. نيسن) وكانتا عمليتان مميزتان، لانهما بقدر المستطاع مكنّا من العثور على مواقع آثارية يعود كل منها الى عصر طويل ومتسع، ومع ذلك بواسطة التنقيبات السطحية التي مكنت من وضع وتنظيم خرائط انشائية مقسمة، لم يتمثل فيها فقط كثافة انغراس الجنس البشري الذي امكن ابراز صورته القديمة، بل ايضا جميع التحولات الطارئة مع طول هذا الزمن، وايضا التبدلات التي اصابت مجاري الانهر والاقنية باعتبارهم النواة لتثبيت الناس. ان الخرائط المنشئة حديثا على ضوء التحاليل تبرز بوضوح: مجمل (التطورات – مراحل السيطرة – مراحل الضعف والانحطاط) وايضا الاعمال التي قام بها الرجال في مضمار اعداد وتنظيمات المناطق .

وبقليل من المصاريف، امكن الحصول على انعكاس من نور جلي، قد يكون مشـوّهًا الى حد ما، ولكنه ذات فائدة كبيرة مستديمة وتضمن فحواه على حقيقـة آثاريـة يمكـن ان يستخلص منها البينات والتحاليل الي تفوق ما يسبقها، وان تقود الى تنقيبات اخرى لها اهداف محددة .

فقد أعطيت تحريات حديثة معلومات في غاية الحداثة عن الطريقة التي بموجبها نظم "وادي ماري". حيث عُثر في مقطعٍ من مجرى نهر الفرات يقع في منطقـة جافـة وقاحلـة يستحيل زراعة الحبوب الناشفة، على وجود مدينة كبيرة فيها. ممـا دعـى الـى التسـاؤل والمعرفة: كيف ولماذا ؟؟ والى التأمل في كنه تنظيمات المملكة خلال ازدهارها واتساعها وما يحيط خلال الالف الثالثة. لقد اعطت التحريات والتحـاليل الخاصـة بعلـم شـكل الارض "Geomorphologie" والمعادلة للتنقيب الاثاري، نتائج غير منتظرة، عن سـعة ومـدى هـذه التنقيبات، اهمها العثور على اربعة اقنية ذات اهمية كبيرة ولو كانت غير متعادلة:

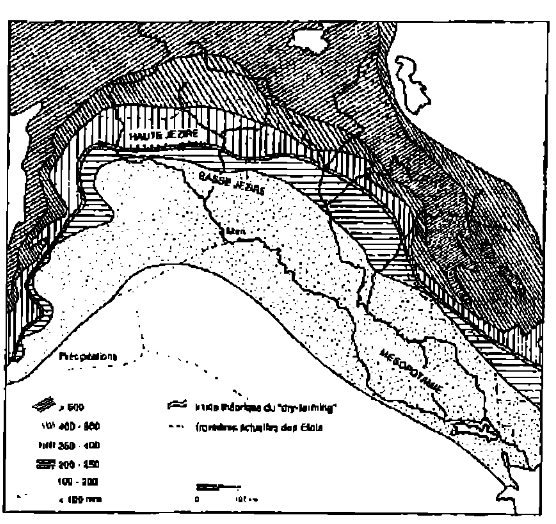
١- الاولى كانت تربط مدينة "ماري" بنهر الفرات، انشئت على سطح يسيطر على سرير النهر (١-١٢٥) وايضا على بعد (١ الى ٢كم) منها، تجنبا لدمار الموقع من تعرجات النـهر وغرقها خلال الفيضان السنوي. انشئ "قالب للسفينة" على مسافة (٣٠م) من الحافة لغـرف وتقديم المياه الصالحة للشرب للمدينة، فجعلت منها مرفأ حقيقيا يسـمح للمراكـب بـالنزول والصعود من والى النهر وحتى الوصول الى منتصفه .

٢- اما العمل لثاني كان على نطاق اوسع، شمل انشاء قناة بطول (١٢٠كم) اسـتخدمت بصورة رئيسية لصالح النقل، فكانت تصل نهر الخابور بالفرات على الشاطئ الايسر محاذية الجرف وقد تشقه احيانا، انها المعبرة الوحيدة الشكل بكامل طولهاالتي يجرؤ تسميتها "بقنـاة نقل" فكانت تتيح اختصار الوقت بمقدار الربع او الثلث من زمن الرحلة العادية بعـد تجنـب تعرّجات النهر، الامر الذي كان يسهّل صعود البواخر نحو سهل الخابور.

٣- كان الانجاز الثالث ،انشاء قناة حقيقية للري تخدم اراضي المسطح الهولوسيني (يعود للحقبة الرابعة) على الشاطئ الايمن للوادي، وكان الهدف من انشائها، تـأكيد فـائدة العمـل الزراعي في اراضي خصبة عندما تُجلب لها المياه، كما هي ضرورية ولا غنى عنها لتزويد السكان بالمحاصيل اللازمة لمعيشتهم، وتتمتع بمساحة واسـعة تضمـن الكفايـة لحاجاتـه الضرورية. لقد انشئت هذه القناة بمستوى اعلى من سطح الارض بحيث تسمح بسيل الميـاه

حتى حافة السطح. عثر على هذه القناة على شكل اجزاء متتابعة بطول (١٧كم) وقد تكـــون اكثر امتداداً بكثير، وهذه الاثار المتبقية حاليا، تشهد عملا ضخما وقادرا لهذه القنـــاة الجـر، يصل عرضها احيانا حتى (العشرة امتار) وتدخل بين سدود جانبية ضخمة يصل عرضها الى ما يقارب الـ (١٠٠م) يمكنها الصعود بثبات امام الحفر والثقوب التي تسببها مياه الفيضانات الكبيرة. وحتى الان لم يكن العثور على مأخذ هذه القناة وقد يكون السد الكبير الواقع على (او – اس – صواب o - es – Souab). غير انه ينظر الان بمراجعة نقطة الانطلاق لكـــل مـن بعض الاقنية الثانوية التي كانت تغذي الحقول.

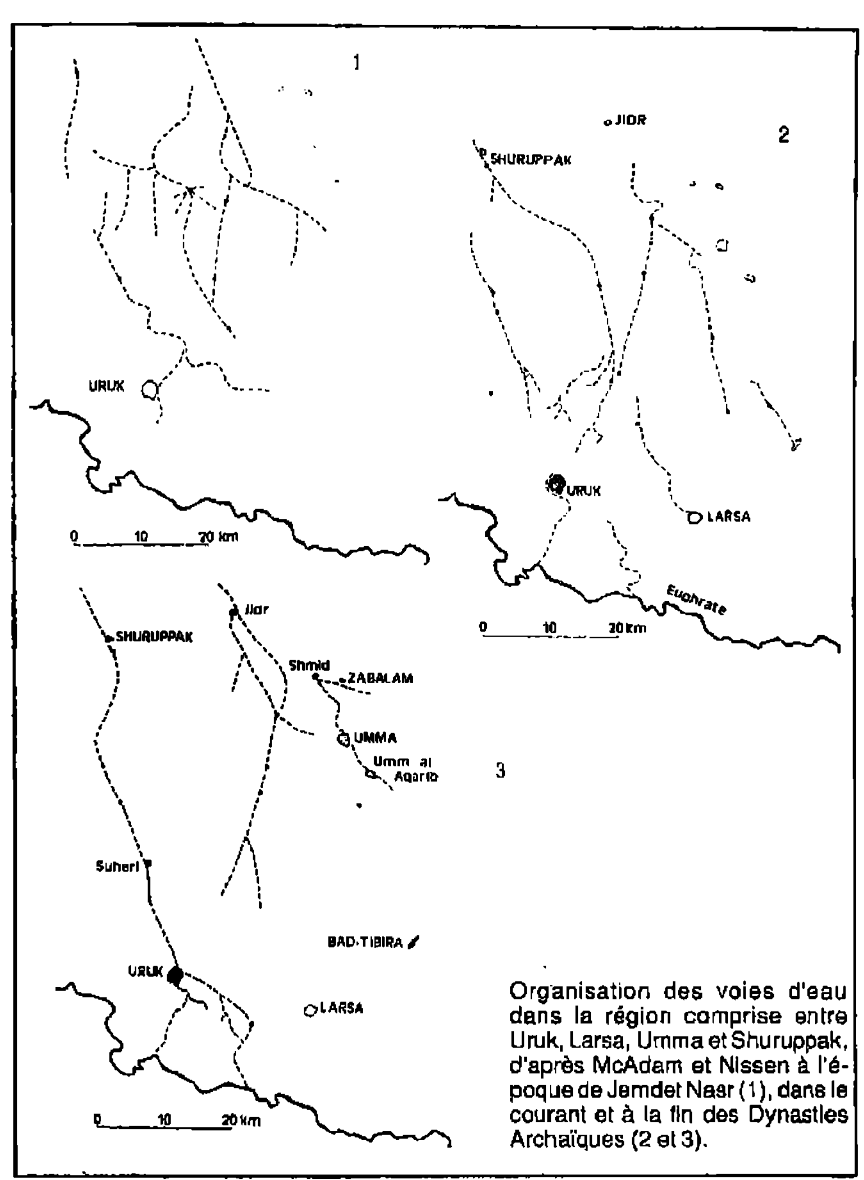
٤- يقع الانجاز الرابع في اسفل جرف الشاطئ الصحراوي الايمن وعلى مقربة منـــه، وكان لهذا العمل عدة مهام : (١) استقبال المياه المتدفقة من المرتفعـات اثنـاء العواصـف والانصبابات لمنعها من تدمير الحقول. (٢) وقاية المرتفعات من تسرب المياه المالحة التـي بالنهاية ستقضي على كل زراعة. إن جميع هذه التنظيمات والاعمال التي رافقت، بشـكل او بآخر، نشوء مدينة جديدة التي هي "ماري" قد يكون البدء بها نحو (٢٨٠٠ ق.م) كـان هـذا الانجاز يترجم عملا استثنائيا واسعا جعل الحياة والمعيشة ممكنة في واد غير مضياف وغير اهل لاعاشة مدينة كبيرة ضمن الشروط العادية . ولما كان خط القراءة من جهة اخرى، فـي اول تكوينه واشاعته لم يكن بالمستوى الذي يتيح إعلامنا عن مدى الاهلية الخلاقة للسومريين الذين كانوا المثل في القدرة على اعادة وتحضير الخطط المشـتركة والتنظيمـات الواسـعة النطاق المتجاوبة في الوقت نفسه مع الاحتياجات التجارية والغذائية للسكان . اما كيفية السبل المتخذة لتنمية منطقة "ماري" تبدو كامنة في الاعمال التي تناولت هذا الوادي الواقع في منطقة صحراوية والذي استطاع توحيد عدة مناطق ضمن فاعلية واحدة نشـيطة. وقريبـا سـتتيح التحريات والتنقيبات الجارية الان في الخابور باستكمال هذه اللوحة الفريدة لالقاء الضوء على مثل هذا التنظيم الذي ليس هو الوحيد، كما يُعتقد، الذي انجز في حقل السقاية والري .



خريطة المستوى المطري في الشرق الأدنى



نهر الفرات في نخروب "ماري"

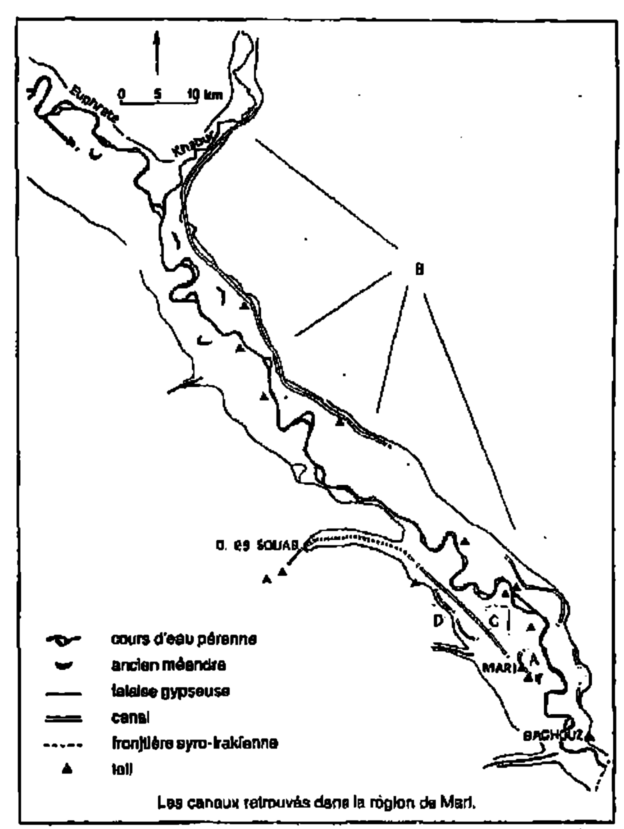


Organisation des voies d'eau dans la région comprise entre Uruk, Larsa, Umma et Shuruppak, d'après McAdam et Nissen à l'époque de Jemdet Nasr (1), dans le courant et à la fin des Dynasties Archaïques (2 et 3).

تنظيم أقنية الري بالمياه في المنطقة الواقعة بين (أوروك – لارسا وشوروباك حسب "م س أدام ونيسن" في عصر جمدت (١) خلال ونهاية عصر السلالات السابقة للعهود الكلاسيكية.

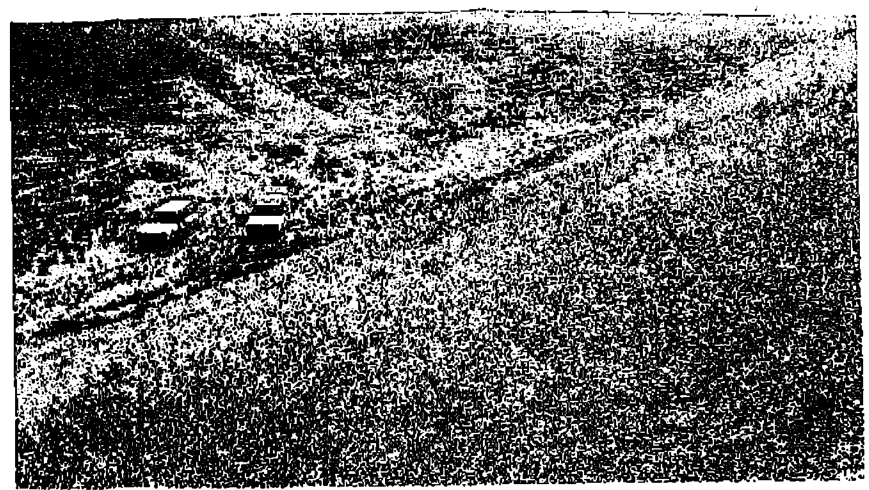


الإلهة ذات الإناء المتفجر، موزعة المياه الخيرية المجانية، عثر عليها في إحدى الصالات الرسمية في قصر 'ماري' ورغم الصفات العالية للفن، غير أنها لا تعني إلا آلهة ثانوية تابعة ، يشاهد ممر داخلي متصل بوعاء يمكن استعماله كمنبع مياه.

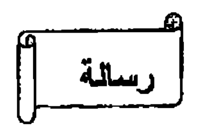


Les canaux retrouvés dans la région de Mari.

الأقنية التي عثر عليها في منطقة ماري (انظر الإشارات)



قناة لجر المياه حفرت ضمن الشاطئ الأيسر لوادي الفرات قرب مدينة ماري



رسالة

الى سيدي القول هذا : هذا يتكلم "كبري سدجان" خادمك:

منذ خمسة ايام، في (بيت – لابنا هارنا) باشرت العمل في قناة (ايسيم – لاهدون ليم Isim – Lahdum – Lim) ولكن العمل الذي اقوم بتنفيذه ليس بالسهل، انه من الاغزر كثافة، فقد كثر النقاش حوله لدرجة مملّة حتى ان العاملين فيه، على ضوء احاديثهم المشبوهة، يضمرون أسلوب التخاذل وعدم الجدة، كما انهم ليسو على مستوى بذل الجهد المطلوب. ان العمل المطلوب كثيف جدا، والارض التي اعمل فيها في حالة كئيبة، لانه اذا قطعت المياه ستجوع بلاد سيدي. والعمل المنجز حتى الان ليس بكثير .

ج.ر كوبر ، رسالة كبري – داجان (ا.ر.م –١١١–

من بين رسائل اخرى، نعرض هذه الرسالة المرفوعة من حاكم ولاية "تركا" الى الملك "زمريليم" (ملك ماري)، الذي ينوه به الى مجهوداته الجوهرية بقوله : لا يكون العمل بالاقنية، وخاصة الغلال، مضمونا اذا لم تصل المياه الى الحقول، وبالاضافة الى الصعوبات التقنية المتمثلة في هذا المشروع، يلاحظ ادعاءات ومطالبات عناصر العمل المرفوعة بطريق التسلسل الرسمي .

يعتبر سهل الخابور وتلول سفح جبال طوروس غنية، بشكل خاص، في المضمار الزراعي باعتبارها مروية جيدا وبشكل طبيعي، فليست هي بحاجة الى الاعداد بالري المائي لكي تحصل على غلة كافية .

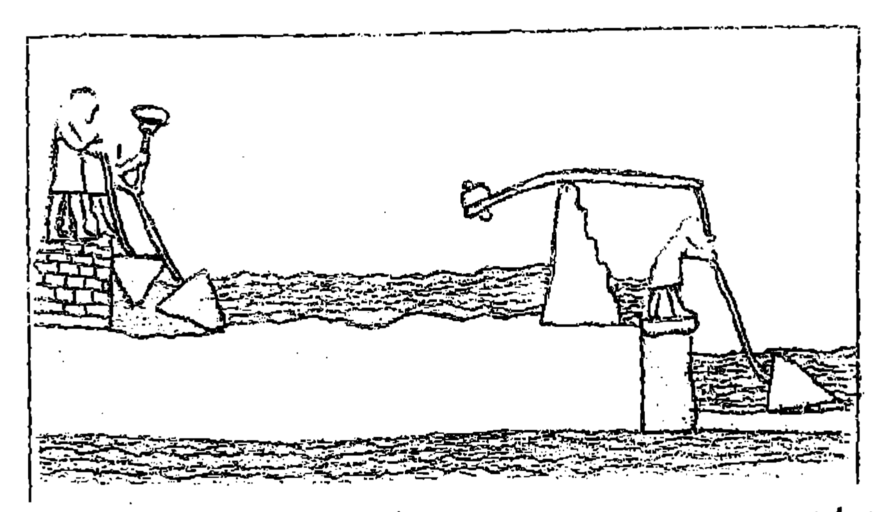
اما بالنسبة لسورية، فهي على علم في كل ما يتعلق بأساليب هذا التطور الطبيعي وهي متوافقة بدرجة كافية، مع شروطها وتطلعاتها. وبالواقع، وحتى الان لم توضح التحريات والتنقيبات عن انجاز للتقنيات في سورية مستندة الى مواقع الاثار القديمة، فيما عدا ترميم بعض الاقنية في الخابور التي قد يستند اليها تأمين الاحتياجات الزراعية بالمياه او تأمين نقل

المواد بشكل منظم، يطيبة خاطر أميل الى تحقيق معطيات هــذه الانطلاقـة بشـكل مفيـد ومتماسك.

تبدو تنظيمات "ماري" وكانها طراز خاص هيمنت فيه المقايضـات وتبـادل المـواد التجارية بين بلاد ما بين النهرين – الخابور – وشمال سورية، ان الواقع يفسـر ذلـك، لان ازدهار الزراعة في مدينة واقعة في قلب منطقة صحراوية لا يمكـن تـبريره الا باسـباب خارجية تعدت قوام المعيشة العادية، لقد انشئت "ماري" في هذا المكان، ليس لانتاج الحنطـة فقط بل لمراقبة وتنشيط التجارة التي ازدهرت بين بلاد ما بين النـهرين وجبـال طـوروس بفضل النهر الذي كان يشكل محورا مفضلا قرب مضيق "باغور" الذي يعد موقعـا ممتـازا للجميع ولنقل البضائع .

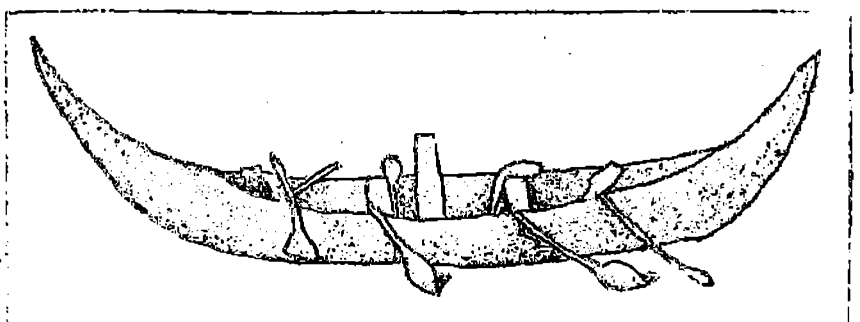
من جهة اخرى، تعتبر "ماري" المدينة الوحيدة في وسط الفرات التي يمكن اعتبارهـا على مصاف المدن الكبرى في بلاد ما بين النهرين وسورية، وليس ذلك صدفة، ان اية مدينة اخرى على بعد المئات من الكيلومترات عن النهر، لم تنل مثل هذه الحضوة والمرتبة .

كل ذلك يفيد بان نهر الفرات كان يشكل محورامهمًا ورئيسياً لازدهار بلاد مـا بيـن النهرين، كانت بلاد سومر وبابلونة تتمون بالمواد الاولية الضرورية مـن منـاطق جبـال طوروس وشمال سورية. وكان الخشب هو المادة الرئيسية التي كانت تفتقر اليه بشدة بلاد ما بين النهرين، حيث كان ينقل بالطرق النهرية اسوة بالطرق الاخرى، وهذا ما يثبـت، منـذ القديم، اهمية الدور الفاعل للطرق النهرية في الحياة الاقتصادية وفي التبادلات التجارية، فـلا مجال الان للاستغراب بان الاعمال والمتطلبات الحديثة تثبت بان السيطرة على الميـاه فـي الشرق ليست مطلوبة لانبات ونمي زراعة الحبوب فقط، او نمو النباتات الغذائية، ولكن ايضا بالمقابل لتامين نقلها الى مسافات قريبة او بعيدة .

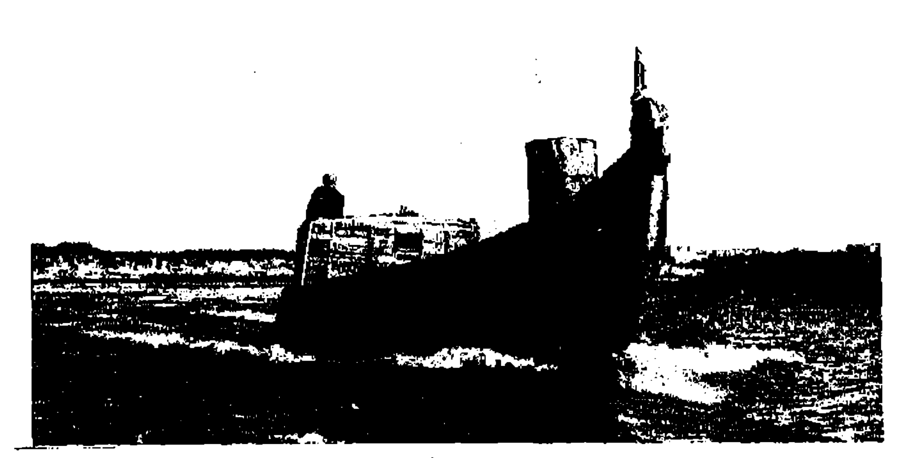


املأ القناة من مياه الساقية بواسطة الآلة القلاّبة ذات الرقاص، وعلى الجانب منها جزء من بناء منقوش من قصر "سناشيريب Sennacherib" (٦٨١ - ٧٠٤) في نينوى (المتحف البريطاني).

مشهد للصيد في المياه على قارب النفط في "أوروك"



نموذج لقارب من فضة مزوّدة بمقاعد – ومجاديف وعقّافات، اكتشفت في إحدى القبور الملكية في (أور).



مركب ذات مظهر قديم على قناة في الجنوب من بلاد ما بين النهرين

المياه دوما هي الشاغل

تسقط مياه الامطار على الارض خلال (٤٠) نهارا و(٤٠) ليلة جـ/ن ٧-١٢ انـــها مياه السماء المعرّفة بقصة الطوفان الذي ادى الى كارثة على الارض، هذه المياه مع كونـــها خيّرة للزراعة، غير انه بسبب غزارتها وشدتها وبسبب الدمار والخراب الذي اوقعتـــه فـــي الغلات والمزروعات لا يمكن اعتبارها حميدة وحسنة الطالع. ان ذكر الطوفان في الكتـــاب المقدس ليس لدى مفهوم البعض الا ترجمة عبرية عن اسطورة من بلاد ما بيـــن النـــهرين ، وهذا بحد ذاته يعكس الخوف من غزارة المطر. انه خوف مرعب حتى أن ظاهرة الطوفـــان المدمر لا يُعزى ، في الغالب، الاّ الى فيضان الانهار وليس الى الامطار الساقطة محليا. وفي الترجمة السومرية، فيما يخص الطوفان، انه الاعصار الشديد الذي يجلب الدمار، وبالنســـبة للبابلية فان المطر هو الذي سبب الطوفان.

ان اقل ما يمكن قوله في هذا الشأن هو (ان طريقة التفكير هذه تلاشت، لانه من جهتي لم اسمع قط ان الفرح عمّ عمّال الورشات الاثارية، عندما كانت تهطل الامطار بغزارة، مـــع انهم بالوقت نفسه مزارعون .

الحقيقة، ان مياه الانهار، أي المياه الجارية على سطح الارض، والمياه الجوفية تبـــدو مباركة في عقلية سكان بلاد ما بين النهرين. ان عالم الميـــاه الاولـــي أي: الابســـو "Apsu" بمفهوم سكان النهرين، يتكون من بحيرة مياه واسعة وحلوة، تعوم الارض فوقها وهذه الميـــاه تغذي الانهر والجداول، انه الاله العظيم "اينكي" او ثنائية "يا "Ea" الذي تحكم هذا العالم .

ان هذا يعكس، بلا شك، الشعور لدى سكان اراضي الطمي من واقع حياتهم في وسـط المياه التي كانت تجري على سطح الارض والتي كانت تُحدث الفيضانات بالاضافة الى انـــها كانت تحدث دمارا اكثر من مياه الامطار. وهكذا ورد في اسطورة الطوفان، ولعدم اغاظـــة سلطات المياه التي تجري والتي هي بآن واحد، ضرورية وخطرة، ولكونها تمثل (الإلهه"آنكي – وايا" فهي مباركة بالنسبة للرجال).

الدولة وتنظيم المياه

ليس بالسهل الان، تحديد دور الدولة فيما يتعلق بادارة المياه، خلال عصر تاريخي قديم جدا، ورغم توفر بعض القوانين التشريعية او بعض النصوص التي تتحدث عن الحياة اليومية وتنبئ عن الابداع وعن طرق الصيانة لاقنية الري، او عن النزاعات التي كانت تحدث بين المستفيدين.

بالحقيقة، ان الجهود المبذولة لتنظيم شبكة الري، كما ان توزيع الفعاليات، توحي بوجود سلطة مركزية كانت تتمتع بقوة وبفاعلية مكنتها من السيطرة والاهلية على تنفيذ الاعمال دون ضجة او تظاهر، من جهة اخرى، لا يصح المبالغة في التقدير للنتائج الحاصلة بسبب اجراءات السلطة الشديدة والمتشابكة مع فعاليات اخرى خاصة او التحدث عن الاستبداد في الشرق الناتج من المجتمع الهيدروليكي، وقد اورد K.a,Wittfogel في كتابه "الاستبداد الشرقي – دراسة مقارنة حول السلطة المطلقة – باريز ١٩٦٤" غير ان ذلك لا تطبق على سكان بلاد ما بين النهرين وبالمقابل، علينا ان نسمع (ر.م س ادامس – في مؤلفه "المدينة غير المنظورة") الذي يرى بان تطور نظام الري كان نتيجة للعمل وليس نتيجة المؤسسات المحصورة، يبدو الافراط والمغالات في هاتين الاطروحتين غير انهما يتطابقان مع تدرج التطورات في الشرق ولكن ضمن حدود، لان الامر يتطلب المشاركة والتفاعل المستمر والمتمم ايضا لمتطلبات الانتاج ومتطلبات المؤسسات التي نشأت وتطورت اصلا كنتيجة لبعض الحالات الاقتصادية الناجحة .

النقل عن الطريق البحري

تسمح النصوص المتوفرة، وخاصة مصنفات "ماري" التي تعود الى اوائل القرن (١٨ ق.م) وايضا الوثائق التي عثر عليها في المواقع الرئيسية وفي السهل الغريني (مثلا خلال العصر الثالث لاسرة اور) بتقدير دور واهمية الطرق المائية في حياة بلاد ما بين النهرين خلال العصور التاريخية المتقدمة، كما ان وجهات النظر الحديثة للعلماء الاثاريين توضح بان اللوحات المكتشفة ضمن هذه النصوص يقدر عائديتها الى اكثر من الف عام

مضت قبل كتابة الوثائق المكتوبة التي نحن بصدد رسمها. فان اكتشاف مدى فاعلية القناة الكبيرة التي تربط الخابور بالفرات، على مستوى من علو الجرف الصخري "لتل باغور Baghour" الواقع جنوب "ماري" يقودنا الى الجزم بانه اذا كان هذا العمل يرقى الى حوالي عام (٢٨٠٠ ق.م) علينا على الاقل، ان ننسب الى عصر "اوروك" طريقة النقل عبر المياه على مسافات قصيرة او طويلة، للمبادلات التجارية او غيرها. فقد تبين ا بعض الاقنية التي انشئت خلال الالف الرابعة، استخدمت بلا شك، للري، والبعض الاخر للنقل .

والخلاصة يمكن القول، اذا كان التطور الاجمالي في بلاد ما بين النهرين يعود فضله بآن واحد، الى تطور الزراعة والى ضخامة وازدهار التجارة، فكلاهما ارتكز اساسا على سيطرة المياه .

احكام قانون "حمورابي" المتضمن النقل بالمراكب النهرية

٢٣٤ - اذا قام احد الربان بسد شقوق الخشب بالزفت لمركب من وزن (٦٠ CUR) غور يعود لرجل آخر، على هذا الاخير ان يمنحه كاجرة مبلغ (٢ - سيكل من الفضة) .

٢٣٥ - اذا قام احد الربان بسد شقوق الخشب بالزفت لمركب يعود لرجل آخر، دون اتقان، مضعفا بذلك قدرة المركب على النقل والسير العادي، مما سبب خلال نفس سنة الاصلاح الى ميل المركب نحو الجانب، تقع المسؤولية على الربان العامل الذي يتوجب عليه ان يفكك الخشب المعطوب ويعيد ترميم المركب على نفقته الخاصة ويسلمه الى مالكه.

٢٣٦ - اذا قام مالك المركب بتأجير مركبه الى ربان آخر واهمل هذا الاخير هذا المأجور او سبب بغرقه او فقدانه، على الربان المستأجر ان يعوض المؤجر بمركب جديد .

٢٣٧ - اذا استأجر احدهم ربانا ومركبا وحمّل هذا المركب بالشعير اوالصوف او الزيت او التمر او اية حمولة اخرى، سبّب الربان باهماله، بغرق المركب او فقدانه، وبغرق كامل حمولته، تقع المسؤولية على هذا الربان الذي يتوجب عليه التعويض بدل المركب الغارق او المفقود وبدل كل مادة فقدت او غرقت من هذه الحمولة .

٢٣٨ - اذا تسبب احد الربان باغراق مركب للغير، ولكنه استطاع بمجهوده تعويم هذا المركب على الربان المسبب للغرق ان يؤدي الى صاحب المركب نصف قيمة هذا المركب.

٢٣٩ - اذا استخدم احدهم ربانا يؤدي له (٦ - غور GUR) في كل سنة .

٢٤٠ - اذا صدم مركب محمل وصاعد، مركبا آخر عائدا فاغرقه، يتوجب على مـــالك المركب الذي غرق ان يعلن رسمياً امام الله عن كل مادة فقدت أو غرقت مع مركبـــه، امـــا ربان المركب الصاعد الذي تسبب باغراق المركب الآخر يتوجب عليه دفع التعويـــض عـــن المركب الغارق وعن كل شيء مفقود .

(" أ - فينيـــه - A - Finet ") قـــانون حمورابـــي - طبـــع مؤلفـــات عـــام (١٩٧٣ ص ١١٧-١٢٠) .

يبدو ان وثيقة حركة المرور هذه انشئت في يومها الحقيقي وبكل خصائصها الانيـــة، خلال العصور الموثق وقائعها بواسطة الخط .

تتسع المراكب، والقوارب، والزوارق من (٥ الى - ١٢٠ غـــور GUR) واســـتثنائيا لـــ(٣٠٠ غور) وكان يقدر "الغور GUR "الواحد بنحو (٣٠٠ ليتر) حسب التقدير البابيلوني، وهذا يسهل حمولة زوارق ذات طاقة بين (١،٥٠ طن و ٩٠ طـــن) وان المركـــب الاكـــثر استخداما هو الذي تصل طاقته الى (٦ طن) -(أي ٢٠ غور GUR) وكـــان يتوفـــر ايضـــا طوافات او قطارات خشبية لدى الوصول بعد رحلة من البلاد المصدرة لهذه المواد .

فقد كانت تتوفر في كل مكان من بلاد ما بين النهرين ورش انشاء البواخر بأنواعـــها فكان يوجد منها في "ماري" حيث كان شمسي - حدد يصدر الاوامر لولده "ياصمة Iasmah A -" نائب ملك مدينة "ماري" لبناء (٣٠) مركبا سعة (٤٠ غور GUR) لحاجة المســـتقبل، وهذا ما يعادل (١٢ طن) بالاضافة الى عدد القوارب. وقد جرى النقاش طويلا حول بعـــض هذه الارقام تناول اهمية تلك التجارة وحركة النقل، ومن خلال هذه الاوامر البسيطة الصادرة عن الملك، يظهر امامنا صورة واضحة لعملية التموين بالخشب مصدرهـــا البـــلاد البعيـــدة، وايضا عملية توفر الاشخاص المكلفين بالصنع. ولكن عندما نعلم بوجود ورشات، مـــا هـــو الحال في "ماري"، في جميع مدن ماري من الدرجة الاولى او الثانية بالنسبة "لماري" نقـــدر جيدا الدور الجيد الذي لعبه النقل البحري في حياة الشرق اليومية

كانت مراكب العظمة والطواف متوفرة في المكان، سواء للملك او للكاهن او للخاصة وكانت على سبيل الافتراض تجوب عباب المياه لنقل الاستعراضات في مناســـبات معينـــة،

ولكن الاجور النظامية كانت تدفع لقاء نقل البضائع المتنوعة مثل: الحبوب ومواد الاعاشة الاخرى: زيت الزيتون – والسمسم – والتمر – والنبيذ المصدّر من سورية الى بابيلونة وبكميات كبيرة احيانا ومن العسل والصوف والنحاس والقصدير (والحيوانات بقطعان كاملة) وبحزم القصب .

فكان التنوع يشمل كافة البضائع المنقولة وقد عرف عن عملية نقل الحنطة بين "ايمار" الواقع على منعطف الفرات في سورية الشمالية وبين "ماري" أي بمسافة (٣٠٠كم لطيران الطير وباكثر على الطريق النهري. وكان يحدث ذلك احيانا بناء على طلب "زيمبلي– ليم" ملك "ماري" عندما كانت المجاعة تجتاح المملكة عندما استأجر عشر مراكب من حمولة (٢٠ – غور GUR) لنقل حوالي (٣٦٠ طنا) من الحبوب وكانت في حينه، تعتبر ارسالية عادية. ولكن كان هناك ارساليات اكثر اهمية وضخامة كالتي وصل حجمها الى (٤٦٠ ٢٣ حزمة قصب. فهذه الارقام التي ذكرناها تنم عن إتساع وسائل النقل الجاهزة وعن كثافة المبادلات التجارية .

كانت هذه التجارة تسلك طريق المياه بشكل طبيعي، وخاصة اذا تعلق الامر بالمنتجات الخاضعة للوزن، ولكن كان الامر يتضاعف او يتناوب عند الضرورة بالتجارة البرية التي كانت تعتمد على الحمار كحيوان حمل، فقد جاء ذكر قافلة من (١٠٠٠حمار) محملة بالحبوب من منطقة الخابور الاعلى لنقلها الى "ماري" ولم يعرف السبب بعدم استخدام الطريق النهري، ولكن يمكن قياس فرق الفاعلية بين طريقة هذا النقل البري وبين الكلفة الاضافية الناتجة عنها وحسب التقدير التالي: اذا ماقدر لكل حيوان كنتال من الحمولة كحد اقصى، فلا يتعدى الحجم المنقول (١٠٠) طنا على اساس مسافة (٢٠كم) في اليوم الواحد وبسرعة تصل إلى (٥كم) يوميا، وقد تتطلب الرحلة اربعة اسابيع تقريبا يتوجب خلالها اطعام الحيوانات وسائقيها وهذا ليس بالامر السهل خاصة عندما يتطلب الامر لسقاية كل حمار (٤٠ ليترا) من المياه. ومثل تلك النوعية في النقل تصبح ضرورية عند انعدام الطريق المائي كشمال سورية على سبيل المثال. فكانت "ايمار" تعرف جيدا خلال الالف الثالثة والثانية كمرفأ يجيز انزال الحمولة، فكانت المراكب القادمة من بلاد ما بين النهرين والعائدة اليها تلتقي في هذا المرفأ مع قوافل الحمير التي كانت تجوب سورية او كانت تحقق التماس مع مرافئ البحر المتوسط مثل "اوغاريت" ومدن الاناضول او فلسطين .

كانت التجارة غير محصورة فقط في داخل بلاد ما بين النهرين بل كانت جذورها تمتد الى كافة الشرق الادنى الذي كان يبدو ايضا متجانسا بشكل مباشر او بالواسطة ومترابطا مع محيطه. ففي نهاية الالف الرابع تمركز السومريون في سورية الشمالية: في الحبوبة الكبيرة وفي العروضة وايضا في الشمال في (حاسك – هايوك Hassek Hauk) ولهذه المراكز تتبعُ مواقع اخرى عديدة مع طول السفوح الجبلية، كما كانت هناك علاقات مألوفة ومتتابعة بين بلاد "سومر" و"مصر". اما الروابط مع الخليج الفارسي ومع وادي الهندوس كانت خلال الالف الثالثة ضيقة جدا، فقد سحبت مدينة "اور"، قسطا مهمّا من سيطرتها. وكانت (لابيس – لازولي Lapus – Lazuli) مصدرا للتموين بالاحجار الثمينة، هذا الحجر النصف ثمين ذات اللون الازرق المقيم غالبا في كافة انحاء الشرق القديم وفي مصر حيث تنتسب اليه الفضائل الرسلية " Aptropaique"، فكان التداول به، يتمّ بدءاً من مركز (شورتوغاي Shortugai) في افغانستان عبر وادي الهندوس او عبر الطريق الشمالي في ايران، مما يؤكد تداول الاعمال التجارية لمسافات بعيدة لا تنحصر فقط بالمنتجات ذات الوزن او المطلوبة بالحاح، ففي نهاية الالف الثالثة تمركز تجار مدينة آشور في "كولتيب Kultepe" التابعة لكبادوقة ومارسوا التجارة باعلى درجاتها. غير انه في ذلك الوقت، كان محور الميزان التجاري يتبدل من محور الى آخر وكانت بلاد ما بين النهرين، خلاله، تتفتح برغبة نحو الغرب أي نحو سورية بالتأكيد حيث كان يتوفر الزبائن القدماء المؤسسين، كما يتبين ذلك من مركز (حبوبة كبيرة Habuba , Kabira) في نهاية الالف الرابعة، ومن مركز ايبلا في اوائل الثلث الاخير من الالف الثانية ومن ثم في اوائل الالف الذي يليه تم الارتباط مع الاطار المتوسطي، ومن داخله كانت تدار اللقاءات مع سكان الجزر الكبرى مثل (قبرص – وكريت – وجزر بحر ايجه) .

وهكذا بدت بلاد ما بين النهرين كوسيط بين الشرق الاوسط الذي تجتازه من جهة، منطقة واسعة تمتد من وادي الهندوس الى تركمنستان تحزّ بها العديد من مجاري المياه ومحاطة بقوى بشرية مماثلة العنصر، ومن جهة اخرى، منطقة البحر الابيض الموسط التي كانت تتحضّر ولو ببطء، ولكنها اصبحت حتى مطلع الالف الثانية مركز ثقل الشرق، وقطب التطور الاساسي في المبادلات التجارية. وقد قُدر خلال استمرار هذا القطب في بلاد ما بين النهرين وقوع تبدلات في محاور التوازن بدء من بلاد "سومر" (في نهاية الالف

الرابعة وكامل الالف الثالثة) الى بابيلونة الوسطى في الالف الثانية، ثم الى سفوح جبال طوروس خلال النصف الاول من الالف الاولى .

ولكن هل يمكن تفسير مقدار اهمية هذا النظام التبادلي، في حال الاجابة "بنعم"، فكيف؟؟ ان اكتشاف الحل الوسط الطبيعي وخاصة السيطرة الناجحة للمياه الجارية أتاحت للسكان تأمين الغذاء بفضل تطور الزراعة. ولكن الحياة في بلاد ما بين النهرين والرغبة الهادفة لدى سكانها في تجاوز الحياة البدائية للوصول الى منهج حياتي افضل، يحسن استخدام المنتجات الضرورية التي كان السهل يفتقر اليها كلياً، قادت الى السعي والتفتيش فيما وراء الافق عن كل ما هو مفقود في مكان الاقامة، خاصة وان موارد بلاد ما بين النهرين محدودة جدا ويمكن تلخيصها، بالمياه – والفخار بموارده الكافية ولكنها ليست وفيرة، الحجر الكلسي الوافر، شجرة النخيل وثمرها التمور التي كانت تعتبر رمزاً للقوة والحيوية، وايضا خشبها ذات الالياف التي جعلته غير صالح لكل استخدام الزفت او القار الموجود في "حيط" على الفرات وبجوار كركوك – القصب بكميات كبيرة. وقد تمكن السكان منذ وصولهم في اوائل عصر "اوبيد" (Per) ان يستخدموا، نحو الافضل، هذه الموارد الضعيفة وتنويعها ضمن الحدود الممكنة، فيما يتعلق بصناعة الفخار، كما نراها في صناعة مناجل الحصاد المصنوعة من الطين المشوي خلال العصر الحجري الأخير. وايضا استخدام القصب في اعمال البناء، ولكن قدرة التكيف والاستيعاب ومهارة الابداع لم يتمكنا من سد فراغات الطبيعة لذلك كانت الحياة المعاشية تفتقر الى منتجات اخرى رئيسية نأتي لى ذكر البعض منها :

الحجر على سبيل المثال :

المتوفر هو الحجر الكلسي ذات صفة متدنية وايضا الجص في الجزيرة والذي لا يتوفر الا في السهول الغربية، فقد كانت المدينة في عصر "عبيد" ترتكز في صناعتها استخدام الحجر بنسبة عالية رغم امكانية الحصول على مواد أو منتجات بديلة لا بد من التزود بها .

الخشب :

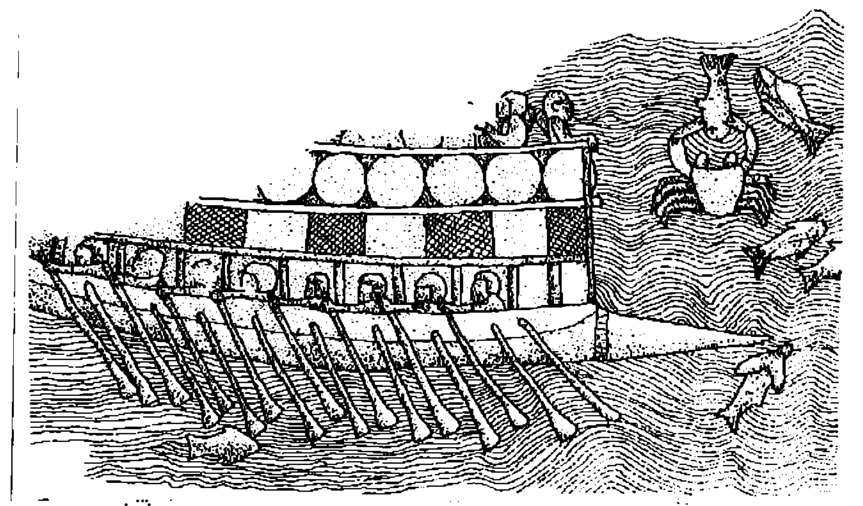
ان بعض الانواع التي تنمو بشكل طبيعي مع طول مجاري المياه مثل "الصفصاف" والطرفاء التي تنمو في الاراضي المقفرة، او شجرة النخيل الملقبة بمملكة السهل، لا تكفي

بمجموعها لسد الحاجات اليومية. وباستثناء ما كان يتطلبه انضاج الخبز اليومي الذي كان يستهلك فضلات الاخشاب واغصان الادغال اليابسة، كانت الحاجة الى الخشب ملحّة لصنع الآلات والادوات المنزلية وغيرها وللابواب والنوافذ والجسور، وللمراكب والقوارب بأنواعها والتي تزداد الحاجة اليها يوما بعد يوم، عند الضرورة، ليس من وسيلة لتامين هذا العوز من خارج المنطقة سوى الطريق المائي، كونها الوسيلة الفضلى والسهلة والاكثر اقتصادا للسفر الى بلاد سومر حيث يتوفر في سفوح جبالها جذوع الاشجار، وهذا ما يؤكد بأن نهر الفرات كان يؤمن تموين الجنوب بالمواد الاولية المفتقرة في البلاد .

المعادن :

بما ان النحاس والبرونز لم يلعبا الا دوراً ثانوياً في الحياة اليومية لم تصل بلاد ما بين النهرين، حينذاك، الى انشاء او امتلاك أي منجم للنحاس او القصدير. ولكن نحو عام (٢٥٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م) تبدل الاتجاه، حيث اصبحت السيطرة فيما بعد بيد مسالكي السبك الحديد، واصبحت المدن مثل "اور" – "ماري" تلعب دورا رئيسيا في تداول ورواج هذين المعدنين وفي عمليات المقايضة لجميع المواد المصنّعة. لاكمال السيطرة على هذا السوق وجعله كوسيط واداة تصنيع ثابت ومستقر، كان لا بد لسكان بلاد ما بين النهرين من ان تنشئ خلال هذا الزمن الطويل، شبكات وفروع للتبادل التجاري مؤهلة ومتمكنة لتزويدهم من الخارج بالمواد الاولية الضرورية، وبدون ذلك، سيعيشون حياة خاملة في عالم سيتطور ويزدهر خارجا عنهم .

ان محور الانطلاق في بلاد ما بين النهرين كان الحاجة الماسة والرئيسية لتأمين المواد والمنتجات الناقصة والتي تحتّم عليهم ضرورة انتاجها في مناطق غير مسقية بالقدر الكافي، وغير قابلة كليا لزراعة القمح اللازم للحياة اليومية. وفي الحالتين فان مياه الري هي الحل المطلوب والمناسب، كونها تتيح سقاية وارواء الاراضي الصالحة لانتاج الاغذية المعاشية، التي لا غنى عن توفرها فهذه الصناعة هي التي ادت الى تطور وتقدم بلاد ما بين النهرين، وتحضرها بعد اعدادها وبالتالي ايصالها الى وضع رفيع الشأن ضمن مجموعة بلاد الشرق الادنى .



مركب آشوري عسكري يحمل عساكر "ثلاثة جسور" (نتوء صخري)

(قصر سناشيريب) (٦٨١ – ٧٠٤) في نينوى –

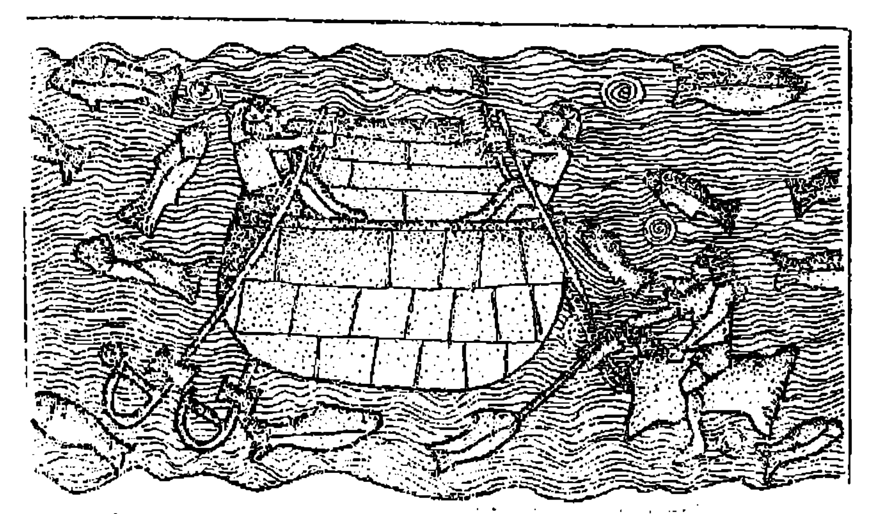
(المتحف البريطاني).



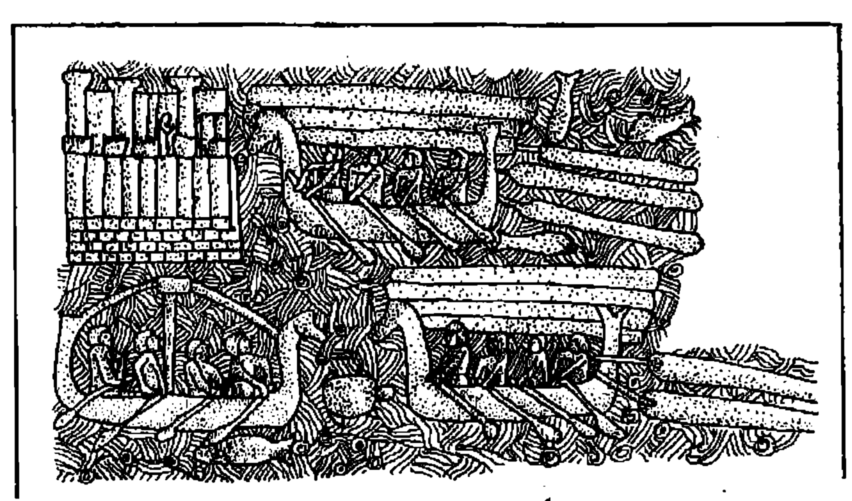
قارب من قصب يستخدم عادة في المستنقعات، أو أثناء القتال

(قصر سناشيريب) (٦٨١ – ٧٠٤) في

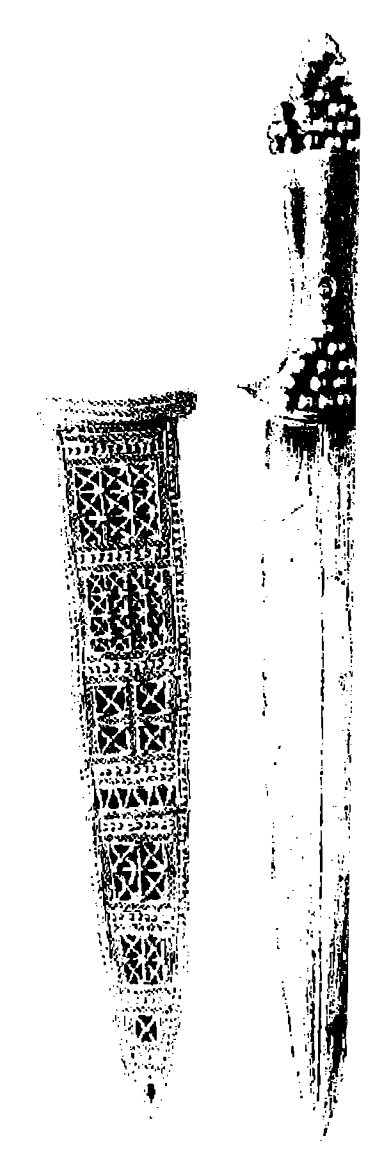
نينوى المتحف البريطاني.



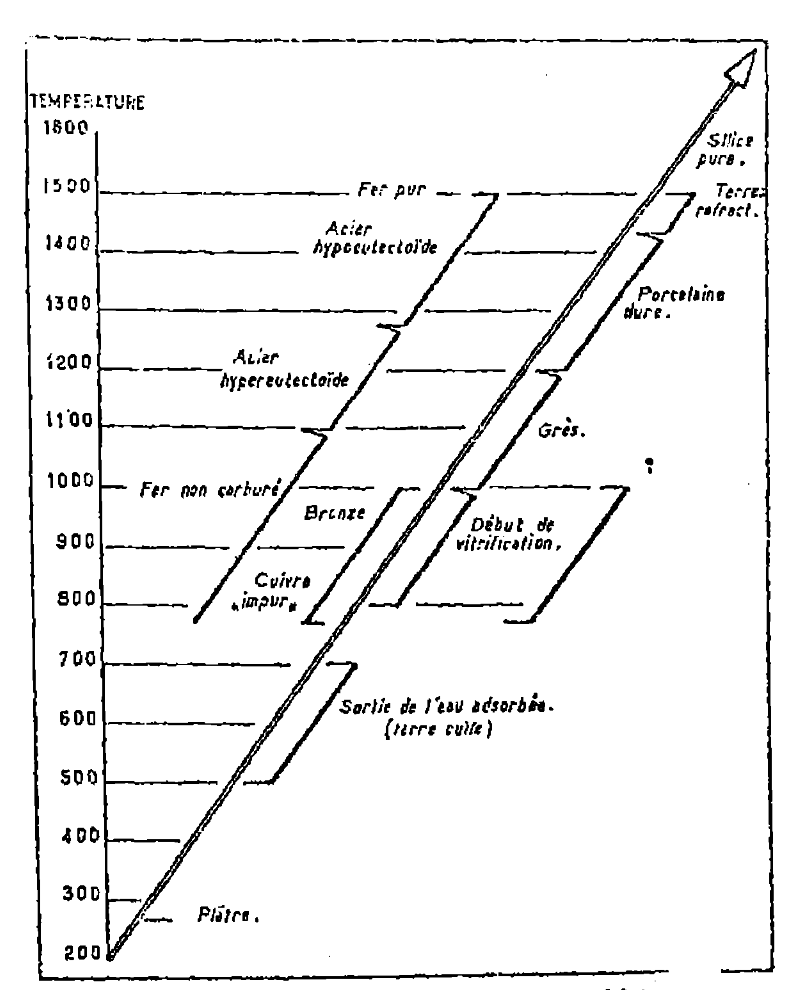
مركب ضخم مغطى بالجلود بقربه رجل يمتطي منفوخة وهو على أهبة القيام بالصيد (قصر سناشيريب) في نينوى المتحف البريطاني.



مركب يحمل الأخشاب – نقش زخرفي في قصر (سارغون) (٧٠٥ – ٧٣١) في دورشاروكين (متحف اللوفر).



المقابر الملكية في "أور" توضح هذه الصورة عن
المعادن والصيّاغ في بلاد ما بين النهرين في
ألف الثالثة فيما يتعلق بصناعة المعادن.



مخطط يبين السيطرة الناجحة لتأثير النار ونتائجه التقنية

(A. leroi - Gourhan) الإشارة والكلام ص – ٢٤٦.



إمرأة تقوم بتحضير الخبز في الفرن (التنور) في منطقة ماري

مجال سيطرة النار وتطبيقاتها

كان يمكن للمرء سابقا ان يتحول من نشّال الى منتج مفيد، فكانت سيطرته تتغير بعمل الوسط الذي يعيش فيه. هذه هي حقيقة تعدد المظاهر للتشريع الحياتي القاسي الذي ينال سلطانه في هذا العالم، وفي كثير من الجوانب تعتبر اراضي بلاد ما بين النهرين الغنية بآثارها صالحة ومبدعة لاعمال التنقيب والتحليل لكل من يرغب استيعاب ومعرفة اللعبة الكاملة والخفية لمتابعة كل تطور .

لقد استخدم الانسان (النار) منذ العصر الحجري القديم، وقد ارتبط تاريخ ارتقائه وتطوره باستخدامه للنار. وفي هذا المجال يمكن القول بأن كل درجة عليا من الحرارة تمكن من اخمادها تُرجمت بتنامي قدراته العملية في الطبيعة .

اما في تاريخ معين لبلاد ما بين النهرين، تطور التقدم في حقل النار برقمين، (١) بعد خروج الرجل من العصر الحجري القديم، اصبح اهلا للسيطرة على النار بواسطة الخشب الذي كانت تصل درجة حراراته عند الحرق الى (٣٥٠ – ٤٠٠ درجة) واستثنائيا الى (٦٠٠ – او ٧٠٠) درجة. وكان هذا هو الحد الاقصى الذي يمكن الحصول عليه من هذه الوقود. غير انه فيما بعد امكن الحصول على بعض المئات من درجات الحرارة في افران الخبز التي كانت رمزا للغذاء الجديد. وبعد صناعة وتعدين الخشب، حوالي عام (١٢٠٠) امكن الحصول على (١٥٣٠ د) كونها درجة البدء لذوبان هذا المعدن وهكذا تحقق القفز من (٨ الى ٩٠٠ د) خلال هذه الحقبة من الزمن .

اتاح هذا التقدم لحوض بلاد ما بين النهرين ولمحيطه تجاوز استخدام النار لاقل الصور عملية طهي للطعام والتوجه باستخدامها نحو تحويل المواد حسب الحاجة بدء من شئ الصور بانواعها من: كلس – وجص في بادئ الامر ثم الفخار واخيرا المعادن .

من استخدام النار في الطهي البسيط الى تحويل المادة

في ذلك الزمان، كان طهي الطعام بواسطة النار من اهم وظائفها، لنتصور بسهولة طهي قطعة لحمة ضمن موقد نار (الصيادي الموستيريان mousteroien) ومنذ العصر

الحجري القديم كان الاهتمام الاول في استخدام النار هو طهي الخبز اليومي وهـذه العمليـة لعبت بالتأكيد دورا رئيسيا في مسلسل تقنية النار، وفي مضمار هذا التطور تولدت في حينـه فكرة اختراع الفرن الذي اتاح حصر النار ورفع درجة الحرارة بعد انكسارها مع مـا هـو حولها على الارض. في البدء كان الخبز احيانا يشوى وهو تحت الرماد واحيانا عن طريـق التّماس بالاحجار الحامية جدا، ولكن الفرن الخاص بالخبز لم يظهر الا في العصر الحجـري القديم، ويمكن وصفه بالمستدير والبيضوي واحيانا ذات شكل متعامد، وجزء منه مغمور تحت مستوى ارضيته، وهو بمثابة حوض فتحته الوحيدة باتجاه الاعلى، وعند الاستخدام يحرق فيه اغصان العليق واشواك الغابة أو براز الحيوانات اليابس، وتصل حرارته عند الاشتعال الـى (٣٥٠ – ٤٠٠ د)، وقد استخدمه السكان الرحل بكل رغبة منذ ظهور المعدن وحتى زمننـا الحالي، ويتالف من صفيحة معدنية محدبة، تجويفها نحو الاسفل ترتكز عند اشتعال النار على موقد النار فيستقبل العجين لتحويله الى خبز بتأثير حرارة النار. وهذا الاجراء لا يـترك أي اثر بعد الخبز. واثناء عمليات التنقيب لم يعثر عادة الاّ على آثار موقد او فرن الـذي كـان يستخدمه السكان الحضر والذي يستقي منه علماء الآثار الادلة المطلوبة .

وقبل اكتشاف السيراميك، ولدى الرغبة في رفع درجة حرارة سائل ما يمكن ان يغمس في هذا السائل احجار محمية بواسطة النار، لانه لا يمكن لاي وعاء من الخشب او الجلـد او قصب السلال ان يتحمل هذه الحرارة .

لا تتوفر المعلومات التي تؤكد تماما كيفية ابتداع النار في بلاد ما بين النهرين فكـان اقدم وسيلتين لاشعال النار هما: الحصول على الشرارة بواسطة القَدحْ، او التلامس مع الفرك فقط، وهما شائعتان منذ القديم، فالنصوص في هذا المجال كانت نادرة وغير واضحة، وتوحي بان الصوان هو الذي كان يستخدم سابقا بطريقة فركه بقطعة معدنية صغيرة، وهناك حديـث متناقل عن استخدام "حجر النار" المركب من (كبريتوس الحديد Lgrite) غير ان المصريـين في الجوار كانوا لاشعال النار، يستخدمون مدار من الخشب القاسي يُحركْ بمثقب يدور ضمن قطع مجوف من الخشب مملوء بالمواد القابلة للاشتعال، ولا يستبعد من ان سكان بلاد ما بين النهرين كانوا يستخدمون هذه التقنية. وكانوا سابقا يهتمون بحفظ النار في مواقد نار عائليـة، وفي الحوادث الطارئة كان يلجأ الى صومعة المدينة أو الحاضرة لاعادة التزود بالنار .

الكلس والجبصين

لاول مرة استخدم الانسان ما يحيطه من المواد المعدنية للحصول على الكلس والجص، بواسطة فعل النار، فلانتاج الكلس لا بد من حرق الاحجار الكلسية، اما بالنسبة للجبصين يستخرج عن طريق احراق الجبس، اما الفائدة المستخلصة هي بمزج هذين المنتجين بالمياه للحصول على المادة واعطائها الشكل المطلوب .

وقد لوحظ بان التجارب الاولية تمت في "بيدهة" في فلسطين الجنوبية خلال العصر (٣) -(٧٦٠٠ - ٨٣٠٠) وامتدت هذه التجربة بسرعة في سائر الشرق حيث اصبح استعمال الكلس شائعا وثابتا وخاصة في البلاد ذات الاراضي الكلسية. وخلال العصور (٣ - ٤ - ٥) أي (٧٦٠٠ - ٥٦٠٠) امتد هذا الاستعمال نحو الشمال مثل "ابو هريره - الاناضول" وفيما بعد في العصر (٦) والعصر (٩) أي (٥٦٠٠ - ٢٧٠٠) تعمم في جميع بلاد الشرق الادنى، اما في الشرق والجنوب منها كان يفضل استعمال الجبصين .

كان للكلس والجبصين استعمالين رئيسيين، فالاول: الذي له النصيب الاوفر كان يستخدم في اكساء الواجهات والحيطان كليا أو جزئيا وأيضا للاساس بطبقة تتراوح في سمكها بحيث تؤمن من المتانة والوقاية والمظهر الحسن، بحسب نوع البناء ومتطلباته مثل: حفر الغلال - الخزانات - الدكات المرتفعة - المقاعد وغيره ... من المنشئات التي تحتاج الى مادة واحدة فقط. اما الاستعمال الثاني الذي كان يتطلب مدة محدودة، كان يتناول صناعة الاواني المسماة من قبل علماء الآثار (الاواني البيضاء) التي لها فائدة عظيمة خاصة عندما حلت محل الاواني الخشبية واواني القصيب المغطاة بالفخار الذي لا يزال شائع الاستعمال. كما سبقت ظهور السيراميك الذي يتمتع بمقاييس اخرى. وهذا يدل على ان الحاجيات على اختلاف انواعها اصبحت تستدعي استخدام المواد القابلة للتطريق أو التصفيح لتصنيعها باشكال مختلفة وهي بتماس مباشر ومقاومة مع حرارة النار .

من الناحية التقنية، امكن الحصول على مادة الكلس والجبصين بطريقة موحدة أي باحراق الحجر، ولكن الامر يختلف بالنسبة للمدة ودرجة الحرارة. لانه للحصول على الجبصين يكتفى بتحمية الجبس الى درجة تتراوح بين (١٠٠ -٢٠٠٠) درجة، بينما الكلس يحتاج الى (٧٥٠ - ٨٥٠) درجة منذ البدء بالحجر الكلسي، مما يبين الفرق الكبير الذي لا

يمكن تصنيفه ضمن درجة التقنية المتوسطة، والنتيجة التي لا يمكن استخلاصها من النـــار التي تزيد حرارتها عن (٨٠٠ د) في العصر (٢) أي نحو (٢٠٠٠) وقبل ممارسة الزراعـة، هي الدلالة الثابتة التي تؤكد حصول التطور المبكر فـي الـهلال الخصيـب، امـا الوقـود المستخدمة فكانت من النباتات اليابسة ومن اغصان الاشجار المثمرة، مع العلم بأنه عثر على آثار افران في تل الرماد بسورية، وفي ام الدباغية في شمال العراق .

يعتبر اكتشاف الكلس والجبصين محطة رئيسية في السيطرة على تقنيات تحويل المواد للاستفادة منها في المساكن وفي الحياة المعيشية اليومية، وقد دل ذلك على ان التطور التقنـي لدى سكان بلاد الشرق الادنى لم يتبع التطور الزراعي، بل بالعكس، سبقه في العديـد مـن النواحي، واذا كانت قدرة الابداع لدى سكان الهلال الخصيب متعددة الاشكال، فهي متصلـة بدقة بمراحل اختبارية طويلة جدا، بينما (الاواني البيضاء) كما وصفت، لم يكن لـها اصـلا مباشرا، ولكنها لعبت دورا اساسيا في تنمية صناعة السيراميك .

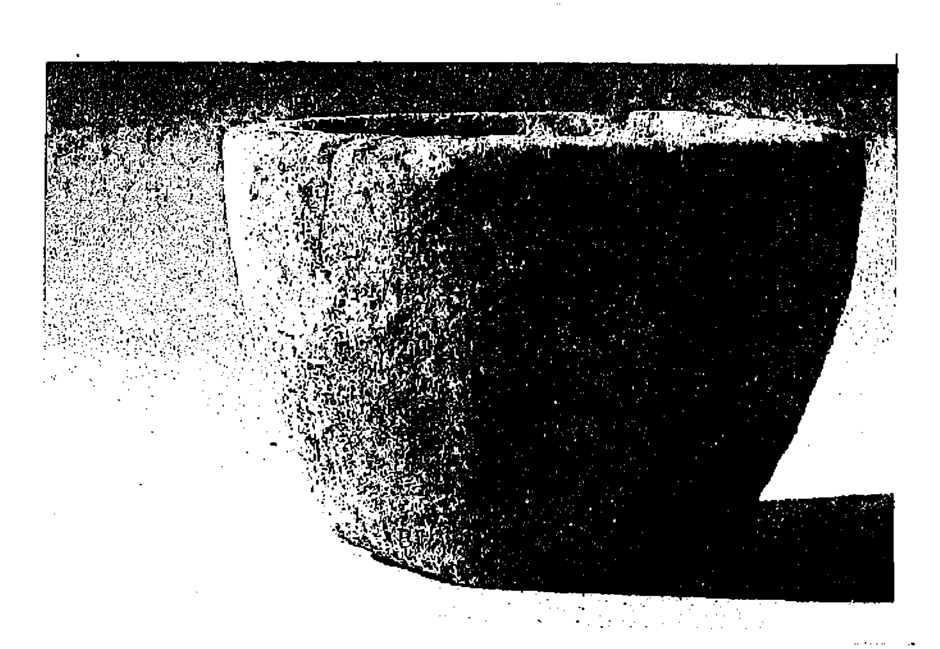
الخزف السيراميك

جرت العادة على اعتبار الخزف كالزراعة، وكأنه وصفا وامتدادا للعصـر الحجـري المصقول، ولكن التنقيبات التي قام بها "ك . كينيون" في اريحا اوضحت منذ خمسون عامـا بأن الخزف ظهر نحو عام (٦٠٠٠) مما يدل على ان تقنية الانتاج الغذائي كانت داخلة ضمن الممارسات العادية منذ العصر الاول "بين–آ–ب Ppn, A, B – Pse – Pottesy – Neolitloe " " آ وب" .

على هامش التنقيبات الجديدة ظهرت الحقيقة لمرة وحيدة، ولكنها اكثر اكتمالا. وقـد تبين فعلا بان العديد من المواقع تعود الى الالف السابعة وكانت تحتوي بشكل مفتّـت علـى كسور خزفية بكميات قليلة وفي "المريبط" ايضا خلال الالف الثامنة سبق العثور على اجـزاء من قطع الخزف المكسّرة والسيّئة الشيّ، تُعدّ اليوم اقدم ما عثر عليه، ولكن لا يبدو انها خلف مباشر لغيرها. وقد قادت تلك اللقيات الى اعادة النظر في امر اكتشاف دقيق ومنتظم سيشـهد انتشارا واسعا.



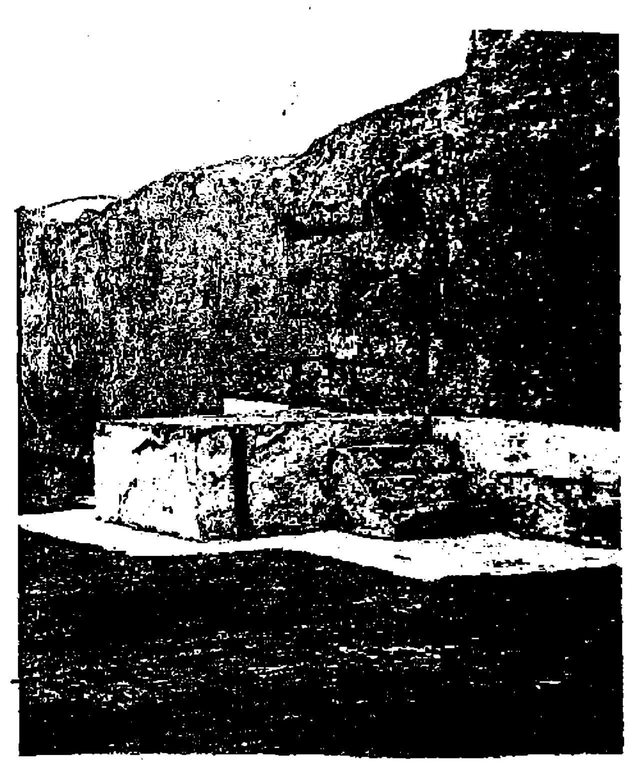
بقايا أدوات طبخ في فرن للخبز في موقع خلال منتصف الألف الثالثة في "ماري".



نموذج من (الأواني البيضاء التي عثر عليها في بخراس Bouqras).



استعمال الجبصين في هندسة البناء مدخل بدرج يؤدي إلى سور مقدس في قصر ماري ب -١- أي العصر -١- من منتصف الألف الثالثة.



دك من الجبصين في الصالة الكبيرة -٦٤- في القصر الملكي الكبير في مدينة 'ماري' يعلوه تمثال لآلهة ممثلة في إناء متفجر.

ان مرحلة طويلة سبقت الزمن الذي تبنّى خلاله جميع الشرق الادنى هذه منذ الالف السادسة، ومن هنا وهناك ظهرت نشاطات متواضعة ثم اختفت، كما كان الحال في "مريبط" لذلك يجري الاهتمام اليوم عن الخزف (المتقطع)، ولكن ليس من المناسب التبصّر والنظر بسلسلة من هذه القطع التي عثر عليها ثانية، ثم طويت فيما بعد في زوايا الاهمال، بل من المفضّل الاهتمام والتفحص في لوحة هذا المكتشف، بعد أن عرف بأن الوسط المتوفر في هذا الخزف يتمتع بخاصية هذا النوع من الحجر الفتي القديم. وفي كل مكان كانت استطاعة التقنين متوفرة لانتاج الخزف، ولكن كانت (الاواني البيضاء) تلبي الحاجات الاولى من الاواني التي كانت تتطلب المزيد من الصلابة. ولكن الخزف كقدرة تقنية أفضل، يجب اكتسابها، لم يكشف عن هذه الفائدة الا بعد استخدامه في طلبية الخزف الجديد الذي اتضح انه يمتلك خاصيات متوافقة تميّزه على خزف (الاواني البيضاء) .

بالنسبة للخزف يوجد ملاحظة بسيطة تتعلق باستخدام النار وملخصها: قساوة الارض حول وتحت موقد النار، ومثل هذه الملاحظة لا يمكن اغفالها دون ردة فعل بعض الرجال الذين لهم ذهنية خاصة تجاه محيطهم الطبيعي ويظهر للعيان وكأنها اكثر وضوحا وابداعا. لا يمكن معرفة اقدم الوقائع التي ابرزت هذا الاختراع وكل ما امكن معرفته ان اول استخدام للطهي كان في موقد نار العائلة، وكان يتناول ايضا تماثيل صغيرة من الطين وبعض الاشياء البسيطة البدائية الصنع، كالتي عثر عليها في "مريبط" اما عن كيفية استخدامها كأوانٍ، من الممكن انه كان يبدأ بشيّ الفخار لكافة محيط الاناء وايجاد الفتحة الممكنة فيه لوضع المونة داخله، واذا توفرت القدرة فيما بعد القيام بتطويع وتكييف المحتوى .

ومهما كان المنشأ لا بد من الاعتراف، بان صناعة الخزف قد ظهرت منذ الالف السادسة بعد الاعداد الجيد، ورافقها ايضا مقدار جزيل من المعرفة ومن العمليات المختلفة التي كانت تتطلب استيعاب ومعرفة العديد من الظواهر الطبيعية كما تتطلب السيطرة على التقنيات المتنوعة. مثال:

المعرفة في حسن انتقاء الارض، بالنسبة للفخار فهو يحتوي على الاولومين – والرمل الصواني، وعناصر معدنية بكميات مختلفة التي أثّرت على لونه .

يمكن تنقية هذا الفخار من مجمل شوائبه، ولكن يتعذر تطهيره كليّا لانه يتقلّع ويتشقق عند الطهي أو الطبخ، حيث اثناء ذلك يضاف اليه عناصر غير بلاستيكية، يقال عنها بانها

مزيلة لبقع الدسم ومخفضة لعامل اللدونة، لوجود نوى من التبن او العشب اليابس او الرمل او كسر الخزف او اجزاء من الفحم وحتى من ناعم الحصى، فكل ذلك يكوّن مزيجا يؤدي الى عجين متجانس .

تنتهي عملية الصنع، بعد التسوية والطحن أو بالدوران حيث كل مرحلة تكمل الاخرى اما التسوية فهي الشكل الاقدم في عملية الصنع .

ان الدوران أي الخراطة تمثل موقفا كبيرا في تاريخ الخزف. فان استخدام اداة التدوير (الخراطة) التي هي صفيحة صنعت باليد خلال الالف الرابعة، سبقت اختراع المخرطة التي يعود بدء صنعها الى نحو عام (٣٠٠٠) في "اوروك" وقد امكن بواسطة هذه المخرطة ترقق الحواف وتهيّف الاشكال، اما المقاطع الجانبية فإنها تزيد وتبرز حزوزها، وخاصة ابراز نتوآتها.

وخلال المرحلة اللاحقة المخصصة للتنشيف يمكن ادخال بعض الاعمال المتممة مثل : الحاق ضم المقابض او العراوي، او عمل الديكور والدهان :

ان دهان الفخار هو ابسط عملية في الطلي، وتتم بغمس الخزف في مغطس ارضي فخاري او في اناء مزخرف من الخزف الذي ينظم تسوية السطح .

اما الصقل فيتم عن طريق الفرك بالمصقلة التي تجعل السطح لامعا .

يضاف الى ذلك عمل بسيط الذي يجب ان يتناول الصقل فيمكن القيام بواسطة قبضة من الحشيش، وكان يتم التنعيم باستخدام قطعة من الخشب .

كانت الزخارف تجري بواسطة العجينة اللينة، غير مكتملة النشاف، ويباشر باعطاء العجينة الشكل المطلوب: سواء بالحز أو القطع أو الالصاق أو الختم، عند الحاجة تطبع الصورة على العجينة ويجب ان تتميز بالطابع العضوي، وان يتم طبعها قبل شيّ العجينة او القيام بالدهان.

كان الشي بالنار يعتبر آخر عملية في هذه الصناعة، والمظهر النهائي للخزف يعتمد بقسمه الاكبر على طريقة الشي وعلى درجة الحرارة المكتسبة .

كان الشي يقوم بالهواء الطلق بعد وضع مادة الخزف المراد شيّها على وجه الارض او ضمن حفرة صغيرة بعد احاطتها بالوقود. ولاجل حصر اكبر كمية من الحرارة كان يغطى الوقود يعطي المشتعل بالخزف، الأمر الذي كان يُحسّن طريقة الشي، ورغم الحاجة الملحة

للهواء أي للاوكسجين فلا مفر من حدوث المناخ المقلل للبياض النقي، حيث يبقى لون العجينة مُسمراً او مسودا. ولكن لمعالجة هذه الناحية كان يلجأ الى احداث فتحات في الغطاء الخزفي للوقود بغية تسرب الهواء الذي في حال جريانه يولّد اكسدة هذا الخزف الذي كان يزداد احمراراً سطحه فقط، لان نقص درجة الحرارة كانت تحول دون وصول الاحمرار الى كافة قطع الخزف .

اما الفرن الحقيقي هو، فقط، الذي كان ينتج الخزف المشوي بصفات ملائمة، بسبب حسن طريقة تلقيه الهواء النقي والكافي المؤكسد. فعندما يكون الفرن حسن التحضير والتنظيم، وايضا عندما يحسن فصل غرفتي التحمية والشيّ عن بعضهما بأبعاد مناسبة يمكن ايصال حرارة الفرن بين (٨٠٠ – ١٢٠٠ درجة) .

خلال الالف الرابعة امكن استيعاب ومعرفة مراحل صنع الخزف والسيطرة على انتاجها، ولكن فيما بعد، امكن التوصل الى منتجات جديدة مفضلة بعد التوصل الى رفع درجة الحرارة اثناء الشي اكثر من السابق، لقد وصلت المرحلة اللاحقة فعلا الى تزجيج (Vitrifictlion) عجينة الخزف كما شهد اوائل الالف الثالثة ظهور صناعة (اللؤلؤة المقلية) التي اعتبرت المرحلة الوسيطة في عملية التزجيج. وفي عصر "جمدت نصر" كانت هذه اللآلئ تمثل الصناعة البديلة للآلئ الحقيقية للاحجار الكريمة (العقيق الاحمر) واللازورد السماوي .

اما في الالف الثانية ظهرت عملية دهان الخزف، ويعتقد البعض ان تداول هذا الدهان تعمم على اثر عملية تزجيج مفاجئة، مع انه لم يعرف ابضا مبدأ استخدام الدهان، الذي للحصول عليه يلجأ الى وضع مزيج من الكلس ورمل الصوان والصودا ضمن حفرة، والقيام بشي هذا المزيج بطريقة جديدة مناسبة في تتابع درجات الحرارة، والتي تعطي الالوان. وهكذا امكن بدء من الالف الثانية، وخاصة الالف الاولى تجديد ديكور الاواني وواجهات بعض الابنية الرسمية بواسطة الدهان الخزفي والواجهات المزينة بالقرميد بزخارف جميلة متنوعة، كما هو الحال في زخارف "باب عشتار" في بابيلونة .

فلم يكن بالمستطاع صناعة الزجاج الا بعد اجراء مختلف التجارب في شي المواد الطينية خلال الالف الثانية. فقد سبق ان اجريت التحاليل في كافة مناطق الشرق الادنى وليس فقط على الشاطئ الفينيقي، للعديد من الاشياء الزجاجية التي صنعت في هذا العصر وفقا

للعمليات التقليدية سواء بالنسبة للحجم او للصقل، ابتداء من كونه حجرا الى عمليـــة النفـخ والطحن وغيره التي بوشر العمل بها في نهاية الالف الاولى .

تطور العمل بالسيراميك في بلاد ما بين النهرين

اصبح الخزف بسرعة فائقة الشغل الشاغل والعملية المستحجرة ذات الاهميـــة لعـــالم الآثار لانها كانت تقدم الفائدة التي تفوق فوائد المنتجات الاخرى في الصناعة البشرية، كمـــا كانت تمثل جملة من الخصائص الثقافية المتماثلة لمعطيات سابقة خلقت ميلا طبيعيـــا نحـــو التفكير المبكّر لايجاد تقنية تتلوها ثقافة يُمكنّا الوصف والتبسيط للخطوط التشكيلية او الايقونية لمادة الخزف. وفي الكثير من الاوقات، تعرض هذا النوع من المواد لانتقادات مبررة من قبل البعض وخاصة تجاه ما يتعلق بمنهجيتها. غير ان الخزف بكونه عرضة لوقائع خاصة به، لا تختلف عما تتعرضه المواد الاخرى من وقائع ايضا، لقد سلك طريق التطور كسائر المـــواد الاخرى .

في اوائل الالف السادسة كثر عدد اللقى من الخزف لدرجة امكن بواســـطتها تقويـــم سلسلة من النماذج والتصانيف. ورغم ان عدد الاشكال ليس بالكثير، غـــير انـــها تنوعـــت واصبحت اهلاً للقيام باستعمالات عدة مثل: استعمال الخزف بوضعه المعتاد دون زخارف او استخدامه مزينا بزخارف مرسومة على العجينة بشكل مباشر او عن طريق الدهان. وكـــان باستطاعة كل موقع ان يقدم احد الانواع او النوعين معا .

سبق لاحد اوائل افران انتاج الخزف ان انتشر في شمال سورية فـــي سفوح جبـــال طوروس وقد امتد فيما بعد الى بقية المناطق المجاورة حتى دمشق وقيليقية، كان بناء الفـــرن على غاية البساطة فهو كروي الشكل، ذات سطح معتم ولكنه ملمّع، لـــه زخـــرف مخطـــط ومطلي بالكامل على سبيل الصيانة. وفي موقع "بخراس" ظهر زخرف مطلي أعتُبِرَ زخـــرفٌ كنقطة تحول نحو بلاد ما بين النهرين وكذلك في "ام – للباغية" اتسع حقل الامكانيات حيـــث صنعت فيها الكاسات ذات الفوهة المستديرة وتمثلت بزخرف احمر صنع من (حلية معماريـــة على شكل شارات عسكرية) وبنقاط درز على ارضية صافية وفي "حسونة" شوهدت جـــرار كروية لها رقبات قصيرة، وتتمتع بزخرف له حزوز ناتئة على شكل مثلثات تحمـــل رسـم

الشبكة، هذا بالاضافة الى صور وزخارف ملونة – اما "سامراء" فقد قدمت لنا منذ اواخر الالف السادسة النموذج الاول لسلسلة من الجاطات والاواني المتنوعة طبع عليها زخارف باللون الاسمر الغامق وبأرضية صافية مزودة بنقش طبيعي يرمز الى عقرب او جمجمة او ثور او دائرة رقص من النساء يطوف شعر رؤوسهن بالهواء او بزخارف ذات شكل هندسي.

كان لظهور الزراعة في "حلف" الواقعة في سفوح جبال طوروس، وانتشارها في الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين وحتى اقصى حدودها، كشف مميز تمثل بخصائص حسنة في زخرفها، وفي النماذج التي عثر عليها سواء ما صنع منها للتصدير او للحاجة المحلية المقلّدة، وكان يوجد قسم من الخزف الاحادي اللون والملمع، ينتهي بزخرف متعدد الالوان كالاسود والاسمر والاحمر والابيض على ارضية مشمشية، غير ان الآنيات الاولى المطلية بالاسود والاحمر تحمل زخارف هندسية تتدرج بلفافات يجانبها واحيانا بترقيمات مجزئة توحي بحقل للمنحوتات، اما الرموز أو كنة الموضوع يُعيد الى الاذهان ما عرف في "سامراء" ولكن مع فهرس لرسم الحيوانات اكثر غناء، حيث تمثل فيه، الفهد، والحية، والطيور، ورؤوس الحيوانات، بالاضافة الى زخارف الازهار. اما تنظيم الزخارف التي تبدو في التحليل اقل غناء من التحاليل المجراة في "سامراء" كانت قد احرزت نجاحات استثنائية وخاصة قبيل نهاية هذه التقنية ويثبت ذلك، الجاطات الفخمة المتعددة الالوان ذات الزخارف المتحدة المركز والهندسية كما هو الحال في (ارباتشياه Arpatchiyah) .

وهناك ايضا سلسلات اخرى اساسية كانت قد تطورت في "زاغروس" (أي في جارمو) وفي وزيان ولكن عصر "عبيد" هو الذي فيما بعد، لعب دورا رئيسيا في بلاد ما بين النهرين منذ نهاية الالف السادسة وحتى منتصف الالف الرابعة، وتأتي اهمية هذا الدور بكونه غطى كامل الشرق الادنى، ونقل بوادر التوسع والتطور الثقافي بعيدا وبعمق – ومترجماً لقدرة هذا التحضر الذي استند تطوره المتتابع على المبادلات التجارية. اما المصدر الاساسي لهذا الخزف كان "العراق الجنوبي" في (العريدي وتل العويلي A – ridu et telle Oucili) بقرب"لارسا"، وقد تمثلت فيها عجينة الخزف الخضراوية المطلية بصفاء كانت باكورة لسلسلة من الكاسات والصحون والجرار الصغيرة طبع عليها زخارف هندسية سمراء اللون وذات قاعدة صافية وهي لا تمثل أي تجانس مع خزف "الحلف" من حيث احادية اللون او الزخارف، لان تطور تقنية الاشياء ذهب بعيدا الى معنى اختلف كثيرا

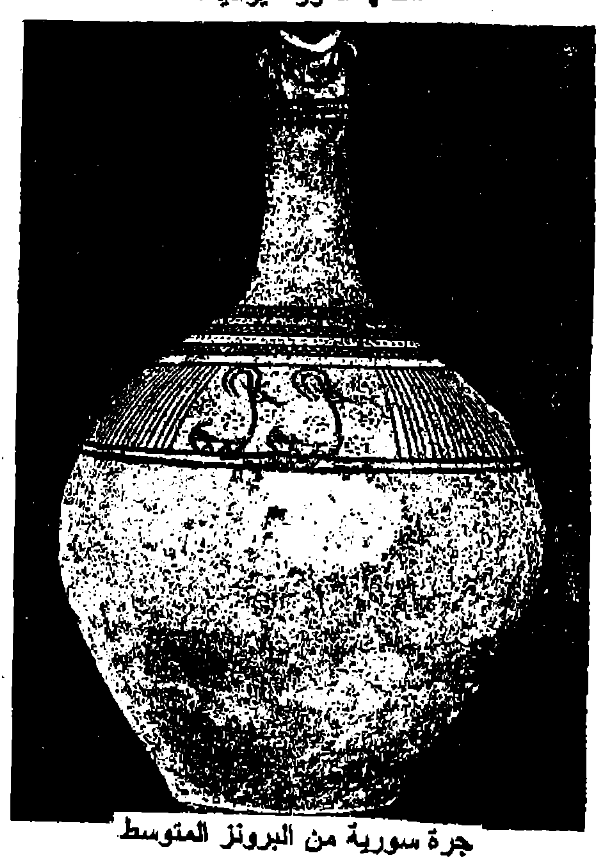
عما كان في عصر "الحلف"، فقد ازدادت قامة الجرار واصبحت مزودة بقبضات وعــروات، وظهرت اواني بشكل مسلحفاة خلال الالف الثانية، وزينت حواف الكاســات بالشــفاف، كمــا صنعت مجموعات وصلت الى الشهرة تشبه قشرة البيض. وفي نهاية الحقبة الرابعة، ابتكــر صنع الزجاجات ذات العنق الطويل وصنع الكاسات الحلقية الشكل. فكان هذا التطور المتعــدد الاشكال مثيرا للاهتمام وموازيا لصفات الزخارف، بل اشتركا معا في الرواج، حتى انه تمكن انتاج العمل الفني الرائع في (سوس Suse) .

وفي عصر "اوروك" تلاشت عادة طبع الصور على الاواني وتلاشت معها الطريقــة الفنية المشهورة والمعبرة ثقافيا في بعض الاحيان، ومع ذلك، كان يصادف بعض المجموعات المصورة من وقت الى آخر وفي امكنة محددة مثل: المثور على هذا الخزف فــي "نينــوى – ٥ –" (– ١٦١) في بلاد ما بين النهرين الشمالية في اوائل الالف الثالثة، وفي "عيلام" ايضا بعد عدة قرون ، يوجد منها "سوس ب". وفي سورية الشمالية عثر على اباريق وجــرار بزخارف حيوانية بغاية الدقة والاتقان في اوائل الالف الثانية، فكانت امتدادا للتقاليد الشــرقية في الزخارف، وعلى اثر نتاج الخزف المرهون خلال الالف الثانية استعادت بلاد مـــا بيــن النهرين ذوق التلوين، بعد ان اصبح الثمن والايراد مرتفعا لمثل هذه التقنية، ورغــم فائدتــها وجمالها الفني، ويسر استخدامها تلقى الرواج والتعميم بسبب ضعف احكام السد في الجوانب .

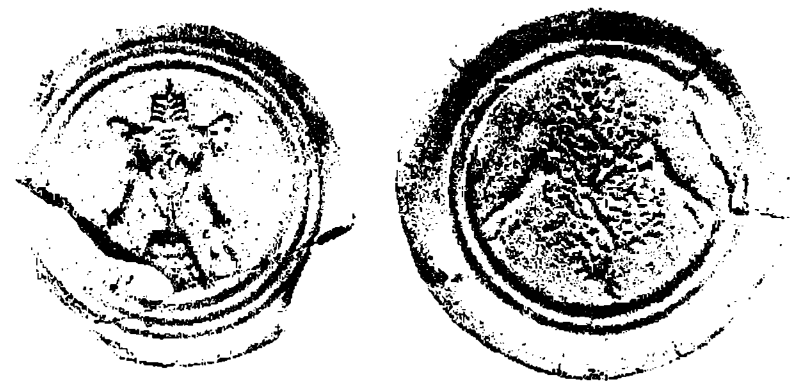
اما ندرة نوع هذا الزخرف كان سبب عدم اهتمام علماء الآثار كثيرا بخزف العصــور التاريخية القديمة لبلاد ما بين النهرين، لان انتاجه لم يكن ينتشر الّا تبعا للفائدة التجاريـــة او المنزلية ولكونهم، أي العلماء لم يجدوا اية فائدة في تركيز الجهود على دراســـة لا تتعــدى الشكل والصفات المادية. ومع ذلك، اتجه الجهد في السنين الاخيرة نحو العودة الـــى الاخــذ بدراسة المواد الخزفية ولكن مع التركيز على تطوير تقنية المواد، التي ادت الـــى اكتشــاف الميناء والزجاج. وهكذا بالاستناد الى: طبيعة الارض الحاوية للخزف والى مراكز الانتـــاج والى تصريف نتاج الجرار وفقا للطرق الاقتصادية، واخيرا، تبعا للفروقــات الناتجــة بيــن الصنع المنزلي والصنع التجاري فقد ادى ذلك الى احلال دور دولاب الخزف في المعامل .



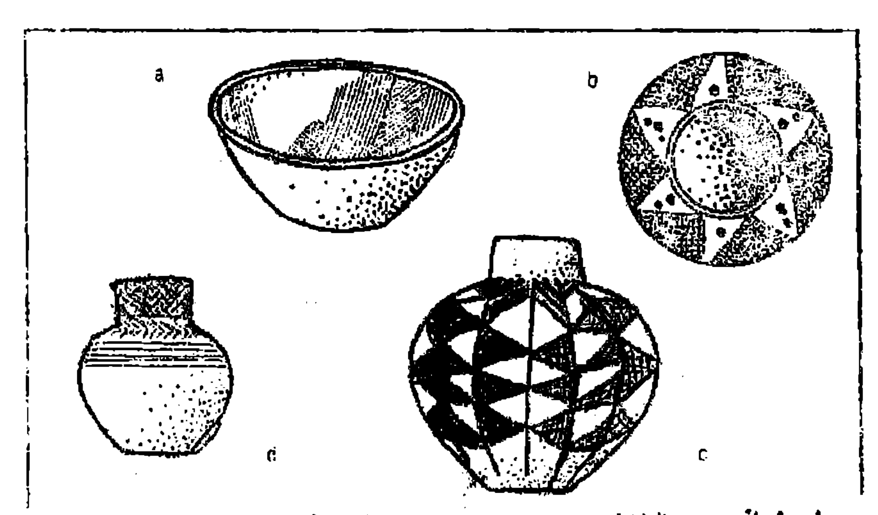
إناء يعود لعصر نينوى (٥) مصدره سفوح جبال طروس، فقد تم صنعها يدوياً وهي مغطاة بزخرف مع فواصل مقسمة إلى مقاطع بارزة تخللها صور حيوانية.



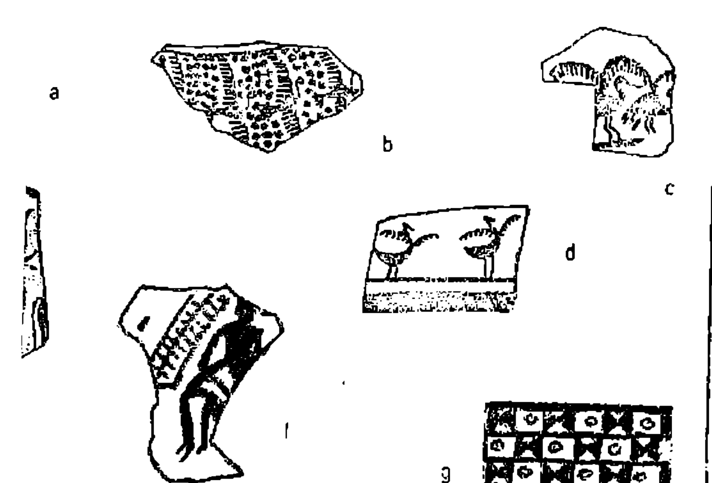
جرة سورية من البرونز المتوسط



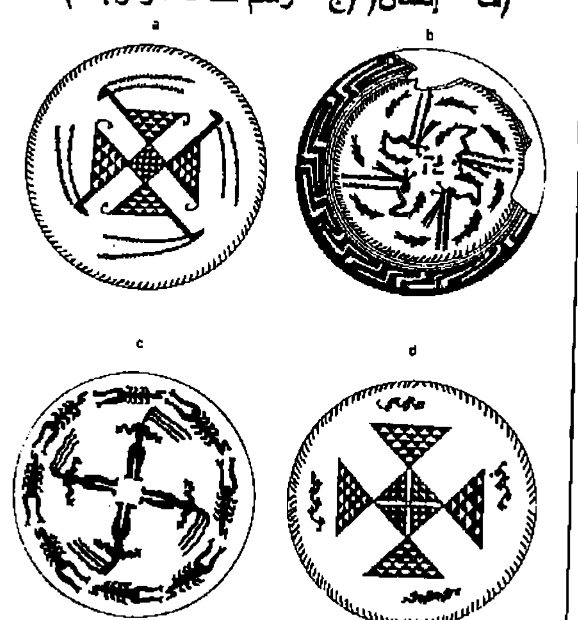
مطحنة من الطين المشوي لخبز الكعك عثر عليها في قصر "ماري" يشاهد على صورة اليسار رأسان من نوع الماعز يعلوهما حزمة من النبات.
أما صورة اليمين تحمل فكرة قريبة من الأولى وأقل روحانية.



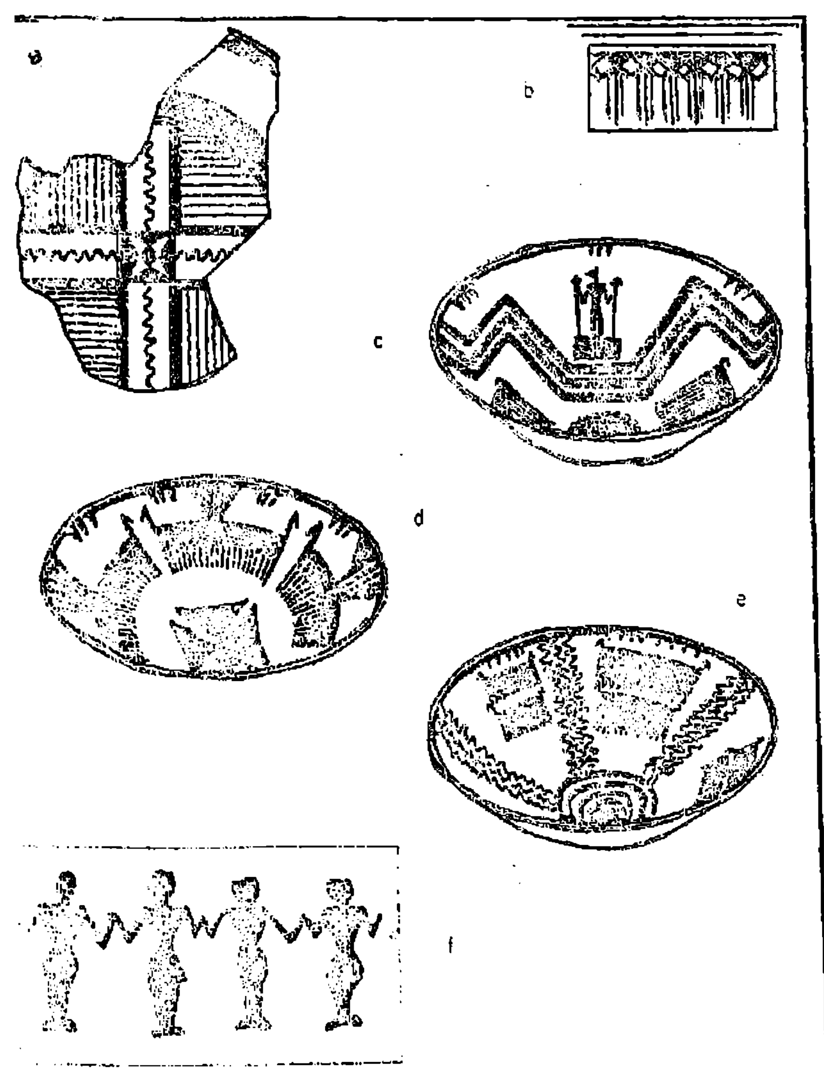
بعض نماذج من الخزف من عصر (حسونة) في الألف السادسة (الصورة آ – ب رسوم) – (الصورة س. محززة) – (الصورة – د- رسم وتحزيز–).



زخارف تمثل حيوانات ورموز أخرى صنعت من الخزف في عصر أواخر الألف السادسة. (آ- جمجمة مخططة) (ب - عصفور (د - س - عصافير على أهبة الطيران (ي- ايل جاثي/ (ف - إنسان((ج - رسم قطاعة مزدوجة).



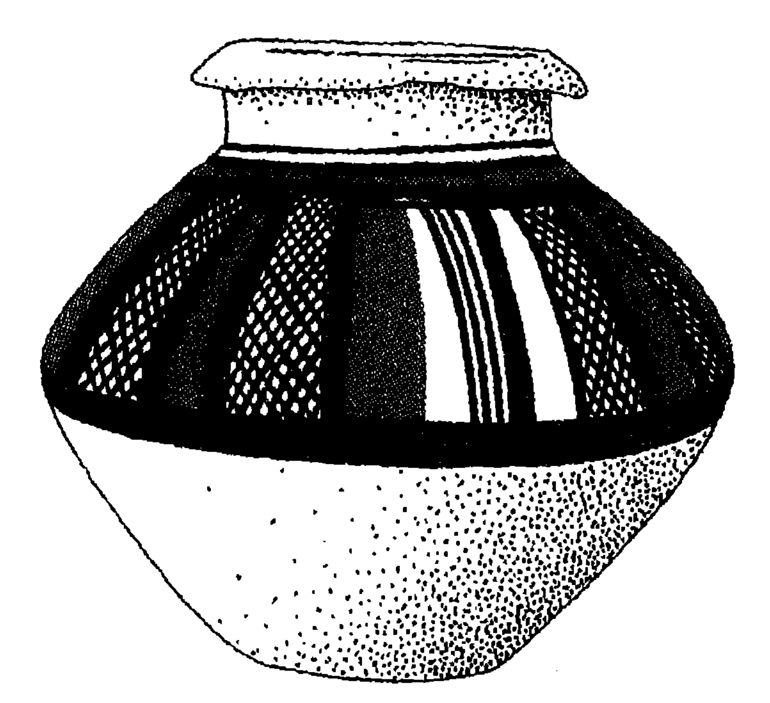
جاطات من الخزف في سامراء في نهاية الألف السادسة: (آ- دورة تمثـ بزخرفة منمنمة) (ب- عصافير مائية مع سمكة) (ج - نساء شعر طائر بالهواء بدورة العقرب) (د - زينة بشكل هندسي على قاعد بشكل معين. وتمثل شكلاً يقارب دورة الوعول.



بعض النماذج من خزف سامراء من عصر (أوبيد) (آ- زخرف هندسي) (شريط زخرفي - تصورات الأشخاص) (د- و- ي حيوانات مرمزة) (ف - نقش لرقص نسائي متخيل).



حام من مجموعة (سوس) -١- تمثل أعلى درجات الفن الخزفي ويحمل نقوش أخرى من (سوزيان) في الألف الرابعة (متحف اللوفر).



إناء خزفي مصور يعود إلى عصر (جمدت – نصر) في أوائل الألف الثالثة

كان لاكتشاف المعادن اثرا زمنيا كبيرا في تاريخ الشرق الادنى، وقد ظـــهرت فـــائدة وفعالية هذا الاكتشاف بكل نشاط، اما حوض ما بين النهرين الذي كان يلازم هذا الاكتشـــاف، بسباق عدل، متوازن لعدم وجود أي معدن خام في تلك الاراضي الغرينيـــة، عـــرف كيـــف يستثمر تطوره الاجتماعي والتقني والاستيلاء على السلطة التي نعمت بملكية هـــذا المعـــدن. ومن الناحية الاساسية انه بواسطة هذا الاكتشاف اصبحت التقنية المرتكزة على النـــار هـــي المسيطرة بالدرجة الاولى لانها جعلت سير التطور ممكنا بعد ان رافقتها تنظيمات اجتماعيـــة بفضل ازدهار الزراعة المستندة على الري والتي اوجدت انعكاسا، كردة فعل اتـــاح تجـــاوز التقنية المسيطرة لتجعل منها اداة جديدة آلية لهيمنة جديدة .

الاستخدام الاولي للمعادن

من الطبيعي ان لا يأتي التعدين الا بعد اكتشاف الخزف، لان التعدين يتطلـــب قـــدرة عالية لتوليد ناراً اقوى بمدد اطول، ومثل هذه النتيجة لا يمكن الوصول اليها باستخدام القـــدرة المقاومة للارض، اثناء عمل الفرن. ومع ذلك هذه الفكرة التي لطالما كانت هي السائدة والتي اوجدت الظهور المفاجئ للمعدن كثمرة لاختراع متفوق لرجال الالف الرابعة، ســـرعان مـــا اهملت بعد الاكتشافات الاثارية وبعد ردود الفعل التي قام بها علماء الاقتصاد وعلماء السلالة، واخصائي التعدين القدماء حول موضوع وماهية هذا الاختراع.

بالواقع عثر على المواد الاولى المعدنية ضمن مستويات محددة تعـــود الـــى الالـــف السابعة وليس الالف الثالثة، ولا غرابة في ذلك اذا عثر لاحقا على مواد مثيلة اكثر قدما. فقد سبق ان اكتشف في (سايونتي Cayonti) على الفرات لآلئ من النحاس الطبيعي، وايضا عـــثر على دبوس في (كاتال حيوك Catal Huouke) وايضا لؤلؤة ممزوجة بالرصاص عن طريـــق الالتقاط، وقد عثر بمثلها فعلا، وفي نفس الزمن تقريبا، قرب المنـــاجم الاناضوليـــة، علـــى النحاس. وايضا في تل الرماد في سورية الجنوبية، اما خلال المحصولات فقد استمر مستوى انتاجها على غرار الالف السادسة التي كانت سائدة في مواقع معينة من بـــلاد الانـــاضول –

سورية – جنوب وشمال بلاد ما بين النهرين، وفي ايران على شكل ادوات صغيرة من النحاس او الرصاص: مثل اساور الرصاص في ياريم – (تبYarim – Tepe) واللولو – الدبابيس – وادوات صغيرة جدا. فهذا النوع من اللقى المشتتة والمتفرقة والتي لا يتجاوز عددها بعض الوحدات استمر لقياها خلال الالف الخامسة على سبيل المثال، عثر على ستة لولئات من الذهب في (تيب – غاورا Tepe – Gawra) على مستوى كانت موجودة ضمن اناء تحوي معه بعض اللآلئ من الاحجار الكريمة الثمينة. وما يدعو الى التساؤل هو ان طبيعة هذه المواد وتداولها بقي هو نفسه منذ الالف السابعة، فهذا يعني انه لم يطرأ أي تغيير على وضعها الاساسي، الامر الذي حث على ضرورة السعي وراء اكتشافات جديدة.

لم يظهر التبدل الفعلي الا نحو منتصف الالف الرابعة، أي انه ترافق مع نجاح الزراعة في "اوروك"، غير انه ضمن تلك المعطيات كيف يمكن معرفة ما كان يجري خلال الثلاث او اربعة آلاف سنة ؟؟ هل يمكن القول بان ظهور التعدين بدأ مع اوائل العصر الحجري القديم، وهل يجب اعادة النظر بجميع المخططات التي أُقرت حتى الان؟ الحقيقة كلا. لان استخدام هذه الادوات او المواد كان طارئا وليس دائما، كما كانت المواد المعدنية محدودة، يثبت ذلك ندرة اللقى حتى البسيطة منها فلم يكن التعدين بمعناه الحقيقي ناجحا كونه لم يزل بدائيا لم يصل الى اجراء التغيير العميق في شكل المادة، وسبق ان اجريت التحاليل على بعض اللقى التي عثر عليها فتبين انها من المعادن الطبيعية صنعتها يد الانسان بشكلها الطبيعي دون أي تغيير في بنيتها عن طريق استخدام المطرقة او المقص على غرار ما كان يجري بالنسبة لقصب الاحجار، دون ان يصيب المادة المصنوعة أي عمل تقني حقيقي. غير ان هذا التعدين قد يكون اصاب الرصاص على راي بعض الاخصائيين بانه كان يجري على الرصاص عملية التعدين يدويا وبواسطة النار منذ الالف السادسة، وعلى فرض صحة هذه الاجراء يكون اول ملامسة لتقنية اساسية في التعدين للتقنية من الشوائب.

يستنتج من ذلك، عدم حدوث أي اكتشاف مفاجئ للمعدن، ولكن يمكن اعتباره نضجا بطيئاً مترابطا مع سيادة ناجحة على التصرف بالنار وضمن هذه الشروط فان بعض المعلومات والافكار عن عصر (الشالكوليتيك Chlcolithique) لا يتفق مع الواقع .

وحسب التقدير نتج تغيير مفاجئ في منتصف الالف الثالثة بولادة التعدين، يثبت ذلـك الكثير من الادلة :

١- ان المواد التي عثر عليها خلال التنقيبات كانت من ذات الحجم الكبير، ويوجد مـن بينها ادوات وخاصة من الاسلحة .

٢- ان وجود الكثير من الشوائب يؤول الى انه كان نتيجـة لمعالجـة تنـاولت المعـدن المشوب (غير الخالص) وليس المعدن النظيف اصلا، وهذا ما دعا تقنية المشوب منـه بواسطة النار التي تتطلب درجة حرارتها الى أكثر من (١٠٨٥ درجة) .

٣- يُعثر الان بشكل متفرق على الرصاص وعلى الفضة، المشترك توضعـهما، بنفـس المناجم، غير ان حقيقة استخدامهما في صنع مواد مختلفة في بلاد ما بين النهرين يثبـت عمق المعرفة في هذا التعدين .

٤- كما يبين تحليل هذه المواد بأن هؤلاء الاقدمين سبق لهم ان مارسوا مزج عدة معـادن في سبيل تغيير صفاتها الطبيعية .

ان جميع تلك الانجازات تدل على ان النُضجْ البطيء الـذي وقـع خـلال العصـر الحجري القديم، انتهى الى ملخصها في الالف الرابعة مع التكثيف يوما بعد يوم في الحيـاة اليومية .

كان احداث المزج في البرونز هو الذي جعله يلعب دوراً واسعا في استخدامه. وقـد تمثل هذا التطور الناجح لهذا الدور بمزج النحاس والقصدير بنسب لاتتجـاوز (١٠ %) او اقل للقصدير، والفائدة الرئيسية المرجوة كانت بان يفقد النحاس لدونته الطبيعية وان تصبـح الادوات اكثر تجلية، ويصبح النحاس اكثر صلابة ونعومة رغم قابليته للكسر بسبب قساوته .

قام كل من (برثود وخاصة س . كليـيزيون Berthud , et , S,Cleuzion) ببعـض التنقيبات وبالعديد من التحاليل "الطبيعية – الكيميائية" على ادوات واشياء اخرى عثر عليـها اثناء التنقيب فبرهنا على انه رغم تبدل شروط صهر المعدن بعد المزج، اتضح بان تركيبهما لا ينفرد بالنحاس والقصدير فقط، بل هناك معادن اخرى ظهرت فعلا، فقـد لوحـظ وجـود بجانب النحاس المرتكز على القصدير خليط آخر سبق ذكره وخاصة "الـبرونز الزرنيخـي"

الذي لعب دورا مهما في الالف الثالثة. رغم ان محاولة الباحثين ف بادئ الامر كانت تـهدف الى معرفة الشوائب الناتجة عن عملية التنعيم غير الكافية .

وبكل غرابة، تواجد معا نوعان من البرونز في ساحة الشرق الادنـى، ولكـن علـى اراض لها صفات مختلفة لان البرونز الزرنيخي يتواجد في القوقاز، الاناضول الشرقية، بلاد ما بين النهرين الجنوبية، وفلسطين، أي على محور مستقيم "شمال - جنوب". اما الـبرونز على قاعدة القصدير فكان في ايران، وفي جميع بلاد ما بين النهرين، وفي سورية الشـمالية (سهل العمق) وقيليقيا ولذلك كان يغطي منطقة اتجاهها "شرق - غرب"، غـير ان المنطقـة الوحيدة التي كان يتواجد فيها هذان المعدنان هي بلاد ما بين النهرين الجنوبية، هذا في عصر السومريين. ولم تكن هذه المصادفة بسيطة جدا بل كانت احدى مظاهر قوة السومريين الذيـن نجحوا في السيطرة خلال منحيين مختلفين لتنقل السكان، ومنحيين مختلفين في التوسع .

بذلك نجد نوعين من البرونز تواجدا في الالف الرابعة والثالثة. ونحو عـام (٢٠٠٠) اختفى البرونز الزرنيخي، واستمر البرونز القصديري، واذا قلنا الحقيقة، تثبت التحـاليل دوام وجود بعض آثار البرونز الزرنيخي ولكنه تناقص اكثر فأكثر حتى لم يبقى سوى بعض البقايا من هذه المواد المصهورة. فهذا النجاح والنصر للبرونز القصديري ودوام اسـتخدامه طيلـة الالف الثانية يؤكد تفوق المحور الكبير "شرق - غرب" على حساب المحور "شمال - جنوب" وهذا هو حقيقة فحوى الوثائق التي قدمتها "ماري" والتي تعود الى اوائل الالف الثانية، والتـي ايضا تؤكد وصول القصدير الى ايران عن طريق وادي ديالا ووادي الفرات لتصل بنا الـى بلاد الشرق ولا غرو ان يشاع ايضا بان القصدير جاء من قبرص ومن الاناضول .

تعدين الحديد

بين (١٢٠٠ و ١٠٠٠) احتل الحديد مكانته كأبتكار جديد، واصبح المعدن الشاغل، اما البرونز دون ان يختفي تراجع الى الصف الثاني. وهذا التغيير لم يبدل بشيء امكانية الرجـل التقنية كما كان الحال مع البرونز الذي ساد خلال الفي عام، بل كان العكس تمتـع الحديـد بفاعلية كبيرة وبالوقت نفسه اتسع حقل اعماله. وقد قادته نتائج استخدامه الى القمـة والـى التأثير في مجرى الحياة الاجتماعية. كما يجب ان لا ننسى بان هذا المعدن بقي حتى ايامنـا

هذه المادة الاساسية في صنع الآلات. وبالحقيقة، فقد ترافقت صناعة الحديد بتشوش واضطراب سياسي تخللته الحدة احيانا والدراماتيكية حينا آخر في كافة بلاد الشرق الادنى، حتى كامل الشرق والجانب الشرقي للمتوسط ولم يُستثنى احد من البلاد التي تحتضن سكانا حسنة التسلح بفضل هذا المعدن الجديد، حتى ان علماء التاريخ والآثار، في سبيل ابراز اهمية هذه الازمان اطلقوا على نهاية الالف الثاني ومنتصف الالف الاولى تسمية: (عصر الحديد). ولكن هذه التسمية بقيت غير سوية لان منتصف الالف الاولى لم يمثل هذا التحديد الزمني بل استمرت فاعلية الحديد وحتى الان .

من جهة اخرى لم يكن وقع البدء باستخدام الحديد اكثر من وقع بداية البرونز حتى ولم يكن مفاجئا، لان المعدن كان معروفا منذ خمسة عشر قرنا، على الاقل في آسيا الصغرى وفي بلاد ما بين النهرين حيث عثر على أجزاء منه أو على كميات كبيرة خلال مجرى الالف الثالثة، بالاضافة الى ذلك وحول عام (٢٠٠٠) ابانت صفيحات لتجار اشوريين مقيمين في "كابادوك" بانه كان للحديد تجارة مشروعة. غير ان استعمال الحديد على غرار البرونز اصبح محدودا فاقتصر على اشياء الزينة الصغيرة أو الحلي التي كانت اثمانها تفوق خمس مرات ثمن الفضة او ما يعادل ثمن الذهب.

اما الذي بدل المعطيات في استخدام الحديد باتجاه القرن الثامن كان ظهور التقنية الجديدة في هذه المرة، وهي اكتشاف عملية تفحيم الحديد التي ولّدت مهنة الحدادة المتضمنة طرق المعدن وهو حار جدا لتخليصه من الشوائب .

لم يعرف زمن ومكان هذا الاكتشاف بشكل محدد، فقد يكون ظهوره في بعض المواقع من منطقة تعدينيه تقع في الجبال كنتيجة لتواجد بقايا افران نار للتعدين على مقربة من المناجم التي يستخرج منها المعدن. فقد مر ذكر الحثيين احيانا، غير ان هؤلاء كانوا سكان سورية الشمالية وقد يكونوا هم الذين نقلوا هذه المعلومات .

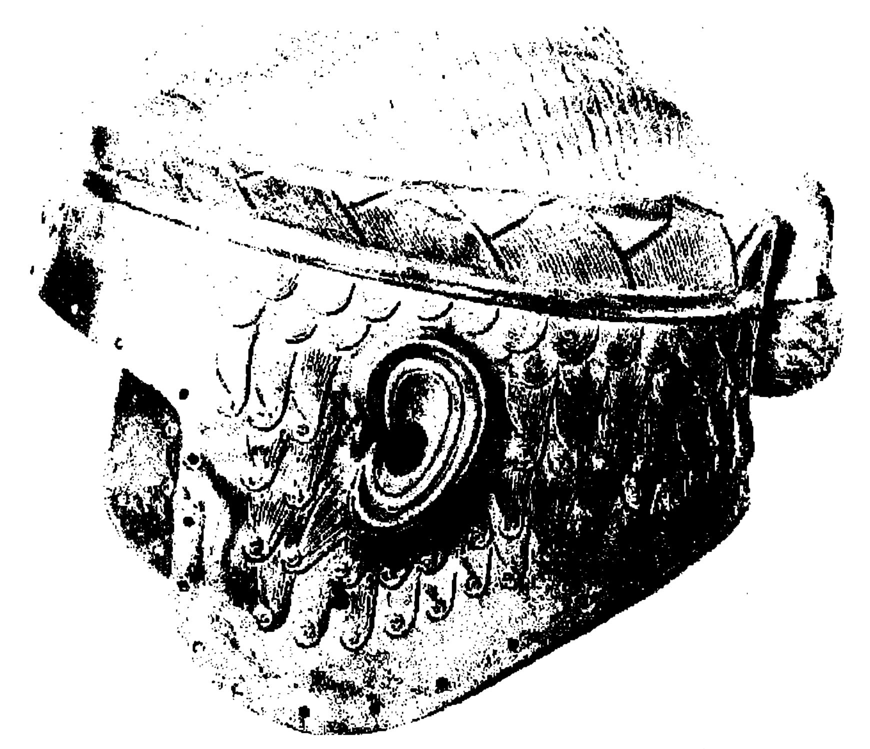
بلا شك كان هذا الاكتشاف العامل الرئيسي الذي حدد تعميم واطلاق صفات هذا التعدين الذي اضحى بالنسبة للحديد اكثر تداولا من النحاس والذي بدوره اصبح عالي الثمن نظراً لندرته وقد قيل في ذلك، ان متابعة انتاج البرونز بكميات كبيرة يوشك ان يؤدي الى تجميد التطور التقني، والفضل الان الى تفحيم الحديد الذي استطاع انجاح متابعة التوسع في اعمال التعدين .

كما مر ذكره، لا تملك بلاد ما بين النهرين، على ضوء طبيعة اراضيها الجيولوجية، أي منجم معدني، ولكنها استطاعت ان تعوض هذا الفراغ منذ الزمن الاول الذي لعب فيه هذا المعدن دوره حيث استطاعت احتلال مركزا رئيسيا ومهما في السوق الناشيء، بتموينها من هذه المادة، جميع المراكز الحضرية في بلادها. وقد اعزي نجاح هذا المشروع الحيوي الى حيوية سكان بلاد ما بين النهرين وفعالياتهم ضمن دوائر وحلقات التبادل التجاري الذي بنتائجه الناجحة تمكنوا من خلق وتعزيز قوتهم التجارية .

ومن المفيد الان عرض قائمة بالمعادن التي احضرها واوجدها سكان بلاد ما بين النهرين مع بيان مصادرها الجغرافية .

١- الذهب : انه من المعدن الثمين، وبغاية الجودة، منذ عصر (عبيد) وقد عثر عليه على المستوى (٨) (من تلة غاورا Tep Gawre) تحت شكل ستة لؤلؤات من الذهب الطبيعي وهو بوضوح غالي الثمن لدى السومريين، وقد اثبت ذلك تجار المنقولات الاغنياء جدا، الخاصين بالمقابر الملكية في "اور" والذين لهم استخدمات واسعة في البلاط الملكي، علما بانه لم يأت ذكرها في النصوص السومرية الاولى، ويتمتع الذهب بسعر مرتفع يصل الى ٤ – ٦ مرات كزيادة عن ثمن الفضة في اوائل الالف الثانية، وقد جلب الذهب من المناطق الجبلية، ومن جنوب العربية، وحتى من الهند وطوروس ومصر .

٢- الفضة : انها ايضا ذات قيمة مرتفعة، واكثر رواجا من الذهب، وتأتي اهميتها في الحياة اليومية كونها كانت تُتخذ معيارا لتقييم الاشياء، لان المعادن الاخرى وحتى المواد الغذائية اليومية كانت تقاس اثمانها على قاعدة عيار الفضة منذ منتصف الالف الثالثة، ولم يعثر عليها الا نادرا كعنصر صاف، لانها كثيرا ما تكون ممزوجة مع الرصاص. وحسب النصوص قدمت هذه الفضة من المناطق الجبلية التي لم امكن تحديد اسماءها حتى الان فيما عدا (غيلام وكابادوك) التي ورد ذكرهما في النصوص .



خوذة من الذهب (ميسكا لاميدوخ Meskalamdug) عثر عليها في المقابر الملكية في "أور" خلال منتصف الألف الثالثة (المتحف البريطاني).

خريطة المناطق المنتجة للمعادن المستخدمة في بلاد ما بين النهرين

٣- **النحاس** : انه الاكثر اهمية من بين المعادن المتداولة خلال الالف الثالثة الثانية اما مصادر التموين بها فهي متنوعة، مثل: منطقة الخليج الفارسي "الريلمون Dilmun" (البحرين) التي برزت كمركز تموين بالنحاس في عمان (Magan) والذي اتصف بالاهمية خلال الالف الثالثة، كما تساءل الكثيرون عن الهند وفيما اذا كانت من جملة الموردين. وكان هناك ايضا مركزا آخر عثر عليه في "زاغروس" شرق بلاد ما بين النهرين حيث ازدهرت فيه منتوجات (لوريستان Luristan) وحسب النصوص الكابودوكية كانت جبال طوروس ايضا منتجة للنحاس وتجري الان محاولة لتحديد دورها الصحيح، واخيراء جزيرة "قبرص" التي كانت مشهورة قديما لغناها في مادة النحاس ومن خلال التنقيب في عرض الشواطئ الاناضولية عُثر على بقايا شحنة قادمة فعلا من الجزيرة. وهذا يؤكد بأن الشرق ايضا وجانب من حوض ما بين النهرين كان يستورد من هذه المادة، تمتع النحاس بانتشار واسع في الحياة اليومية نظرا لرخص سعره الذي لم يتعدى (١/٧٥٠ من الفضة) .

٤- **القصدير** : احتل القصدير مركزا كبيرا منذ بدء العصر البرونزي نظرا للدور الذي لعبه في صناعة السبائك الجديدة وكانت قيمته تتراوح بين (١/١٥ و ١/٣٠) من الفضة أي من (٢٠ الى ٣٠) مرة من قيمة النحاس. وفي عصر "زمري – ليم" في (ماري) كان يستورد من "عيلام" التي كانت تراقب المهربات القادمة من السطح الايراني. وفي الالف الاولى اشتهرت "اسبانيا" بتوريد هذه المادة الى حوض ما بين النهرين والى الشرق .

٥- **الزرنيخ** : كان وصفه بالنصوص سيئا جدا، فكان يكتنف اسمه الالتباس حتى ان اسمه غير مؤكد ومحدد باللغة الاكادية، واللفظ الذي كان يطلق عليه هو نفسه بالنسبة للرصاص ولم تستحوذ على اية اهمية بعد عام (٢٠٠٠) وقد يعود هذا الفراغ إلى نقص تحرياتنا .

٦- **الرصاص** : عُرف الرصاص منذ العصر الحجري القديم وظهر في النصوص في الالف الثالثة وليس سعره اعلى من سعر النحاس، وان استمرار وجوده يتمثل بدوام توضعه في مناجم الفضة .

٧- **الحديد** : كان يتواجد في جبال طوروس، وفي المرتفعات الايرانية وكانت قيمته عالية تساوي قيمة الذهب وقد اجريت محاولات عديدة لتنعيمه ولم يتيسر رواجه الا بعد اكتشاف عملية التفحيم التي جعلته يتخطى البرونز. ولا بد من من التنويه بأن سبق للشرق ان كان يعاني من سباق العدل أي من العبء الاضافي الذي كانت له نتائج مهمة ساهمت في

تطور العالم الشرقي القديم. وذلك رغم عدم اهمية مناجم الحديد المتواجدة فيه، ورغم اهتزاز برنامج التموين الذي نظم بسرعة .

٨- **المعادن الاخرى** : سبق ان استخدمت معادن اخرى مثل: (الكحل وحجـــر التوتيـــا Calamine Ontimoinc) ولكنها لم تلعب دورا محددا بما فيه الكفاية، حتى ان مصادرنا مـــن النصوص و الاثار لم تتمكن من ايضاحها .

ان جولة الافق هذه وضعت النقاط على الحروف، حول مدى امتداد ســاحة المـواد الاولية للتعدين التي خدمت واستفادت منها بلاد ما بين النهرين وأهلتها لان تلعب دورا مـــن الدرجة الاولى .

تقنيات التعدين

ان الوثائق الاثارية المتضمنة صفات الفرن المعدني لم تكن بهذا الغنى المتوقع وحسب اطلاعي، لم يعثر على اية وثيقة منها كاملة وغير مشوهة تمكن من الاطلاع علـــى مراحـل الصنع فان الايقنة من الرسوم والتماثيل لم تأتي على مثل هذه التفاصيل، والنصوص لم تكـن الا ادوات جذب غير مباشرة، ومع ذلك عثر على موقد نار صغير الحجم من الخـزف وذات شكل دائري ومجهز بمخرجين للمواسير في "تللو" (١ - ١٨١) والتي تبين بوضوح ضـرورة استخدام التهوية الاصطناعية للتمكن من الحصول على درجة الحرارة اللازمة لصهر المعدن.

كانت المعلومات حول قدرة النار المشتعلة ناقصـــة، فكـانت درجـة نـار الخشـب لا تتجاوز بين (٦٠٠ - ٧٠٠) درجة بينما يحتاج النحاس الى (١٠٨٥) درجة والحديد الـــى (١٥٣٠) درجة، من الممكن ان خبراء المعادن استخدموا فحم الخشب غير انه لا يوجد نـص يثبت ذلك، سوى كتاب "حمورابي" الذي يأمر (كركوري Qurqurru) خبير المعادن لديه بجلب كمية كبيرة من الخشب الاخضر حددت بـــ (٧٢٠٠) قطعة خشب بطول (١ -٢سم) مع العلـم بأن حرق الخشب الاخضر غير مجدٍ، ولكنه يصلح لصناعة الفحـم الخشـبي، كمـا يمكـن الاستنباط من هذا النص بأن الخبير المذكور كان بنفسه يُحضّر ما يحتاجه من الفحم الخشـبي بمقدار يحقق ارتفاع درجة الحرارة الـــ (١٠٠٠) درجة. وحتى يمكنه رفعها الـــى اكـثر ، بفضل القدرة المقاومة للطين المشوي .

كان سكان بلاد ما بين النهرين يوكلون مثل هذه الاعمال الى ثلاث فئات من الاخصائيين: **الصائغ او (الكوتيمو Kutimma)** لصناعة الذهب والفضة. **(الكركوري Qurqurru)** او خبير المعادن او السباك لتحضير المعدن . **(والنابابو Nappabu)** او الحداد لصنع الاشياء والادوات .

١- تهيئة المعدن :

ان هذا الامر يتطلب ايجاد المدرج الذي يتيح صنع المعدن مباشرة عندما لا يكون المعدن خاما وليس بوضعه الطبيعي، ولكن غالبا، حتى لو كان وضعه كما ذكر، فالامر يتطلب تحضيرا دقيقا بحسب درجة نقاوته .

ان عملية تنعيم بسيطة بواسطة الصهر تكفي لتنظيف الذهب الخام، وفي العصر التاريخي القديم عرفوا عملية التصفية للذهب والفضة، ولكنهم لم يجدوا السبل الى تطويرها، اما بالنسبة للفضة التي يندر العثور عليها نقية، كانت تتطلب اجراءات تحضيرية قريبة من التي يحتاجها الذهب، وهكذا ايضا فيما يتعلق بعملية التنعيم فلا بد من تكرارها عدة مرات حتى الوصول الى الوضع المطلوب .

كان النجاح الاول الذي امكن احرازه هو البدء بتحضير جسم المعدن نفسه، أي باخراج الشوائب منه سواء من تراب او فتاة الصخر او غيره. وكان يتم هذا العمل على مقربة من منطقة الاستخراج او عند الضرورة ينقل لتقنيته في احدى مدن ما بين النهرين، او في احد المراكز المختصة بهذا العمل في ضواحي المدينة او في التجمعات السكنية الخاصة. كانت المعالجة تجري داخل الفرن بعد ايصال درجة حرارته الى ذوبان المعدن الذي يتجمع في القاع، ولكنه يبقى مشوبا ببعض الحثالات والشوائب، وهنا لا بد من تقنية هذه الشوائب التي كانت تنفذ في زمنين. ففي بادئ الامر كانت تستخدم الطرقة بتكمير كتلة المعدن وفصل هذه الشوائب الكبيرة آليا، ثم كان يعاد الصهر ثانية لتحقيق تنقية كتلة المعدن بصورة كاملة .

وفي مرحلة البدء فقط تتم بالمثل معالجة ركائز الحديد ولكن آلية الابتكار المستنبطة لتحقيق الفائدة، توجب التقنية والتنعيم التي تتم باستخدام التطريق المنهجي المنظم لكتلة المعدن التي وضعت في درجة حرارة مرتفعة ادنى من درجة حرارة الصهر، اما عملية سقاية الحديد يعتقد انها كانت سائدة منذ الاول من الالف الثانية .

وفي ميعاد مرحلة العمل الاولى، كانت تصل كتل المعدن التي كان يطلق عليها مختلف التسميات مثل: (السبائك والدفات ...) التي يمكن تسويتها وجعلها الغرض المطلوب. ولكن في هذا الطور كان المعدن يسبق بكل يسر المعدن الخام، حتى انه في ازمان معينة كان يستعمل كعملة متداولة .

٢- صنع الاشياء :

اذا كان الحداد "النباهو" الاسم التقني الذي صنّع الاشياء، قدّر قيمة ايجاد سلسلة مختلفة من السباكين (Nappahu)، تصبح المادة التي شغلها متجانسة لان جميع اعماله كانت تدور في ساحة الفرن. وهناك عمليتان رئيسيتان استخدمتا في الصياغة او في التعدين المتداول :

١-انتاج القوالب في البدء يُمرَّر سائل المعدن الى وعاء صنع على شكل الشيء المراد الحصول عليه، وقد عثر في اعمال التنقيب على عدد كبير من قوالب الاشياء او الادوات مثل: (المجرفة، والبلطة، والفأس ...)، وفيما يتعلق بالاسلحة (راس الرمح – الحربةً – الرمح ......) فالقولبة هي العملية الاكثر تداولا في استخدام البرونز، وعلينا ان نذكر بأن القولبة بالشمع الذي تلاشى في زمن ما لا يزال معمولا به .

كان التطريق للمواد القابلة للتصفيح من ذهب وفضة ونحاس، يستخدم للحصول على صفائح معدنية لتلبيس القار والزفت والخشب والحجر وحتى المعدن عندما يراد به تغطية تمثال صغير من البرونز بورقة من الذهب مثل (التماثيل الصغيرة المؤلّهة السورية) وكانت هذه الوريقات الذهبية تصفف وتثبت بواسطة المسامير او دسارات، اما اللحام المعدني الخاص كان يعمل به كالسابق. وما يختص بالحديد وبالتطريق فكان يتم دوما حسب الشكل المطلوب .

مدى اهمية المعدن في تحضير بلاد ما بين النهرين

بالحقيقة يصعب كثيرا تقدير مدى الاهمية التي حظي بها المعدن في الحياة اليومية لسكان ما بين النهرين، حيث لا نملك أي رقم يساعد على تقدير الكميات المستوردة .

فالمعلومات بمستواها الطبيعي كانت دقيقة ومجردة من كل قرينة حتى ولو كانت عامة، وهذا لا يمكن تكوين اية فكرة الاّ باستخدام كميات كبيرة جدا داخل عملية محددة. فكل

محاولة تفسير سطحية تبقى، صدفوية ومع ذلك، يمكن الاستنتاج بأن بعض اللويحات الاثارية تقدر سلفا كميات لا يمكن تجاهلها.

احتوى ايصال اداري من العصر الثالث للاسرة المالكة في "اور" ذكر (٥٠) مجرفة من النحاس بوزن كامل (٢١،٥) صنعت بواسطة التطريق. وقد سبق للملك "شامسجي – حدد" ان امر بتأمين (١٠٠٠٠) عشرة آلاف من المسامير الكبيرة من البرونز يزن الواحدمنها (٤٨غ) أي بوزن اجمالي (٤٨كغ) كحد ادنى، ولا بد من الاخذ بعين الاعتبار النقص الناتج عن الذوبان وعن حشد من الذرات الصغيرة جداً. وفي نص آخر ذكر عن ارسالية من (٣٥٣) مجرفة مثلّمة ارسلت الى حداد لاعادة صهرها، كما عثر المنقبون اثناء وجودهم في قصر الملك الاشوري القوي جدا في "خورسباد" خلال القرن التاسع عشر، على كمية لا تقل عن (١٥٠) طّنا من الحديد .

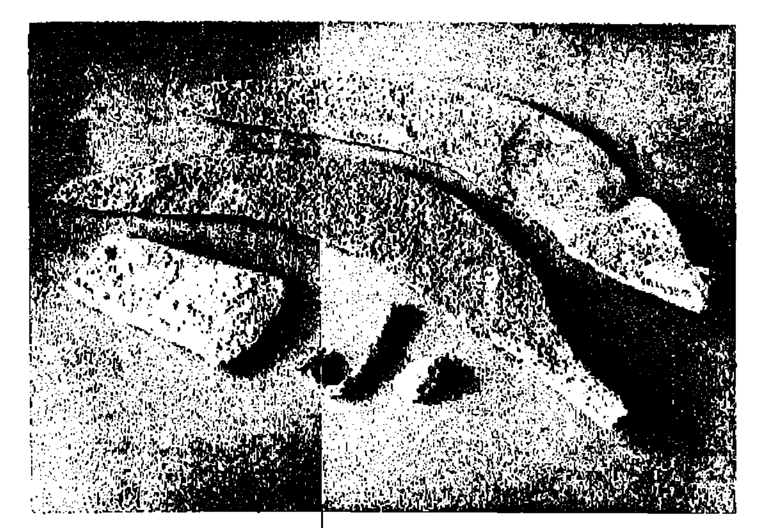
لذلك، وعلى ما يبدو، وبعد الاطلاع على جزء هذه الارقام المذكورة اعلاه، تتأكد الاهمية الحقيقية التي كان يتميز بها المعدن، لان كمية الـ (١٠٠٠٠) مسمارا تعتبر رقما ذات شأن في ذلك الزمن. ومع ذلك كان بعض المؤلفين يعتقدون ان الحديد لا يمكنه ان يلعب دورا رئيسيا في بلاد ما بين النهرين التي تتسم عظم فعالياتها بالزراعة بعد ان لاحظوا بأن كمية الاشياء التي عثر عليها في مواقع شرقية كانت هزيلة .

بالحقيقة، كان ما يشغل بال سكان ما بين النهرين توفير انتاج المواد الغذائية، فاذا كان حجم الاشياء والمواد المعدنية يزداد بين وقت وآخر تبعا للتوسع في اعمال التعدين هذا لا يقلل من اهمية ودور المعدن بالنسبة للحياة اليومية، هذا ما آلت اليه نتائج التنقيبات الاثارية .

١- من جهة اولى، فان التنقيبات، رغم المظاهر، لم تزل قليلة نسبيا، نسبة الى الانفتاح العلمي، فهناك القليل من الورشات والمعامل المستحدثة، واي مركز زراعي بمردود ذات شأن لا يسمح بالتفوق الاعتباري للادوات البرونزية، واخيرا فاي قصر مثل قصر "ماري" اخلي بشراسة من قبل المنتصر قبل اشعال النار فيه، لا يمكن ان يتسنى فيه دراسة ما استخدم فيه من الادوات المعدنية في واجهاته الغنية بكل شيء .

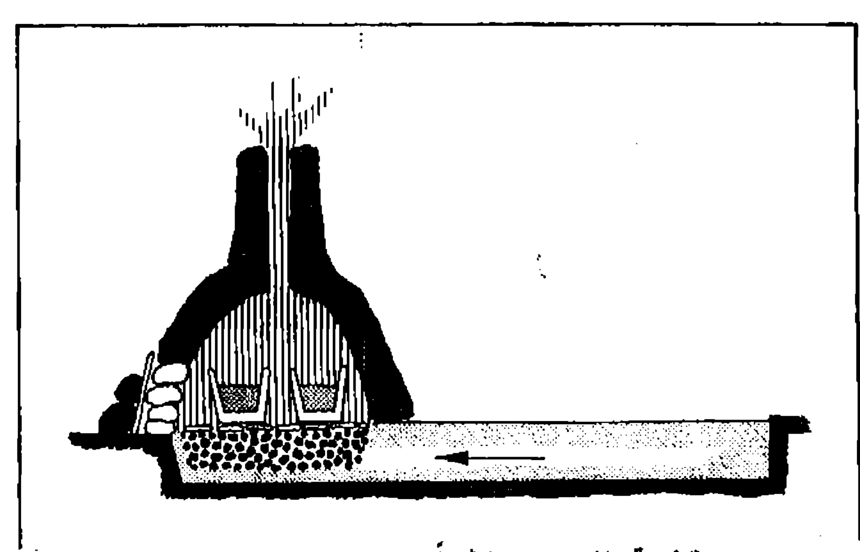
٢- من جهة اخرى: لا ننسى بان المعدن أُلتقط لاعادة صهره عندما تكون حالته غير قابلة لاستخدامه والاستفادة منه، ثم عثر في المقابر على اشياء معدنية لا ينكر اهمية استخدامها في الحياة اليومية، ولكن هل هناك ما يؤكد مرافقة الميت، بشكل تقليدي، الى القبر

بأثمن حاجة لديه وفي اكثر الحالات كانت ترسل الادوات او الاشياء المتكسرة او الثلومة الى مكان الصهر لان ثمنها المرتفع كان يحمل المستفيد على الاحتفاظ بها وعدم فقدانها. كما ان الانتباه الدقيق حول مثل هذا التداول، يكفي من الناحية الاقتصادية الى قلة تواجد المعدن اثناء التنقيب، وبسبب ندرته يلجأ دوما الى اعادة صهره من جديد عند العثور عليه. كما نجده في بعض الاراضي مصان جيداً وبحالة عادية وحسنة، بينما في اراض اخرى يكون او يتأكسد بسرعة، وتاكيدا على ذلك، عثر عليه في "اوغاريت "بحالة ممتازة بينما كان العكس في "ايمار" حيث عثر عليه فاسدا. ولكن يجب ينظر الى الوضع الخاص لبلاد ما بين النهرين المحرومة من الموارد المعدنية. في عصر "اوروك" كانت تملك قوة رئيسية تفوق قوة التجمعات المجاورة بفضل ازدهارها الزراعي وتنمية امكانياتها الهيدروليكية في البلاد. كما انها لم تتمكن من افراز خبراء تعدين بشكل طبيعي، لان هؤلاء ظهروا في بادئ الامر في المناطق الجبلية الحاوية على مناجم معدنية، وما العمل ولا يوجد أي من المناطق الجبلية الجنوبية في المحيط أنشئت نفسها فعلا لتصبح مركزا لدولة قادرة بالاستناد على الموارد المعدنية. لان الموارد الغنية لخبراء التعدين في الاناضول وخلال العصر البرونزي القديم، ولاحقا بغنى منتوجات (لوريستون Luriston) لم يرافقها اية مبتكرات سياسية. مع ان من يملك المعدن حينذاك، كان بمقدوره ايجاد الوسائل السياسية والنافذة التي تعزز الهيمنة والقوة. ولكن بالعكس هؤلاء هم سكان بلاد ما بين النهرين الذين كان يُخشى منهم العمل الاسوء عرفوا، منذ انطلاقة التقنية الجديدة، في اوائل عصر "اوروك" كيف يسيطرون على دوائر وسلسلات التغيير، وكان هذا يعود الى تفوقهم الطاهر لتنظيمهم الاجتماعي الذي عزز قدرتهم بسبب وسائل النجاح والورقة الرابحة التي واكبها النزوع الى المعدن والتعدين، وهذا هو احدى التفسيرات الرئيسية التي تشرح مغزى التوسع والامتداد الجاري مع طول مسار الانهر الكبيرة في هذا الموضوع.

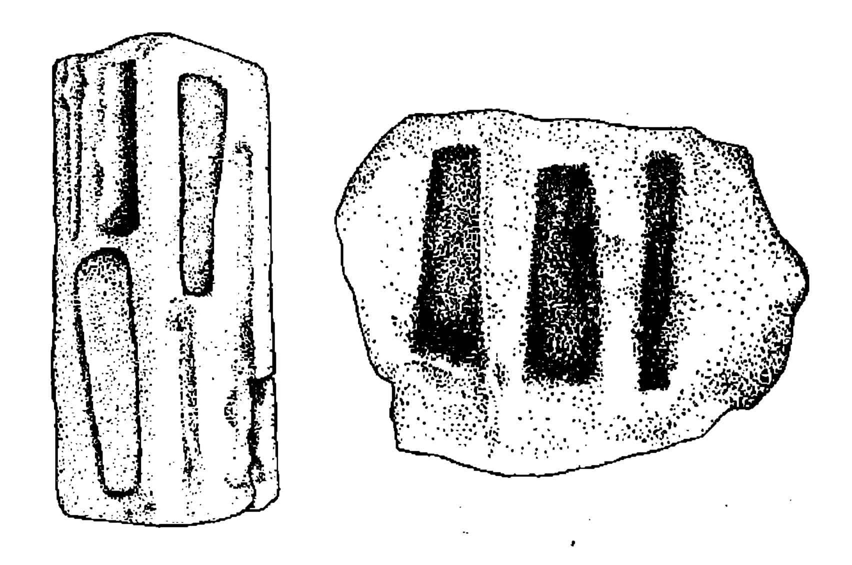


مناجل وفأسات وسنارة مصدرها مستودع قديم من عصر (آغادة) في 'ماري

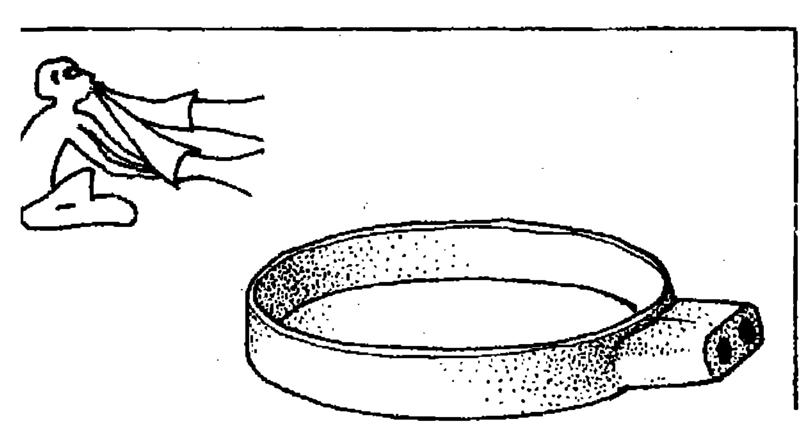
صورة لموقد نار رُسِمت نظرياً، إنه من المعدن ويعود للقرن الحادي عشر عثر عليه في (تل – كاسيل Tell Qasile).



صورة لموقد نار رسمت نظرياً، إنه من المعدن ويعود للقرن الحادي عشر، عثر عليه في تل كاسيل في فلسطين



قوالب لأدوات متنوعة من البرونز



موقد صغير ومستدير من السيراميك مصدره (تللو) وقد أكمل صنعه بالتعدين ثقبان متجاوران يسمحان بالتهوية الاضطرارية مع رسم إطار بشكل اسطواني من الأعلى واليسار.

اضافة لذلك فان الفائدة التي نقلها الملوك الى كل من يتعاطى بالمعدن والتعدين من (اكتساب وتبدل ...) كانت بالحقيقة انعكاس للواقع الفعلي، غير انه لا بد من التساؤل فيما اذا كان تراجع الشرق خلال الالف الاولى، يعود حسب احدى الشروح الى فقر المنطقة بالحديد، بعد ان حققت البلاد الغنية بالمناجم والحديد القوة السياسية والعسكرية الحديثة .

وبقي ان نعرف، فيما اذا خبراء التعدين في بلاد ما بين النهرين كانوا قد حصروا عملهم فقط للاستهلاك المحلي أو انهم لعبوا دورا ما في تصدير ما صنعوه بعد ان اشبعوا مدنهم بالادوات المصنعة صَعُبَ تصريفها، فالنصوص المتوفرة وحتى اللقى الاثارية لا توضح ذلك تماما. ولا بد من التساؤل، فيما اذا كانت سلطة مدينة "اور" خلال الالف الثالثة الواقعة على اطراف الخليج الفارسي قد هيمنت بتجارتها او كانت تصنع الاشياء والادوات المعدنية في جميع المناحي والمواقع التي تربط "سومر" مع جميع البلاد المشاطئة للخليج المذكور وللبلاد الهندية. وعلى ما يبدو، توافق اندثار حضارة "اور" مع تفكك مناحي المبادلات التجارية التي كانت متزامنة مع غياب الحضارة الهندوسية وعلينا ان نذكر ايضا، وضع "ماري" الذي كان يلعب دورا في تجارة المعدن الواسعة بين الشرق والغرب لان وضعها المزدهر وموقعها كان يسمح لها مراقبة محور الفرات الكبير الذي كان يمر به القصدير الصادر من "عيلام" وهو الذي كان بدوره يستكمل صناعة النحاس الاناضولي والقبرصي .

بالنسبة لسكان بلاد ما بين النهرين، كان توفير المعدن وتعدينه الشغل الشاغل لديهم، وبحثهم على تجاوز العقبات التي راكمته الطبيعة أمامهم. لان الهيمنة على حلقات الاعمال التجارية. وايضا عمق المعرفة التقنية يؤمنان تموين المواد بشكل مطابق تماما للحاجيات وللمرابح الجوهرية. كما ان غياب المواد الاولية التي كانت تضعف مسار تحضُّر المدن الناشئ وتؤدي الى الانهيار قادت بالمقابل، الى توطيد الامر بقذف تجار المعدن الى منابع التموين الخاصة به فأكسبهم السبق في سبر كنه التقنية التجارية وتعاطيها .



صورة لرسم الشيطان (بازوزي Pazuzu) من صنع خبير بالتعدين في المنتصف الأول من الألف الأولى (متحف اللوفر).

اصلاح وتطور التقنيات وصنع الادوات

بالتوازي مع انطلاقة الفنون المصنعة عن طريق النار، يُستنتج حصول زيادة وتقدم في ماهية العمل في جسم المادة ذاته وغالبا ما كـان يتحقـق ذلـك بيـن هـاتين الخـاصيتين (انطلاقة ناجحة = تقدم). حتى لو وجدت الرغبة في التفتيش عن رابـط الكراهيـة بشـكا نموذجي، وذات اثر فعّال. ولكن لا يحدث التطور في حقل واحد لان ساحات عمـل الرجـل تبقى متضامنة في اغلب المعايير، خاصة اذا تتابعت دراستها لمدد طويلـة وشـريطة عـدم الانزلاق في المنظورات الآنية غير المدروسة والقصيرة المدى. لان كل اتجاه طليعي ومثمر يترجم بوقائع متبدلة تنال اوضاع اخرى .

ومن خلال هذا العصر الطويل المغطّى بسلسلة من التطور الحضاري في بلاد ما بيـن النهرين والذي تميّز بازدهار مشهدي، نجد ان اداة التعدين تغيرت بقدر اعظم جداً، يفيد ذلـك غنى المعلومات الواردة في حقل التنقيبات، وايضا زيادة الاقبال على صنـع الادوات والالات لتلبية رغبة العاملين في تصنيع المواد القاسية، كالحجارة اولا ومن ثم المعدن. وفي كل مـرة كان يستخدم هذا التصنيع لمصلحة أدوات قابلة للاستهلاك مثل : (الخشب والعظـم) وغالبـا الجلد، لا بد ايضا من وضع المقابض لها او لحم مجموعة اجزائها المختلفة، لذلك فان آثـار مثل هذه الاشياء خلال التنقيب تبقى نادرة او غير موجودة، ولهذا السبب، يصعب العثور على مثل هذا النوع من الادوات لمعرفة تكوينها القديم وطبيعة عملها. ولكن خلال السنين الاخيرة، تحققت نجاحات كبيرة على اثر الاعمال الاولى لـ (ليروا - غورهان Lero Gourhan) التـي تناولت: طريقة عمل الرجل للمادة - عمل الالات - حز او نشر الصوان وفي وقت متـأخر ايضا على الآثار المتبقية على ادوات الليتيوم. لذلك كان التمهيد لهذا السؤال المهم جدا اوجب اعادة النظر في هذا الموضوع كليا لأنه قضى بالتخلي عن اجراء التحاليل التقليدية للانـواع التشكيلية لتبني الدراسة الحقيقية لوظيفة الاداة وعملها ولعلاقة الرجل بمثل هذه المواد.

التجهيز بالالات في الحياة اليومية، من حجر او معدن

اظهرت البحوث الحديثة بأن الادوات المختلفة الانزاع كان باستطاعتها الاستخدام الموحد، ولم يكن بالامكان تطبيق منهج مطلق على الشكل والوظيفة بأن واحد، ورغم ذلك كانت تستخدم اداة واحدة لعدة اعمال مثل (السكين الواحدة يمكنها قطع اللحم – الجلد – بري الخشب – الخ ......) واحيانا يصعب التحديد بدقة لاي غرض استخدمت هذه الآلة او تلك دون سبق القيام بتحليلات تخطيطية يقرها العلم الحديث، ولكن رغم الكلفة المرتفعة لا بد من التبصر والتنظير لدراسة منهجية لجميع الاوائل للتخلص من الوهم، غير انه لا تزال اللحمة غير مكتملة، وفي سبيل ذلك بدأت تبرز بعض الاعمال الرئيسية :

اصبح الان العصر الحجري الاخير حقلا غنيا للبحث والتنقيب، يجول فيه بطبيعة الحال الاخصائيين بفاعليات كبيرة ومختلفة، وعن طريق الالات المجهزة توطدت العلاقة اليومية بين المادة وما يحيطها من الرجال ذات العلاقة. ولكن ستوجه الاهتمام مستقبلا على بعض الظواهر الكاشفة اكثر من غيرها للوقوف على المزيد من تطورات هذا العصر .

في بادئ الامر، ظهر في (ناتوفيان Natoufien) (الالف العاشرة) تقنية الصنع عن طريق الكشط للادوات والمواد الحجرية او العظمية، وهذه الطريقة في التلميع لا تحل ابدا محل الطرق او الدق او الضغط، بل كل ما في الامر انها تدخل في الترتيب بجانب الطرق الاخرى في الصناعات العادية في الازمنة الاولى، لصنع ادوات الزينة، وفي وضع الفأس والمجرفة كما بأن ذلك في "المريبط" خلال الالف الثامنة، اما فيما يتعلق بالادوات كانت الشفرة هي التي تصقل وتنعّم في بادئ الامر، ولكن سرعان ما شمل، فيما بعده كامل القطعة. اما الزمن اللازم لانجاز مثل هذا العمل كان يصعب تعميمه او توحيده .

هناك فكرة طليعية مشهدية في مجال الصيد، تتمثل في اكتشاف رأس الرمح في نهاية الالف التاسعة، تطورت وتقدمت خلال الالف الثامنة. فكانت الاشكال والمميزات الخاصة التي كانت تأخذ الاشكال (المثلثة – سويقية تحمل عناقيد – محززة – ذات قاعدة مخزوعة) تساعد على تحديد المنظر والهيئة وايضا تفسير وجود المجموعات المثقفة ولعبة النفوذ، ولكن على كل حال يجب تسجيل التفوق الصريح لسلاح تلك اللعبة التي تدخل الى الساحة الميكانيكية الكاملة، التي يتمتع بها الرمح في العصر الحجري القديم. ومع ذلك كان الرمح موجودا قبل

ظهور رؤوس الرماح ولو انه في المراحل الاولى كان يسر الجميع لدى استخدامهم رماح الخشب ذات الرؤوس المبراة، ولا بد من ان نذكر بأن مجموع سكان الشرق الادنى لم يتبنى قط الرمح، بل كان حجر المقلاع هو المفضل لديه، وكانت احدى التقنيات تطغى على الثانية عند استخدامهما في مكان واحد.

وخلال هذا العصر تطورت جميع الادوات الخاصة بالزراعة، حسبما كان ينتظر لها واذا اريد التوازي والمعادلة مع نشر التقنيات الجديدة فقد تميز من بينها ثلاثة انواع منذ انطلاقة فعالياتها.

١- **المنجل**: وقد سبق الحديث عنه، ويستخدم لقطع المزروعات والحبوب الاخرى. فقد سبق استخدامه العمل الزراعي .

٢- **المجرفة**: وقد حلت محل قضيب الحفر الذي كان اول آلة استخدام في الزراعة فهي ترمز الى عمل الرجل في الارض. وقد سبق ان عثر على مجارف حجرية اثناء التنقيب، ولكن نظرا لندرة الحجارة في هذا البلد وتوفر الخشب فقط، فقد كان، على ما يُعتقد، يرتكز عمل الارض على مجرفة الخشب. المشتق صنعها من (قضب الحفر) .

٣- **الرفش**: وكان في زمن الخط يعرف باسم الـ (Marre) فكان لصنعه صفة خاصة، اذ كان له في أسفل النصاب واعلى الشفرة ساعد عرضاني يسمح للرجل ان تساعد حركة ذراع العامل في تعميق الرفش داخل الارض، بعد ربطه برباط آخر يستخدمه عامل ثاني مقابل الاول لجر الاداة نحوه مع التراب المحفور ضمن الثلم الذي هو قيد لانشاء او نحو مرتفع للارض الذي يحد الاقنية او السواقي التي تنشأ لجر المياه داخل الحقول .

غير ان المرحلة اللاحقة في المجال الزراعي تميزت باختراع المحراث البسيط الذي يصلح تعريفه بالمجرفة المتطورة او الرفش كحسب واقع الحال، والذي كان يجر بواسطة البقر او الحمير، يحرك هذا المحراث الارض ويخطط الاثلام وقد حقق استخدامه نجاحا مفيدا وقاطعا في استكمال الجهود نحو تطوير الزراعة وفي اعداد وتهيئة الارض المزروعة. وقد تبع ذلك في اوائل الالف الثالثة اداة الحرث الزراعة (Charrue Semeuse) التي اعتبرت كخطوة الى الامام، رغم عدم نوالها سمة الانتشار الواسع، لانه بقيت اداة الحرث في السهل او اقتصر استخدامها داخل الاستثمارات الكبيرة العائدة للقصور او للمعابد .

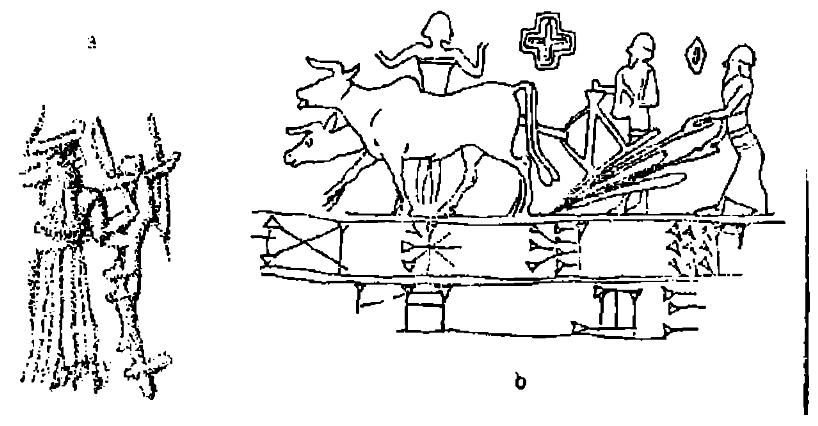
حققت صناعة الخشب ايضا انطلاقة كبيرة، وفي هذا المجال، كـانت "القائمـة" (١) القريبة من شكل الفأس او البلطة والمثبتة عاموديا في النصاب وترتكز على محـور شبيه بمحور الفأس، فقد كان مصنع مواد الليتيوم في مراكـز الحـوض النـهري ينتـج الادوات المتنوعة تحت اشكال: (مقصات مسطحة – ازاميل – منقر – مطرقة – منشـار – وحتـى المثقاب المقوس) ومنذ الالف الثالثة كانت جميع تلك الادوات من مادة البرونز، لان المـواد الليتية Lithque) تناقصت وحتى انها اشرفت على الزوال. وكان ينطبق نفس الوضع علـى ادوات صنع الجلود مثل: (الكشط – شفرة الاسكافي – السكين بشكل نصف دائـرة – مدبـغ الجلود – المبرد والمخرز – وايضا ادوات نقاش الحجر ومعظم العمال الفنيين.

اما دولاب الخزف قد يعود اكتشافه الى نحو عام (٣٠٠٠) كان الخزف يُسوّى، فـي البداية يدوياً، كونه على الغالب عملا نسائيا أو عائليا لا يتطلب أية تقنية اضطرارية، وفـي بادئ الامر كان التفكير ينصب على الوسائل التي تمكن من الحصول على افضـل مسّـاكة للاناء على حساب مكننة الصنع، ففي المرحلة الاولى كان عمل القفص الدوار يتجـه نحـو ابتكار آلية دوران ناجحة ولكنه في الحقيقة، لم يسعه الاتسهيل العمل اليدوي في تسوية الاداة، دون الضرورة الى التكرار. بالحقيقة أن الدولاب الذي يعمل بواسطة الرجل يرافقه القلق حول حسن مكننة الانتاج الذي يحتاج الى صناعة متسارعة. لذلك ليس من باب الصدفة، ان يختفي ديكور الاواني وزخرفتها في بلاد ما بين النهرين عند ظهور قفص الدوران كان من نتائجـه الانتاج المفتقر الاصالة .

وفيما يتعلق بالتجهيز بالالات وفي البحوث، وخاصة منها العائدة الى (ج . دسـهايس G. Deshayes) وصلت الى استنتاج بسيط ملخصه ان الالف الرابعة واوائل الثـالث تضمنـا مرحلة اتسمت بالخلق والابداع، فيها محاولات عديدة اضافية مبتكرة لانجـاح صنـع ثقـب لمقبض من مختلف العيارات لجميع الادوات التي تحتاج الى مقبض مثل: الفـأس، البلطـة، المجرفة...) وهذا الاكتشاف الاساسي الذي ادى الى دقة اكثر في صنع الاداة والذي مصـدره (سومري)، انتشر في الالف الثالثة، حتى الى ما بعد الحوض النهريني ووصوله الى منطقـة الدانوب والى السهوب الاورو اسيوية .

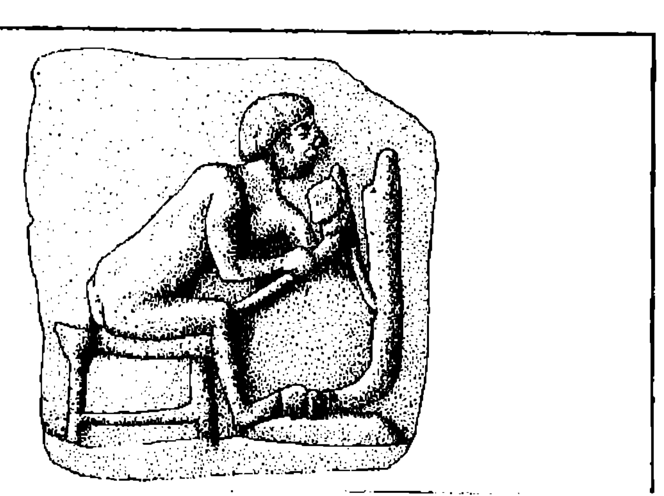
---

(١) القائمة بليطة مصفوفة المقطع تشبه خطم حيوان القاقم



١- محراث موضوع بشكل عامودي من قبل آلهة فوق اسطوانية اسطورية عصر أكادي (متحف اللوفر).

٢- أداة الحرث للزراعة تجرها أبقار تعلو رسوم وخواتم من العصـــر الكا (حسب بريتشارد Pritchard)٨٦.



نجار يقوم بصنع قطعة من الخشب بواسطة القائمة (أي البلاطة الصغيرة المعقوفةبشكل حيوان "القائم إنها لويحة مقولبة منذ الألف الثانية (متحف اللوفر)

(حسب بارو سومر ٣٥٩ي).

موضوع النقل

كان موضوع النقل في بلاد ما بين النهرين عرضة للتساؤل في العديد من المـــرات، كونه يتعلق بالمظهر الاساسي بالحياة الاقتصادية في البلاد. ولولا دقة نظام التبدلات التابعـة لكان السهل النهريني محكوم بالتقصير والهوان بلا هوادة. لم يدرك تماما مدى الساحة التـي في نهايتها اصبحت بلاد ما بين النهرين تملك القدرة والاستقلال في تسيير العلاقات الواجـب نسجها بجدارة مع المناطق المجاورة، غير انه منذ عصر "اوبيد" لم تتطور مسائل النقـل الا ضمن هذا المنهاج الذي وضعت بموجبه خطة النقل .

ان الوثائق المتوفرة تقتصر على عصر "اوروك" فقط، مع الرسوم والبيانات من جهـة ومع التماثيل والايقونات من جهة لخرى. اما بالنسبة للعصور التي سـبقت الالـف الرابعـة لا بد لنا من الرجوع الى الحدس والتخمين، ومع نشرة الادلة يجب ان لانحكم بحـزم علـى الغياب الطبيعي لتطور الامور والاشياء، فالمعروف مثلا انه كانت هناك حلقة توزيع للاحجار الزجاجية السوداء قيد التداول منذ العصر الحجري القديم، اذ ان الشفرات التي عثر عليها في بلاد ما بين النهرين لم تكن صادرة الا من المناجم الاناضولية في منطقة "كونيا" .

لقد حدث اكتشاف كانت نتائجه غير محصاة خلال الالف الرابعة، وبـلا شـك كـان الدولاب في نهايته، والذي كان بالحقيقة وبالنسبة لاعمال النقل، ثورة حقيقيـة. ومثـل هـذا الاختراع لا يمكن اعتباره ظاهرة طارئة، بعد ان جسّم مجموعة من المفـاهيم. ان اسـتخدام الحدلة او المدرج ودولاب الخزف اصبح جزءا من الميكانيكية الذهنية التي تعاطاها الرجـل حينذاك، وليس بطريقة الصدفة، ان عمل بها سكان بلاد ما بين النهرين فور ظهورها متخذين نقطة الانطلاق نحو تقنية جديدة لصنع الاواني ولعملية النقل، الامر الذي يسّر هذا الاكتشـاف في الحالتين مكننة التعدين وتنشيط الفعاليات .

نتساءل ما هي وسائل النقل التي كانت موجودة قبل الدولاب؟ في بعض الحالات كان المركب يلعب دورا مهما سبق ذكره وسنعود اليه. ففي بادئ الامر أي منذ البدء كان النقل يتم بواسطة الانسان اما تدجين البقر الذي بدء به في الالف الخامسة، وايضا الحمير في المنتصف الثاني من الالف الرابعة اوجدت قوة جرّ حيواني خففت عبء النقل عن الانسان. ولكن طريقة الجر بواسطة الحيوان لم تنتشر بسرعة بل كان يرافقها النقل على ظهر الحمار التي بـانت

فائدتها ويبقى الثور هو الاقدر على الجر من الحمل على الاظهر. اما اكتشــاف البردعــة أي الجلّ جاء متأخرا جداء في الالف الاولى حيث استخدام الجمل في بادئ الامر. ولا يوجد ايــة ادلة قاطعة تؤكد استخدام (الترافوا Travocs)، ولكن المقطورة استخدمت منذ زمن مبكر، يدل على ذلك العثور على رسوم بيانية تمثلها وعلى لوحة حجرية رسم عليها صورة رجل ملتجئ الى ما يشبه الحجرة مرسومة في اعلى اداة للنقل قريبة الشبه بالمقطورة يجرها ثور، وهــي بمجملها تحمل نفس المعنى. وبعد مرور (٥٠٠) عاما تبنت مصر استخدام هذا الدولاب. ومع وجود هذا الدولاب في "سومر" لا يوجد أي برهان يثبت انه نموذج نقل نظامي، لانه لم يكــن يصلح استعماله في جميع الاراضي، حتى لو كانت تناسبه ارض عرينية او فخارية. يمكــن القول، ان المرحلة الاولى من تطور عملية النقل في بلاد ما بين النهرين كانت متميزة بطريقة النقل والحمل بواسطة الانسان، ومن ثم الحيوان، اما استعمال (المقطورات Tracnou) كــان محتملا. ولكن هل كانت هذه الوسائل كافية لسد الاحتياجات .

ان ظهور الدولاب بالتتابع بدّل جميع هذه المعطيات، فإذا تحققت قوة جر ادنى بقليــل من قوة جر الثور، يمكن بواسطة هذا الدولاب جر عربة، ويبقى الحمار كوسيلة جر طارئــة. وهذا يزيد من حجم النقل ويستفاد من عمل الحيوان كما يتيح الدولاب للعربة المــرور فــي الاراضي مهما كان نوعها وسلوك الطرق الممنوعة على المقطورات، واخيرا فــان الاثقــال التي يمكن تحميلها على العربة هي اكثر وزنا مما يحمله او يجره الحيوان. فقــد تضــاعفت كثيرا قدرة العمل مع النسب العالية في الوزن، وهذا ما يؤكد بان اختراع الدولاب كان ثمــرة للحاجة الماسة لتسهيل المبادلات بانواعها التي تساعد على تحقيق انطلاقة جديدة .

كان المهم في هذه المرة اكتشاف القاعدة ولكن لا يعرف فيما إذا كان هناك محــاولات سبقت استخدام الدولاب نفسه. كالمحدلة على سبيل المثال بالنسبة للمحــاولات فــاذا ســبق وجودها فليس لها أي اثر، مع انه لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن القاعدة يمكنها خلال دفعــة واحدة التقرب من دقة الصنع. وتبعا لتاريخها في عالم الشرق القديم يُمكن تلخيص مفهوم هذه القاعدة ببذل الجهد اللازم لتخفيف وطأتها، بالحقيقة بالنسبة لصناعة الخشب الملئــان كــانت قاعدة العمل ثقيلة الوطأة بشكل خاص. ولكن فيما بعد عام (٢٠٠٠) اثبت الرســم الايقونــي ظهور الشعاعات، مما اثر على عملية الصنع ولكن لم يغير القاعدة نفسها، ومنة جهة اخــرى وفي سبيل تأخير اهتراء الجنط جرت العادة بصيانته عن طريق المسامير الكبيرة .

بعد الدولاب ظهرت العربات الجديدة التي لم تكن سوى مقطورات ثُبّت فيها الدواليب التي سبق ابتكارها ، فاطلق عليها تسمية "العربة ذات الاربع دواليب" انجزتها تقنية الالف الثالثة اصبحت حتى ذلك التاريخ هي الوريث المباشر لعملية النقل. ولا يميز هذين النوعين الا الدواليب او المزالج ذي البكرات. وفي منتصف الالف الثالثة، تميزت عربات الحرب بعلم "اور" وكانت مجرد مركبات بأربعة دواليب ومجرّ من الخشب. فهي خفيفة التنقل اثناء المعارك او نقل المواد بعجل. كونها غير مخصصة لنقل الاحمال الثقيلة والمهمة. واحيانا في العصر الاشوري، كانت تجهز بمقعد يجلس عليه، خلال مراحل القتال، سائق بجانبه محارب مع مساعدين له مدججين بالاسلحة والدروع .

اما الكدن فكان على الغالب على نوعين: كان يتناول في بادئ الامر الحمير وفي نهاية الالف الثالثة واوائل الثانية تناول الخيول، وكان للكدن انواع عدة، النير حسب المعتاد، يثبت بالمجرّ بواسطة طوق يستند على غارب الحيوان وان آلية هذا الكدن اشتقت من عملية كدن النير الذي استخدم على الابقار منذ الاخذ بعملية الجر الحيواني. وكان يحصل على مرات، اثناء نقل برونز (تل-حراب) ان تجر العربة المحمّلة بواسطة اربعة احصنة في الواجهة، والحقيقة ان الحصانيين المكدونين في الداخل هما الذان يقومان بعملية الجر بينما الآخران على الجوانب يستخدمان للتبديل. وعلى ما يبدو، استمر هذا الطراز حتى نهاية تاريخ بلاد ما بين النهرين حيث تأكد وجوده في العصر الاشوري.

وبجانب العربة الخفيفة والسريعة ذات الدولابين يوجد ايضا عربة النقل، وقد ورد ذكرها في النصوص، ولكن لم يصلنا عنها الا القليل من البيانات. وسبق ان عثر على نموذج منها في (تل- غاورا) امكن اخذ فكرة عنها وعن صندوقها المستطيل، ودواليبها الاربعة الممتلئة والغطاء وان ينقصها المجرّ والنير الذي يستخدم لكدن الابقار المعتادة على جر هذا النوع من المركبات .

ولا بد من ذكر، عدم استخلاص أي تطور بالنسبة لكدن وتحميل فصيلة الخيول، التي تُمتطى دون سرج واحيانا مع غطاء .

ولكن بالنسبة لشبكة الطرق في بلاد ما بين النهرين هل طرأ عليها تطور ملموس من الناحية التقنية، وفي تلك الايام لم تكن الطرق الا آثارا لمرور متكرر للمسافرين وللقوافل. اما الاعمال الهندسية لا تتعدى المدن فقط، اما في خارجها لم يعثر على اية آثار لصيانة

اصطناعية، او لاكساء خاص او لتبليط حجري، او غيره والنصوص المتوفرة تؤكد بالاحرى عن العراقيل في السير التي كان يسببها الوحل اكثر مما كانت تقوم بـــه مصلحـــة صيانـــة الطرق. ومع ذلك لا تكون هذه الطرق بحالة سيئة دوما، اذ كان "حمورابي" يعطي الاوامـــر الى عملائه لاجراء الصيانة كل يومين لمسافة (٢٠٠كم). وبهذا كان بالمستطاع السير مسافة مئة كم في النهار، خاصة وان الطريق كان مجهزا بمواقف لتبديل حيوانات الجـــر بصـــورة نظامية. وبهذا لم يكن يتعثر السير الا صدفة او نتيجة اعمال الصيانة .

بالحقيقة، وحسب ما ورد بالنصوص، جرت محاولات لانشاء "الجسور" فكـــانت فـــي بعض المرات تبنى بواسطة المراكب أو، فنيين او بمجموعة اعمال فنية تجانب مجرى المياه، وبنتيجة ذلك وجد جسر بابيلونة على الفرات الذي كان يرتكز على سبع دعامات بقياس (٩) م على (٢١)م على مسافة (٩)م. بنيت من القرميد المشوي ومن الاحجار المقفولة بالرصـــاص والحديد بشكل يمثل ابداعا هندسيا في ذلك الزمن، للوقوف على مكانة المهندسين في بلاد مـــا بين النهرين في هذا المجال، يمكن الرجوع الى هندسة انشاء قناة الري في (جوران) لبنـــاء من الحجر المقصوب (بطول ٢٧٥ م وعرض ٢٣م) تحقق في اوائـــل القـــرن الســـابع، وان القصد من انشائه مجانبة الوادي لإرواء"نينوى" بالمياه .

كانت تقنية النقل عن طريق المياه مدعاة لعمل متقن ودقيـــق، وفـــي فجـــر الازمنـــة التاريخية القديمة اثبتت الرسوم البيانية وبعض زخارف ونقوش الاختام الاسطوانية المضافـــة الى نماذج مصاغة بالطين المشوي، وجود المراكب وطبيعة بنيتها، فتلك المراكب او الزوارق التي حتى اليوم لم يجر بشأنها دراسة كاملة ومستفيضة تبدو انها كانت متوافقة مع الاوضـــاع حينذاك، مثل: المستنقعات في الجنوب، والاقنية والجداول في الوسط والشمال، وكان القصـــد من الانتفاع بها، اما التنقل فيما بينها او نقل البضائع عبرها، ولهذا كان يوجد على جانب كـــل زورق صغير الحجم او كبير، حجرات مغلقة لها شكل دائري. معمولة من القصب، ومغطـــاة بالقار والتي كانت تدار بوضع القرفصاء او الركوع ومزودة بمضخة. وكان هنـــاك ايضـــا زوارق اخرى مصنوعة من حزم القصب يجمعها مع بعضها اربطة بشكل مســـتطيل تمكـــن المارة من الجلوس فوقها. وسبق ان عثر على مثل هذه النماذج في المستنقعات .

كانت الزخارف الاشورية في الالف الاولى ابرزت استعمال القـــرب (جمـــع قربـــة) المنفوخة وكانت تستخدم كطوافات لانقاذ الغرقى او دعامة لطوافٍ عن طريق سلسلة من هذه

القرب، غير ان اساس هذه التقنية التي لم تذكرها اية وثيقة او مرجع منذ الالف الثالثة والثانية غير معروف .

اما القوارب الخشبية الكبيرة فقد تكيفت على السير على الطرق المائيـــة الطبيعيـــة او المصنعة، واذا كنا نحن نعرف ماهية ورش البناء غير أننا نجهل اساليب الصنع لذلك باللجوء الى الوثائق المصرية كنا نجدها تسد هذا الفراغ، لان مستوى التقنية في المنطقتين كان واحداً.

ولا بد من الاشارة بأن صنع هذه القوارب كان يتطلب كمية كبيرة من الخشب الواجب استيراده ومنذ عصر "اوبيد" كانت الانهار تستخدم كطريق للتموين وخاصة نهر الفرات، كونه الوحيد والمفضل في نقل جذوع الاشجار، ولذلك كانت التجارة عبر المسافات الطويلة هـــي الأسرع في التطور والازدهار مع طول الانهر من الطرق البرية، الذي استمر فيها النقل عن طريق الانسان. اما النقل للمنتجات الوزنية او المربكة جدا مثل الخشب لم يكن ممكنـــا قبـــل اكتشاف الدولاب الا بالطريق البحري.

كان الابحار يُدار بواسطة المجاذيف أو العقافات لعدم وجود دفة المركب أي المقـــود وحاملة الشخص حينذاك لقيادته، اما الموّجه المنشأ في الخلف لا يمكنه تأمين الاتجاه الا عـــن طريق العقفة عندما تكون اعماق المياه اقل من المطلوب، وهي الحالة المعتادة، او عن طريق المجداف الموضوع من الجانب، ولا يوجد اية مرساة، لهذا كان يربط القارب بكـــل ســـهولة على وتد بقرب الشاطئ. او يجره الى حافة المياه لربطه بعيدا عن الصخر، اذا وجد لســـهولة الابحار. اننا نملك بالنسبة لهذه الطرق بعض المعلومات عن الاجراءات المتبعة في مرافــــئ المتوسط، ولكننا نجهل تماما الطرق المتبعة في الخليج الفارسي .

وفي هذا المجال لم يلمس أي ابتكار تقني استخدم خلال تاريخ بلاد ما بين النهرين وقد سيطر الشعور طويلا مفاده بان تقنية الابحار عبر الانهار والاقنية والمستنقعات كانت نحـــو عام (٣٠٠٠) قائمة، وفي وضع سليم، بسبب الخبرات المتراكمة منذ عصر "اوبيد" ولربما قبل ذلك. وقد طرأ تبدلات على هذه الوسائل خلال عصـــر "اوروك" بســـبب كثافـــة المبـــادلات التجارية .

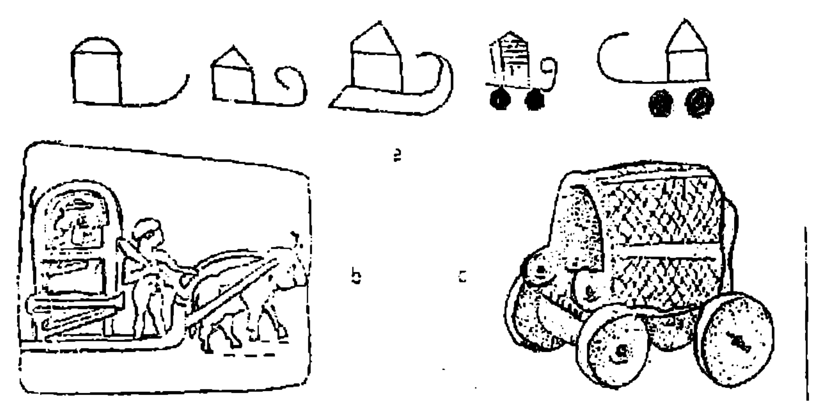
تقنية البناء

تولدت الفكرة الاولى في انشاء المباني الدائمة بين (الالف ١٣ و ١٠) كانت تحددها الرغبة الشديدة في التحضر كونها نضجت مع خلق الابتكارات الهندسية، والتي قادت الانسان الى الاستفادة من الموارد المحيطة لبناء مسكنا ثابتا يلجأ اليه. وقد يُسرُ له هذا الطموح سرعة تلمُسْ الحلول الرئيسية للعقبات التقنية التي مكنته من التغلب عليها بطرق جديدة .

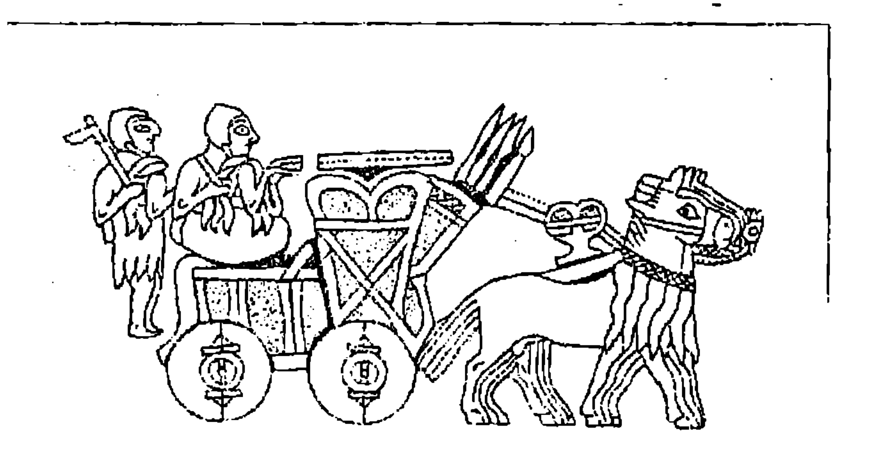
الموارد المحلية

ان وضع بلاد ما بين النهرين لا يتفق كثيرا مع الفكرة السائدة بأنه كان الوسط الناجح الذي ابتكر الاعمال الهندسية الكبيرة، لان الحجر والخشب المعتبر وكأنهما المادتان الاساسيتان فيها هما نادرا واجمالا ذات صفات رديئة او غير موجودة، فكان البناؤون مضطرون احيانا نتيجة بعض المعايير، العمل بالمواد المتوفرة، عموما بالقصب والفخار، ولكن لوحظ ان مجموع مناطق حوض ما بين النهرين ليست بنوعية واحدة او بمقياس واحد لان لكل منطقة خاصيتها.

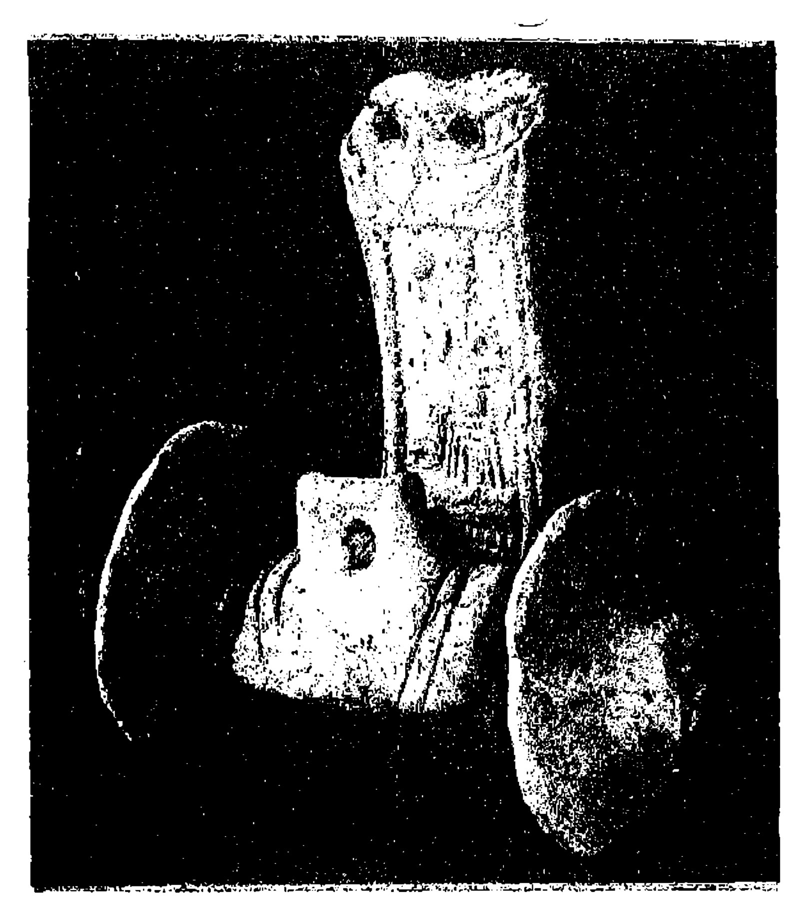
١- ان السائد في السهل الغريني وفي سهل الدلتا هو الطمي والقصب ذات البراعم في مستنقعات الجنوب ومع طول الجداول أو الاقنية. فكان الحجر عمليا غير موجود ما عدا المقالع الكلسية وبقرب "اوروك" التي كان يستخدمها السكان المحليون. فكان يصنع الخشب عمليا من شجرة النخيل ولا يصلح كثيرا للبناء واذا كانت تقضي الضرورة باستخدامه، فكانت شجرة الطرفاء تقدم الواح الاردواز وشجرة الحور، وليس الجسور الخشبية .



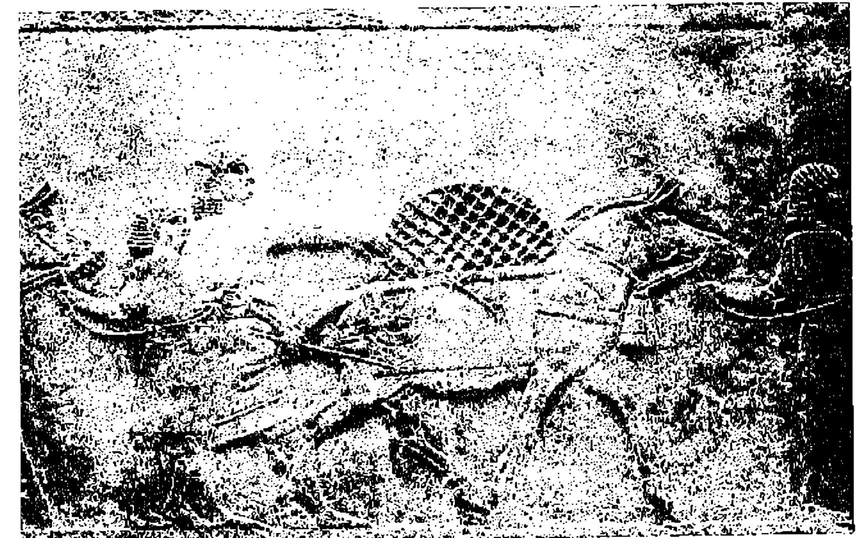
مقطورة جر -آ- رسوم بيانية بدائية لحو (٣٠٠٠) تمثل عربات جر تعلو الدوا
(ب) رجل محمول على عربة جر تقودها ثور. (ج) نموذج من عربة
مغطاة ذات اربعة دواليب عثر عليها في تل - "غاورا" ويحمل تاريخ
نهاية الألف الثالثة (ايتوار وكرويل)
صورة -١- و -١٦- آمييت ج١.



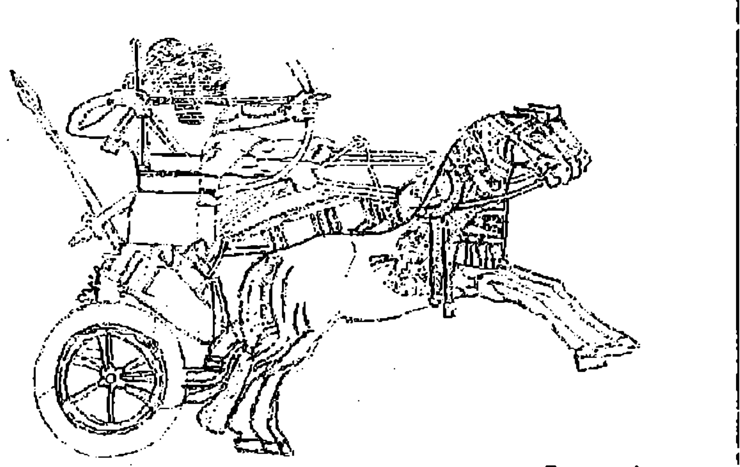
عربة حرب تحمل علم "أور" (ايتوار وكروبيل صورة -٣)



نموذج عربة بدولابين مع مجر العجلة مع الحاجز الفاصل مزين بآلهة جالسة وتحوي على ثقب في جزئها الأعلى لمرور العنان (متحف اللوفر).



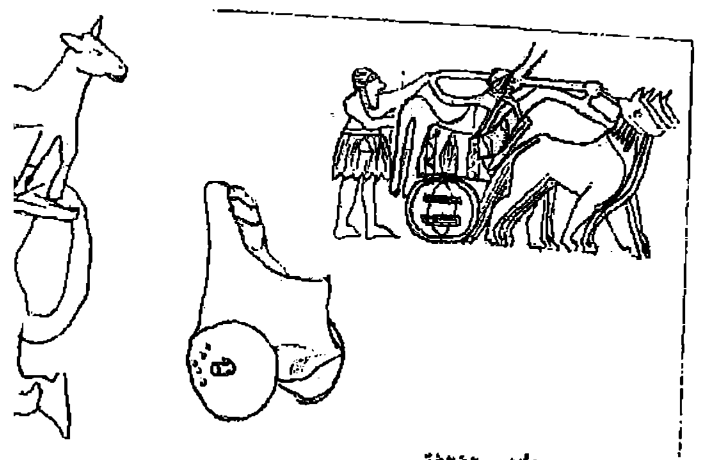
صورة تمثل التنقل على صهوة الحصان في العصر الآشوري



عربة حرب آشورية على زخرف يرمز إلى آشور ناسيبال الثاني

(٨٣٣- ٨٥٩) في نمرود (المتحف البريطاني)

(ليتوار – كروبيل الصورة ٣٥).

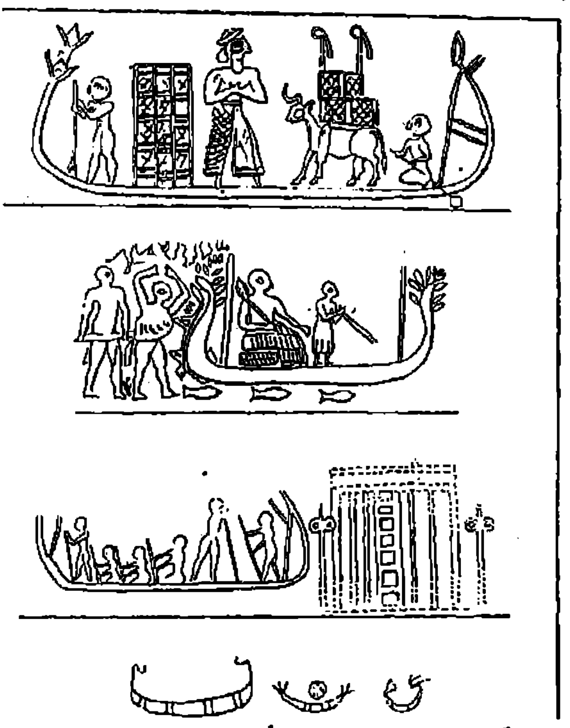


أ- مركبة بعصر الألف الثالثة

ب- دليل لفنان من البرونز يعلوه حمار

ج- مركبة من الطين المشوي بدولابين عثرعليها فـــي "كيـش" الألـ

(ليتابور وكروبيل صورة -٩- ٨- و١٠).



صور مختلفة لقوارب مرتكزة على أختام اسطوانية قديمة (آمي

أ Amiet GM ١٣Pl مكرر (تصوير آي -٨٢٧ - ٥٥

مريوم ببانية بدائية نحو (٣٠٠٠) .



قارب حديث على ممر مياه في بلاد سومر

٢- كانت الوديان المتوسطة في الفرات والدجلة تحرّز السهول المرتفعة مشكلة صخور كلسية من جهة الدجلة، وجبس مع تراب الجمر في الفرات. غير ان تلك الحجارة ولو كانت لا تتميز بصفات جيدة كانت تستخدم في الاعمال الهندسية. كما يوجد في تلك الوديان اراضي الطمي – القصب بكميات قليلة مصدرها الجنوب، وايضا الاشجار التي يمكن استخدامها كلوحات للصقالة، وهناك من الاشجار ذات المنفعة المحددة مثل الحور والصفصاف .

٣-يتوفر في بلاد التلال والاكتاف الجبلية السفلى الاحجار من النوع الجيد وبصفات عالية، وايضا يوجد انواعا من الاشجار الخاصة بالبناء مثل: (السنديان – الاشجار الصمغية) ولا ننسى ارز لبنان المشهور أو ارز الامانوس .

غير ان وقوع مثل هذه الحالات في بعض هذه المناطق التي اعتبرت منفردة ولدت تقنيات جديدة في طرق البناء فيها بعض التنوع، الذي استطاع ان يلعب دورا في تنمية الطراز الهندسي ساعدت على تعميم وتغطية تلك المستجدات على بقية المناطق. واذا كانت المقاطعات المحيطة اكتفت راضية باستخدام المواد الموجودة لديها رغم ندرتها، بالمقابل فان اراضي السهل الغريني التي لم تتجاوز سكانها حينذاك مستوى الاقامة في مساكن بدائية مثل (اكواخ القصب – او غرف من الطين بعرض (٣) م، لا بد لهؤلاء السكان من التوجه نحو استخدام المواد الخشبية المختلفة في البلاد المجاورة وايضا الاحجار اللازمة للابنية الخاصة .

كيفية استخدام المواد

١- **القصب والخيزران:** كان يُنسج على نموذج حصيرة او يجمع بشكل حُزمٍ، ليبنى به العديد من الاكواخ المعروفة باسم (زريفة) او قرى كاملة احيانا في جنوب ما بين النهرين وخاصة في مناطق المستنقعات، اما الحصائر المنسوجة كانت تُفرش في الغرف أو في سقف البيوت الفخار بعد بسطها على الجسور أو على مثبتة الاردواز أو الخشب ليصبح الحامل لطبقة تراب السطح، وقد استخدمت ايضا كمصاريع للابواب والشبابيك، او كماطورة بسيطة تعلق امام النوافذ. اما القصب، فعندما يغطي الفخار فانه عندئذ يشكل الهيكل لجدران البيوت، وايضا يلعب القصب دورا اساسيا كدعامة لمنع الانزلاق باشراكه مع القرميد حيث يتشكل

منها سلسلة من طبقات الالواح، تستخدم في الجدارات وفي اعمال الابنية الكثيفة من طراز (زيكورات Ziqqurat) .

٢- نظرا لندرة الخشب في حوض ما بين النهرين فقد كان يدخّر لبعض الاستعمالات التي يصعب الحلول محلها، وكذلك الجسور الحاملة المستخدمة كدعامة للسطح ولدرف الابواب بطبيعة الحال، وهناك انواع اخرى من الخشب ترقى الى المبادئ الهندسية مثل ارضية الطابق اذا وجد او الدرج الموصل اليه، وفي المساكن ذات القيمة يمكن استعماله كتلبيسة او زخرف، غير ان دوره كدعامة للسقف او كسقف تضاءل كثيرا رغم توسعه في العمال الهندسية الزخرفية. وفي المناطق البعيدة عن المدن حيث يصح نمو الاشجار بالشروط الجيدة يستخدم الخشب لربط الجدران الحجرية في البناء المفرغ. ولا بد من عودة مكانته ودوره الحقيقي في الهندسة، فهذا ما اقلق ملوك وسلطات بلاد ما بين النهرين الذي اضطرم الى تأمين الخشب المطلوب عن طريق الخارج، وهذا المثل يكفي لمعرفة الحاجة عند عدم توفرها، اما بالنسبة للحجر تندر وجود ابنية من الحجر في اراضي الطمي من البلاد غير أن "اوروك" تدين لمقلع مجاور وجد بشكل استثنائي، وهذه المادة هي الاكثر استخداما في الابنية الضفدعية، واحجارها كبيرة مجوفة في الداخل، حيث يستند مدار الباب عليه حتى لا يغرز في الارض في كل حركة فتح واغلاق، وفي الابنية الفخمة يحدث احيانا وضع البلاط كعتبات في الممرات الرئيسية، أو كقاعدة للقبة في القصور، اما في الاراضي الغرينية لا يستخدم البلاط الا نادرا .

وفي البلاد التي يكثر فيها الحجارة بصورة طبيعية، يصبح واسعا ومنتشرا ولكن ليس ضمن الحدود المتوقعة له، ويستعمل للاساسات أو للمداميك الاولى في البناء او بشكل دبش عشيم من مختلف الاحجام، وهو كثير الاستعمال في بلاد الشرق. وكان يندر اقامة اي بناء دون حجر أو دبش. وفي اوغاريت خلال العصر البرونزي كان يفضل اشتراك الحجر مع الخشب بشكل مدعّم او مفرّغ، بالاضافة الى البناء الحجري الضفدعي فقد تحقق بواسطة هذه المواد الصلبة جدا وايضا، بناء العتبات، والدرجات في السلالم، وتبليط اراضي الغرف والممرات وغيرها .

استخدم الحجر ايضا في بلاد ما بين النهرين الشمالية لنصب الاعمدة الحجرية في قصور الاشوريين الكبرى، وكان هذا عملا مميّزا جدا، وكان يُعدُّ فنّاً جماليا فخما كونه حقق

زخارف مهمة ولكنه لم يرقى الى العمل الهندسي المبدع، كونه لا يتعدى الرصف او تصفيح جدران القرميد وليس على طريقة التكامل البنيوي، كما هو الحال في سورية الشمالية او لدى الحثيين، الذين صدّروا الى الاشوريين، الذين تعاطوا مع تلك الاعمدة المنتصبة والمنفصلة تقريبا، بوسائل كانت تهدف الى تحقيق صنع لوحات راقية، في سبيل نشر انتاجهم في مجال فن الصيد او الفن الحربي .

وتجميل مساكنهم اكراما للجن او للمظاهر الدينية او الكهنوتية دفاعا وحماية من قوى الشر .

٤-**الفخار والقرميد** : ان الفخار الموجود في كل مكان اصبح المادة الاساسية في البناء المبني على الفن الهندسي حتى في البلاد التي يتوفر فيها الحجر والخشب. غير انه لا يمكن استعماله قبل تحضيره ليصبح قابلا للبناء. على الغالب ينتقى ارض بقرب الورشة العاملة، وتتطلب سهولة مباشرة العمل الدقة في انتقاء المواد ذات الصفات الجيدة، يرافقها ايضا رغبة جدية في استعمال الارض النقية والصالحة للصنع، ولو اقتضى نقلها من بعيد، وبعد تخليصها من كل شائبة كبيرة يجبل هذه التربة مع المياه وتمزج بالتبن المقطع بحسب نسجها وحسب العادات المحلية او العشب واحيانا حسب الرمل او الحصى الكبير او الرماد. ويتم الخلط عن طريق دعس ارجل الحيوان او الانسان، ولدى الوصول الى ثبات المزيج يترك الخليط للراحة حتى يكتسب التجانس المطلوب. وبعده يمكن استعمال هذا الطين للبناء كما هو او اعطائه الشكل المطلوب قبل استخدامه .

يجب استعمال هذا الطين مباشرة، ويمكن ان يبنى منه جدران يمكن رفعها عاليا بعد وضع طبقة فوق طبقة شرط نشافها بعد قولبتها باليد. ويمكن ايضا رفع الجدران بالقوالب وتكويم الطين داخلها للحصول على الطين المدكوك بالمعنى الاشتقاقي. ان طريقة هذا الصنع للفخار كانت تستخدم للبيوت قبل اختراع القرميد، وفيما بعد استخدمت لصنع جدران سياجات البساتين او سياجات النخيل .

وقد تتابعت عملية صنع قوالب القرميد على ارض سوية ومبسطة، يستخدم فيها قالب الخشب بدون قعر وغطاء، وهو كناية عن اطار يحدد ارتفاعه سماكة القرميد. وعلى ارض مسطحة وخالية من البحص ومغطاة بطبقة من التبن المقطع الناعم، يُوضع القالب ويُملأ بطين البناء حتى الحافة بعد دوزنة السطح الاعلى، ويترك خليط الطينة على حالها وبعد جفاف

الطينة يرفع الاطار ويوضع جانبا لتكرار العملية من جديد. فان ايقاع الصنع يصل عادة الـى بعض المئات من قطع القرميد يوميا. ولكن قد يختلف هذا الرقم حسب الجهد المبذول وعـــدد المساعدين. وبعد ان يترك القرميد المقولب على الارض بضعة ايام للنشـــاف، يرفـــع فـــوق القالب من جديد ليباس الوجه الثاني. وفي نهاية هذه المرحلة يصبح القرميد جاهزا للاستعمال.

اما مباشرة العمل به، لا يتتطلب اية خاصية، غير ان قليلا من العمل التقني يدعو إلى اكتمتال التصنيع، وعلى العموم يوضع القرميد منبسطا حسب عرض الجدار، امـــا المدمـــاك اللاحق يوضع بشكل يغطي الفواصل. وبين كل مدماك وكل قطعة قرميد يُمَدْ طبقة من البلاط المصنوع من الفخار الممزوج بالتبن المقطع الجاف، وفي الوقت المناسب أي بعد الانتهاء من اشادة المداميك تلصق حصر القصب على الجدار بعد بناء (٨- ١٠ – و١٢) مدماكا حســـب التصميم وعند اكتمال الجدران يغلف بطبقة رقيقة جدا وناعمة من المعجـــون الفخـــاري ذات الصفات العالية .

٥- شي القرميد : منذ نهاية العصر الحجري المصقول وبنتيجة الممارسة ثبت ان طريقة الشي اكسبت القرميد صفة الصلابة الممتازة والمقاومة العالية للمياه. ويعود ذلك الى اتســـاع فائدة السيراميك لمواد البناء وفي زمن مبكر، تم اللجوء الى شي البـــلاط المســـتخدم لتبليـــط الارض وشبكات اقنية المياه الذي لم يعمم الا مؤخرا، بينما القرميد المشوي انحصر استعماله لزمن طويل لاعمال خاصة مثل (المقاعد الحجرية – المصاطب – الخوابي – المغاســـل ...) وفي المنتهى الاخير للالف الثالثة تكثف الاستعمال، بعد ان تزايد بناء المؤسسات بعد اشـــواك القرميد المشوي في بناء العديد من المداميك بالقرميد المشوي كأساس للحائطِ الذي كان يتـــليع تعليته بواسطة القرميد المشوي ايضا. وهذه التقنية كانت تبدو قريبة من طريقة التناوب بيـــن مداميك الحجر والقرميد المشوي في بلاد الشرق، وقد ازداد وتطور استخدام القرميد المشوي في اعمال البناء، منذ ذلك الزمن، ولكن دون تعميمه كلياً. وفي الالف الاولى اكتسب القرميـــد بعض الاهمية كما ظهر ذلك في بابيلونة حيث يَرْبض "باب عشتار" وقصر "نبوخوذ نصـــر"، فصنعوا منهما اشكالاً مميّزة في واجهات من القرميد المزخرف ذات اشكال فـــاخرة وحســـنة الصنع. وفي جميع الاحوال كان البدء بطريقة الشي علامة اليسر أو الثراء. بعـــد ان كـــانت الحاجة ماسة الى المحروقات كمواد نادرة في بلاد ما بين النهرين .

٦- الصفا ت الحسنة والاخطاء في هندسة الفخار : يصعب نسبها الى اية مجموعة من الدلالات، وذلك يعود الى طبيعة العمل الهندسي الذي يعمل به. والصفات التي ميزت ذلـــك، هو توفر المواد الاولية ورخصها على ضوء اليد العاملة، وايضا سهولة المباشرة في العمـــل، بالحقيقة، يوجدالكثير من البنائين، ولكن نستطيع كل عائلة بناء بيت لها من القرميـــد الـذي يمكن صنعه من قبلها أو من تكليف أي اخصائي مأجور الذي كـــان عـادةً ببنـاء الأبنيــة الابنية العامة .

من جهة اخرى، يعتبر الفخار مادة بناء ذات صفات عالية، وليس كمـا يعتقـد لـدى البعض بأنه مادة اولية لدى شعب فقير، واذا كان سكان بلاد الشرق يستخدمون الفخار رغـم توفر الحجر في بلادهم، فهذا ليس عن جهل الامكانيات الوافرة التي يقدمها الحجــر، ولكـن للصفات التقنية الجيدة التي كان يتميز بها الفخار. كونه عازل جيد مؤهل للاحتفاظ بالرطوبـة صيفا وبالحرارة شتاء كما ان طول بقائه يعود الى عدة عوامل منها: صفته الجيدة في البناء – سماكة الجدار – الحماية من التآكل في النقاط الحساسة – صيانة منتظمة – اشراكه في هندسة المواد اللاصقة، او المفردة، وقد قدر ان حياة بيت القرميد المشوي تدوم طويلا مثـــل حيـاة الانسان، وهذا لا يفي بالمعنى المطلوب لان كل بناء يشاد على عجل وبدون اهتمام لا يـــدوم اكثر من عشر سنوات، بينما بالمقابل اذا بني آخر بكل اعتناء وتمتع بصيانة مستمرة قد يدوم الى مئة عام وأكثر، حيث نجد كيف عاشت الابنية الضخمة كثيرا مثل اجزاء بنـــاء "قصــر ماري" الذي دام اكثر من (٣٠٠) قرنا بعد دماره وايضا معبد الـــ (اي. بابار E . Bababar) في "لارسا" الذي بناه حمورابي في القرن الثامن عشر وبقي منتصبــا حتــى القــرن (١٢)، بالحقيقة، يقاس دوما ضعف مادة البناء بمدى احساسها وتاثرها بالمياه لذلك اذا بــذل الجــهد والانتباه في تفادي أي ضرر للبناء فلا مجال للخوف من تلاشي المادة السريع .

الحاجة الماسة للخشب في اعمال الهندسة المعمارية

تسمح الهندسة المعمارية تحديد مقدار حاجة حوض بلاد ما بين النهرين مـــن خشــب البناء ولتغطية المطالب الاتية التي كانت تقدر بـــ (٣ او ٤ امتار من الخشب المحلي، كما هو الحال في الحور والنخيل، فقد وُجدتْ غير صالحة للبناء ومع ذلك اد امســـتخدامها بصـــورة

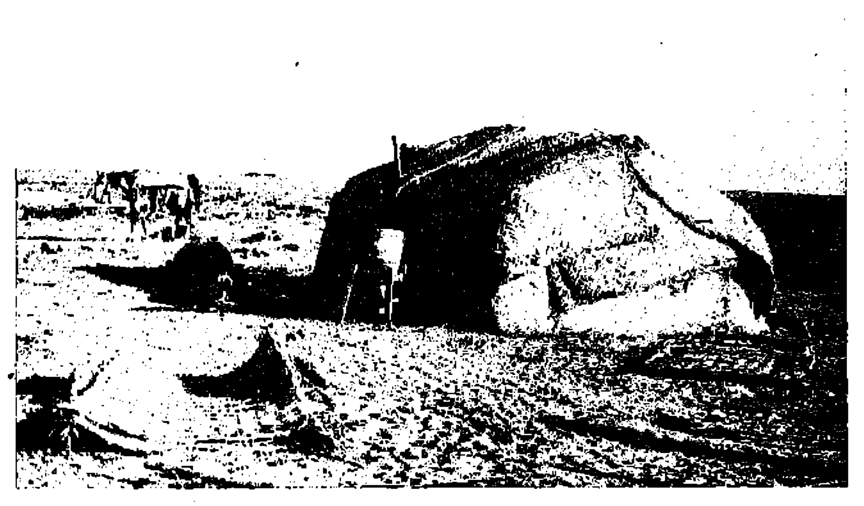
طبيعية نظرا لفقر الموارد بشكلها العام، ويسبب ذلك ان لا بد من تــأمين الاشــجار ومنــها الراتنج المفضل الذي كان ينبت في الجبال المحيطة، ان الاجزاء القليلة النــادرة مــن بقايــا السقوف التي عثر عليها حتى الان، وهو ايضا آثار طوابق البناء المكتّشفة في قصر "مــاري" تعطي فكرة واضحة عن تنظيم الطوابق المنخفضة فوق الدور الارضي، وعن السقوفة، وعلى ضوء هذه المعطيات، يمكن تقدير كميات الخشب اللازمة للبناء، بشكل تقريبي يدعــو الــى التساؤل .

يعطي المعبد الحجري الكلسي المشاد في "اوروك" في نهاية الالــف الربعــة المثــل الواضح، بفضل حجم وكبر سعته للمساحة المركزية (الفرجة<١١>م . والطــول <٦٣> م). وبالنسبة للجوانب السفلي ان الفرجة (٤٥٠)تسمح بتقدير الطول الاجمالي للجسورة اللازمــة للسقف وللطابق المنخفض، وذلك ضمن فرضية صغيرة وبسيطة مفادها عدم ادخال طابق بناء الا على الجانب المنخفض. وايضا لسقف المعبد الحجري الكلسي لدى المباشرة ببنائه كان من المحتم ان يكون مالكا لبعض الالوف من الامتار الخطية من الجســورة (٦٠٠٠م او اكــثر، مقسومة الى ثلاثة اطوال (٦/٥ م – ١٠ م) (على الاقل لنصف المجموع) و(١٣)م او اكــثر غير ان هذا التقدير لا يراعي الا الجسورة فقط دون أي من الاحتياجات الاخرى من (ابــواب – التلبيسات – الادراج – ......) وبهذا القول بأن الامر لا يعني الاّ كسب اعتبار بسيط .

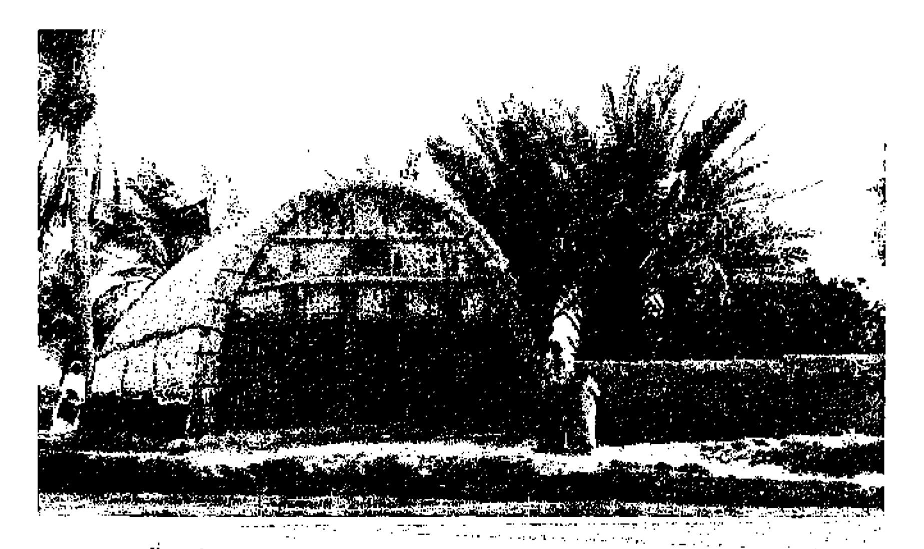
اما قصر (سنكاشيد Sinkashid) الواقع في "اوروك" أيضا، الذي يعودالى الالف الثانية فهو مفخم جدا وبشكل شبه المنحرف (١٠٠/١٠م) من جهة، و(١٤٠م) من الجهة الاخــرى ، وهذا القصر يتمثل بجميع خصائص البناء الجيدة في عصر الاسرة العمورية المالكة، ويعتــبر حجمه قريب جدا من حجم قصر ماري، وقد ابان التحليل والتنقيب وجود طابق يغطي جــزءً كبيراً من المساحات المبنية تطلبت (١٦٠٠٠م) على الاقل من طول الجسورة لهذه العمليــة، ولكن تبين فيما بعد بان هذا الرقم هو فعلا أقل مما هو في القديم. ومن اصــل مقــدار الــــ (١٦٠٠٠م) المذكورة كان بمقدار الربع من الجسورة يتروا ح طول الواحد بين (٣ الــى ٥م) والتي تأمن توفرها من الموارد المحلية. اما الباقي من الاطوال الذي قد يزيــد عــن (١٢٠٠٠م) ويُشكل ايضا جسورة، ولكن بأطوال (٧/٥م – ٩/٧م – ١٠م – ١٢م)، والاجراء نفسه ينطبق على المعبد الحجري الكلسي، ثم هل كانت بلاد "سومر" اهلا للاجابة على مثــل هــذا الطلب القاسي؟. الحقيقة كلا، لانه كان يتوجب استيراد كمية الـ الاثنى عشر مترا الخطية من

الجسور خلال مرة واحدة، وهي بمجملها كمية ضخمة يصعب الحصول عليها الا عن طريق البحر، هذا يعني بان الفرات هو الذي يخدم "اوروك" وسورية التي كانت تؤدي المطلوب في كل ما هو رئيسي.

كان ذكر هذه الارقام مؤثرا، وحيث تبين عدم استخلاص النتائج الكاملة عن صحة وحقيقة الحاجات الفعلية للحياة اليومية فيما يتعلق بتنظيم الطرق التجارية وتنظيم الحياة السياسية .



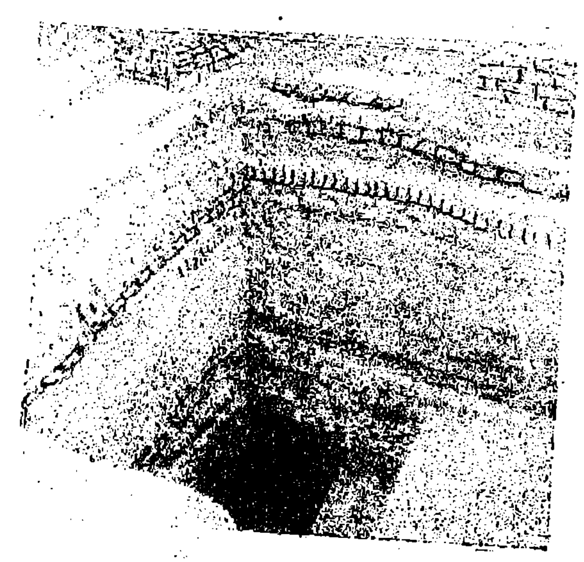
بناء تقليدي في بلاد ما بين النهرين (زريفة) في منطقة (لارسا)



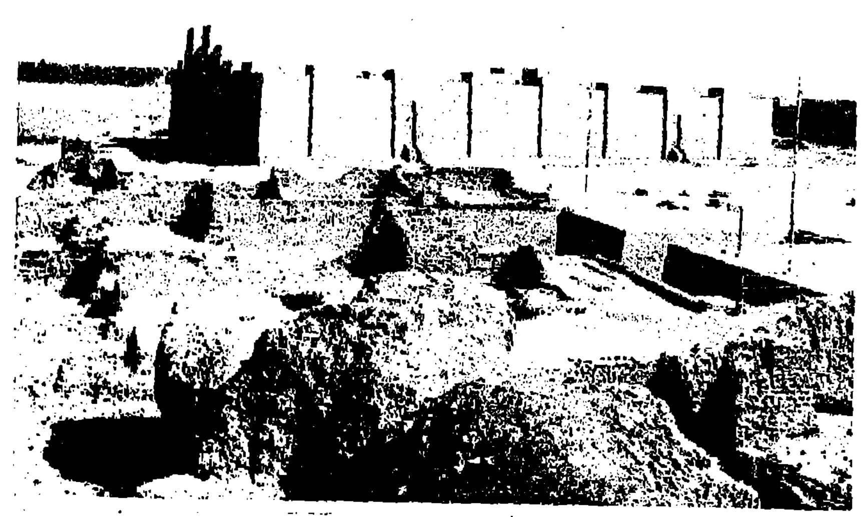
بناء (مدهيف mudhif) في بلاد سومر مبني حسب الطراز"
التقليدي من حزم القصب والحصر.



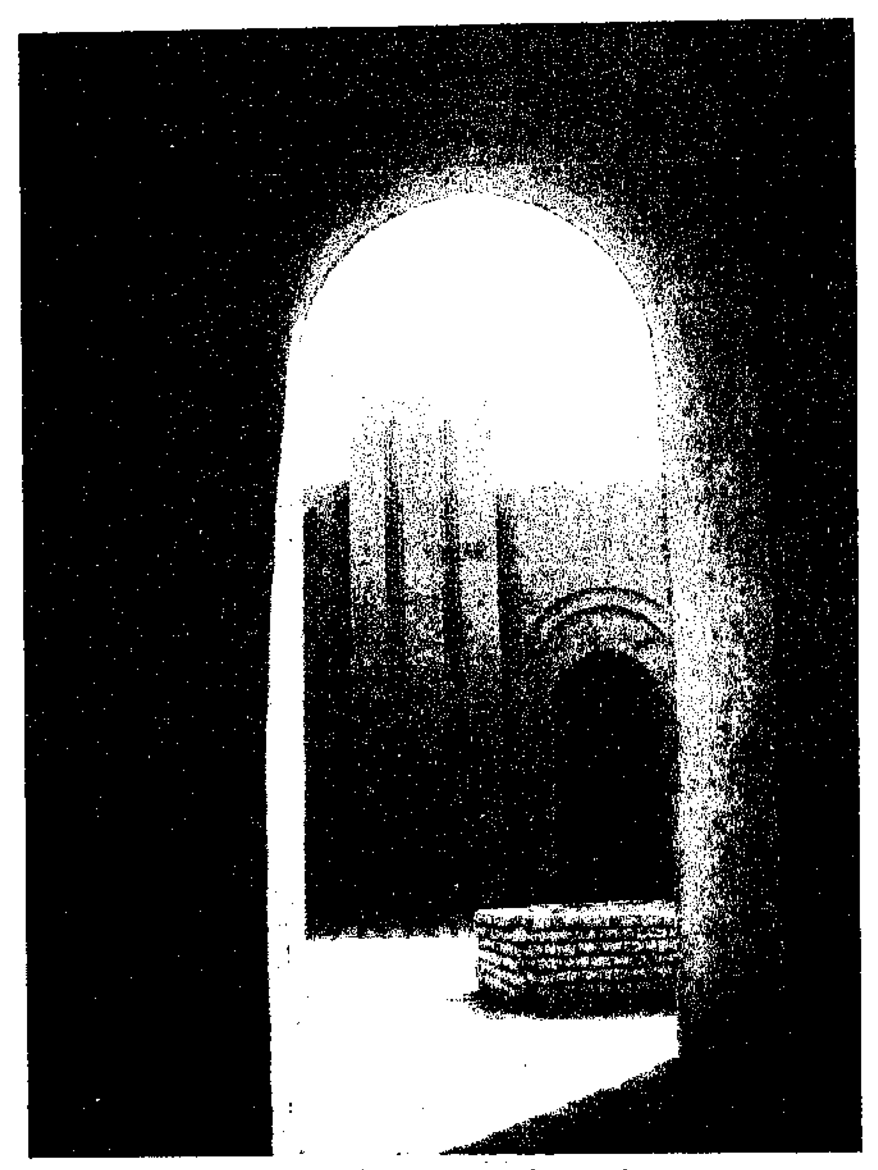
تحضير التراب الذي سيصنع منه القرميد



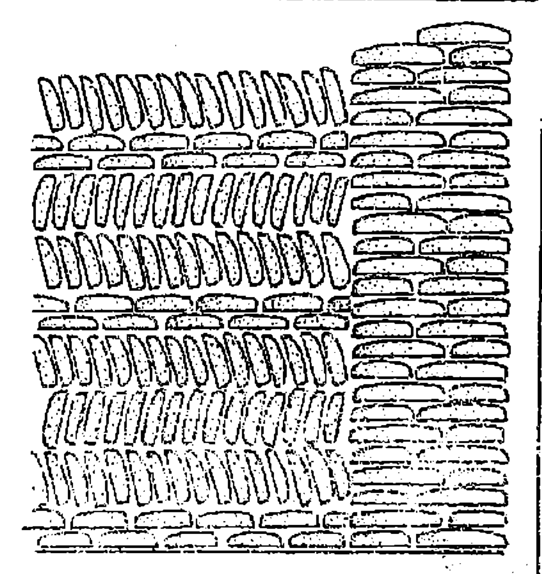
بنية لجدار أشيد ما القرميد المشوي مع أساس من القرميد المشوي كان يعلوه أيضاً قرميد مشوي مفقود الآن، قصر (نو – أدده) في لارسا "القرن ١٩" ترتبط أهمية البناية مجموع الطابق الواحد فيها.



صورة تمثل ترقيم معبد (نينماه Ninmah) في بابيلونه راجع ص) كما تمثل المظهر الممكن لبناء في منتصف الألف الأولى.



الباحة الداخلية لمعبد "تينماه" في بابيلونه.



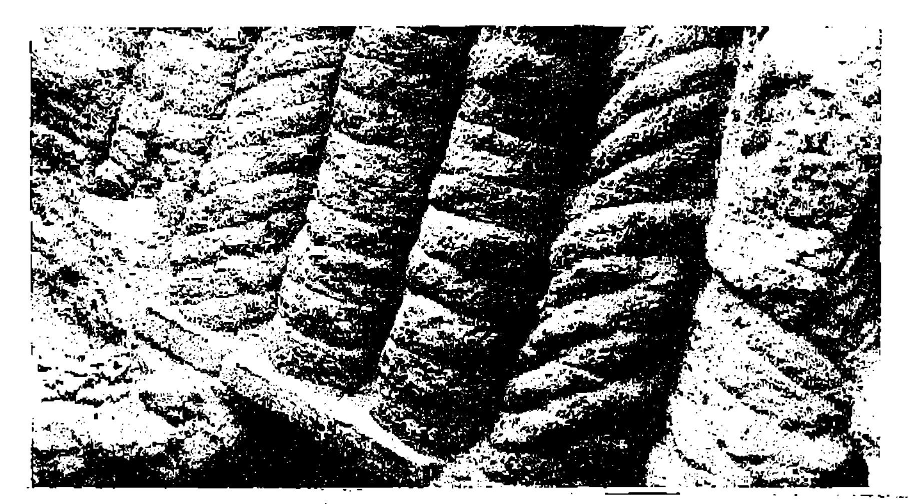
Structure d'un mur réalisé avec des briques plano-convexes à l'époque des Dynasties Archaïques. Ce type de briques utilisé à cette époque se prête surtout à une mise en oeuvre sous forme de piles et d'assises placées chant entre celles-ci (d'ap. DAT I-171).

بنية جدار أشيد بالقرميد بوجهين (مبسّط ومحدّب) في عصر سلالات الارشائيك هذا النوع من القرميد المستخدم في هذا العصر هو جاهز للاستخدام تحت أشكال كومات أو ركائز موضوعة بالجانب بين الآخر.

(راجع د. ا. ت. ١٧١).



من القار (الزفت) المستعمل كملاط في جدار من القرميد المشوي في بابيلونة.



أعمدة نصف ظاهرة ونصف محلزنة ضمن جدار في ملعب داخلي معبد (أي – بابار – لارسا) الألف الثانية. إن ليونة الفخار تسمح لهذا النوع من التزيين سيكون مفيداً ومستخدماً في العصر البرونزي الأوسط ومن ثم الحالي في شمال وجنوب بلاد ما بين النهرين.



استعمال القصب كدعامة في بناء زيقورات في (دور كوريغازو Dur, Kurigalzu) (عكار كوف Aqar Quf).



الطريق التطوافي في بابيلونة مع البلاط المشوي مغطى بطبقة من الزفت.

المواضيع التقنية

لا يمكن ببعض الكلمات استعراض تطور تقنية الهندسة المعمارية ولم يكن هذا التطور اكثر من علاقة بين المادة والفراغ تَكيّفَ مع الزمن بواسطة الرجل الذي هو مجـــال اللعبـــة. ولكن اذا ما توقفنا امام بعض خصوصيات البناء في الشرق الادنى، يمكـــن ان نصـــل الـــى مقياس للتبدلات والابتكارات التي برهن سكان بلاد ما بين النهرين على وجودها .

وقد تبين من نتيجة العثور على الابنية القديمة جدا بأن البنائين لعبوا دورا حاذقا فيمـــا يتعلق بتباين المواد وهذه المعلومة كعرف تقني معروفة منذ القديم. وعلى سبيل المثال نعـــود الى (البيت الدائروي) في "المريبط" من الالف الثامنة، فكان ان أُحضر (الخشب – والفخار – و الحجر) وبعد تنضيدها على انواع أي (الخشب مع الفخار أو الحجر مـــع الفخـــار فـــي الجدران، أُجري عليها عملية الربط فيما بين الدعامات بادخال مادة غريبـــة داخـــل حائطـــة الفخار، وهي كناية عن شكل منجل خشبي. لتقوية صلابته واثبات تلاحمه .

ان طريقة بناء الجدار على اساس جزئين (راقتين) ضمن المدماك الواحد مألوفة وكان يعمل بها منذ الازمنة السابقة. والحقيقة ان مبدأ هذا الفصل كان معروفاً منذ البدء تحت شـــكل جدران من الاغصان ومن فواصل من الجلود المبسطة ولكن العمل يتطلب هنا ايجاد الفـــاصل عن طريق استعمال المواد الصغيرة الحجم مثل الحجارة الصغيرة واجزاء الفخار التي كـــانت يلجأ الى تماسكها مع بعضها أي رباط خاص يوفر الحرية لانجاح هـــذا الفـــاصل وخدمـــة اغراضه بعد ضبط العرض والطول .

وفي كيبريان استخدم دبش الاحجار ممزوجا مع الملاط لمدة ورصفه كحاجز للـــتراب حول الحفر المحفورة في باطن الارض التي كانت تستخدم كسكن للانسان. لم يكن يُشكل هذا الحاجز من الدبش حائطا بمعناه الصحيح، ولكن في عصر "ناتوفيان" اكتسب بنـــاء الحـــائط مفهومه الصحيح نتيجة تكدس المواد وتبعثرها، فأصبح الطريق مفتوحا امام الطرق الهندســـية البدائية .

ان الحدث الرئيسي الذي ابرز هذا التطور، كان اكتشاف صنع قوالب القرميد، وفـــي البدء استخدم الفخار بشكل كتل مشوهة وشبه نظامية كانت تكدس في الاماكن المطلوبة، غير ان الوحل والرطوبة كانتا يؤثران فيه. وبالمقابل يستطيع الفخار عندما يخلط بالميـــاه اتخـــاذ

الاشكال المختلفة حسب الحاجة. بعد ان اكتسبت المعرفة للتكييف ببناء الجدار، ومن احـــدى نتاج هذه التقنية ترك العجينة مدة للنشاف قبل الصاقها لتحقيق تماسك جيد مع المجموع. وقـد حقق العامل خطوة كبيرة نحو الامام عندما استخدم يده في تسوية وتكييف الفخـــار بصـــورة متشابهة رغم اشراكه لبعض المواد المستقلة اثناء عمله للوصول بها الـــى اســتكمال تعليـــة الحائط. وخلال هذه الحقبة من الزمن كان يفتش فيها عن الدبش في كل مكان ســواء فـــي سورية او فـــي فلســطين بيــن منتصـــف الالـــف التاســعة ومنتصـــف الالـــف الســابعة (حقبة ٢ – ٣) كما وصفها "أو – اورانش". ان القرميد المقولب ليـــس الاّ عقلنـــة وتســـويغ للقرميد المكيف أوصلت الى توحيد العيار في الانتاج، وكانت اولى نتائجـــه احـــداث اثبـــات النظرية المتطورة الواضحة حول بناء الجدران. وعلى مـــا يبـــدو ان اول ظـــهور القرميـــد المقولب كان في بلاد ما بين النهرين في عصر "سامراء "الزراعي وقد اشير الى وجودها في تل الصوان، غير ان عصر "اوبيد" حسب (أو –اورنش) وايضا بعض العصور الاخرى ساهم في عقلنة مسائل البناء .

كما ان صنع الكلس والجبصين منذ الالف التاسعة يُعدّ من الاختراعات الرئيسية وقـــد سبق ان اشرنا اليها.

وهناك طريقة اخرى لعرض تطور مسائل البناء وهي الاهتمام بالمساحة المبناة قبـــل التقنية نفسها دون اغفال العودة بشكل مستمر الى شرح وتفسير أي تقنية وافدة ومدى القابليـــة للاخذ بها من حيث الشكل والمادة .

ولا بد من التطرق الى كيفية ايجاد الطابق وهي موضوع مهم سيطرأ مســــتقبلا، لان بناءه يُعد معلومة تقنية جديدة سيكون لها تأثيرا على نمط السكن والوجود. فمنذ زمن بعيد لـــم تعرف الهندسة المعمارية الشرقية أي تطور عامودي في البناء، ولم تبنى كافـــة الابنيـــة الا بطابق واحد. ولكن برهنت التقنيات الاخيرة بأن بناء الطابق أي وجوده كان مألوفا وعاديا في بعض المناطق وحتى في بعض العصور. والجدير بالملاحظة، هو معرفة الزمان ومكان هـذا التواجد. لانه اذا ثبت قيام هذه الطوابق في العصر التاريخي القديم عندئذ يرقى الـــى ذهننـــا بوادر نشوء أول عصر حضاري تواجد بسبب الازدحام وضيق الامكنـــة داخـــل التجمعـــات السكنية. ومن جهة أخرى نملك الثبوتية الاقدم التي تفيد عن بناء بطابقين يعود الـــى الحقبـــة الثالثة عُثر عليه في "بيدها" في فلسطين الجنوبية، ولا تعتبر كحالة شاذة ومفردة، لانه ايضـــا

في (سايوني Cayonu) في الاناضول، وخلال نفس العصر كان قد عُثِرَ على بناء يحمل نفس الخصائص تقريبا، وبزمن لاحق، عثر ايضا على طوابق ضمن بيـــوت فـــي "هاسـيلار – حسونة" او في تل الصوان، وفي العديد من الابنية المماثلة والتي بنيت على طراز الهندســة المعمارية لعصر "اوبيد". وهذا كله يمثل بالحقيقة الطراز الدارج منذ الالف الثامنة ولا يمـــتّ الى أي ابتكار خلال العصر الحضاري .

يمكن الاقرار والقراءة بالتطور التقني عندما تؤخذ بعين الاعتبار المواضيع الترفيهيــة ووسائل الراحة اثناء البناء والمثل حول ذلك هو: موضوع التهوية، فالسكن في البيوت التـــي ليس لها سوى نافذة واحدة (الباب) الذي يجلب النور والهواء لوحده وهذا لم يكن سائغاً ومحبباً في البلاد الحارة في الصيف، خاصة اذا طالت ايام حرهـــا الشـــديد. لان الـــهواء الســـاخن والمحصور تحت سقف البيت يجعل الحياة صعبة ومتعبة جداً، ولهذا اعتاد السكان الى فتـــح نوافذ صغيرة في القسم العلوي من الجدران لتسهيل خروج الهواء الفاسد ودخول الهواء النقي عن طريق الباب، وهذا التجدد كان يتم باستمرار. فهذا النظام كان يمثل الفائدة الاضافية من نور وهواء رطب ملطف كانت تتمتع بها الغرف وجميع الفعاليات الداجنة الاخرى. وبنتيجـــة التحريات المجراة على ابنية عصر "اوبيد" تبين بأن هذا النظام كان يعمل به بصورة اعتيادية.

وقد اتاحت هذه الاكتشافات وغيرها ايضا التأكد بأن هذه الهندسة المعمارية المتوافقـــة تماماً مع الشروط المحلية، حققت وسائل الراحة والفائدة، بعد ان اثبت ذلك أيضا ديمومتها .

ما امكن استخلاصه من هذه المراجعة السريعة جدا حول الانطلاقة التقنية التي مـرت في بلاد ما بين النهرين هو غنى الاختراعات والمبتكرات ما بين الالف العاشـــرة والثالثـــة، تخللها على ما يبدو، بعض العمليات الجانبية في بعض المجالات التقنية خـــلال المنتصـــف الثاني من الالف الرابعة ويمكن اعتبارها بالوقائع التي يمكن ان تسند الى رجال بلاد ما بيـــن النهرين قبل عام (٢٥٠٠)، ومنذ ذلك التاريخ لم يلاحظ في بلاد ما بين النهرين الا القليل من المبتكرات، فيما عدا تقنية الزجاج خلال الالف الثانية، ثم تقنية الحديد قبل الالف الاولى بقليل، كان التضامن كبيرا بين حيوية الفكر المبدع قبل بدء التاريخ، وبين الركود الذي تبـــع ذلـــك، وساد أكثر من الفين عام. ويجب ان لا يقود هذا الاستنتاج الى انكار او التمعن كثيرا حـــول تطور حضارة بلاد ما بين النهرين وحول أزمانها الواقعية جدا.

الوسائل الواجب الاخذ بها لتحقيق بناء [زيغورات Ziggurat]
الذي يشابه بناء المدن في بلاد مابين النهرين
ويعود للالف الثانية والاولى

يبدو ان تحقيق الابنية الضخمة في القديم كان في غالبيته ملطخاً بالتجاوزات وبالافراط. فقد اجتهد (ب . بيلانسكي P, Bielinski) ان يحدد الزمن وعدد الرجال اللازمين لبناء بيوت "زيغورات" ما بين نهرينية. وبعد ان استند على شهادات وثبوتيات اثرية وعلى خصائص الشعوب فقد وضح ذلك بجلاء بعد حساب واسع ومعمق بأن البناء لم يكن يتطلب (٦٠٠) يوما أي اقل من عامين لعمل (٣٣٠٠) عاملا (ثلثهم لم يكن يعمل سوى نصف الوقت المحدد) لاجل بناء "زيغورات" بابيلونة وذلك بعد ان أحصى جميع الاعمال بما يكون ضمنا كلفة الصنع وكلفة نقل وثمن القرميد حتى نهاية استعماله، علما بأن عدد من العمال ذات الرتبة الادنى، يحتاج الى زمن أطول: فلاجل (١٦٥٠) عاملا يتطلب الامر سنتين وعشرة اشهر. وهذا واضح جدا بان جميع هذه الامور عادية لا تحتاج الى أي صلاوة او استثناء، ولاداع للتخيل بضرورة الحاجة الى عشرات الالوف من الاسراء يكدحون خلال عشرات السنين تحت وطأة سياط رؤساء العمال مثلما كان البعض يفرحون بالتحديق بهم .

(ب .بيبا – نسكي P , Bielinski ، غوستاف –دوريه Gustavee – Dore -) وزيغورات بابيلون

الرسم الهندسي المعماري في المجتمعات القديمة – بريل ص٥٩ – ٦٢

تسلسل	الحقبة التاريخية الآثارية	العصور التاريخية	التواريخ من	التواريخ إلى
١	الايبيالوليثيك	العصر:٠: لكيباري.........	١٤ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠
		العصر:١: الناتوفي.........	١٠ ٠٠٠	٠٨٣٠٠
٢	ما قبل العصر الحجري	العصر:٢: ب ب ن.آ(الشرق..	٨ ٣٠٠	٠٧ ٦٠٠
		العصر:٣: ب ب ن.ب(الشرق	٠٧ ٦٠٠	٠٦ ٦٠٠
		العصر:٤: ب ب ن.ب النهائي (الشرق الفرات)	٠٦ ٦٠٠	٠٦ ٠٠٠
٣	حقبة العصر الحجري القديم	العصر:٥: أوائل العصر الحجري ق. السيراميك	٠٦ ٠٠٠	٠٥ ٦٠٠
		العصر:٦: أوبيد -١- في الجنوب.	٠٥ ٦٠٠	٠٥ ٠٠٠
٤	حقبة العصر الحجري المتوسط	العصر:٧: أوبيد -٢- في بلاد ما بين النهرين	٠٥ ٠٠٠	٠٤ ٥٠٠
٥	حقبة العصر الحديث الحديث	العصر:٨: اوبيد -٣-	٠٤ ٥٠٠	٤ ١٠٠
		العصر:٩: أوبيد -٤-	٠٤ ١٠٠	٣ ٧٠٠
٦	حقبة الاوروك	العصر:-: اوروك القديم والمتوسط على مستوى(١٧-١٦)	٠٣ ٧٠٠	٣ ١٠٠
		العصر :اوروك الحديث على مستوى (٥ -٤)	٠٣ ١٠٠	٣ ٩٠٠
٧	حقبة العصر البرونزي ب ١ القديم	- اوروك -٣- (جمدت - نصر في جنوب لينوى - ٥ - من جهة الشمال	٠٣ ٩٠٠	٣ ٧٥٠

٨	حقبة العصر البرونزي ب المتوسط .
٩	حقبة العصر البرونزي ب الحديث
١٠	حقبة عصر الحديد

المواقع الرئيسية	مشاهير الأشخاص
	١- عين - غيف .... Ein Gev
	٢- ملاحة .... Mallaha
	٣- أريحا ومريبط ....
	٤- البيضاء - هاسيلار - سايونو... Cayonu
	٥- بوخراس تشاتال حيوك -جارمو.... Tchatal Huyuk
	٦- الحجي محمد - شوقا مامي... Choga Mami
	٧- أم الدباغية - تبة يلريم ......
	٨- حسونة - حلف - سامراء - ايريدي Eridi
	٩- تبة غاورة.................. Gawra
	١٠- مواقع حمرين العويلي .... Oueli
	١١- أوروك ....
	١٢- أوروك - الحبوبة الكبيرة - كنّاس
	عروضة ....
	١٤- أوروك ....
قلقامش	١٥- أوروك - كيش - تل أسمر
	١٦- أور - أوما - لاقاش......... Lagach
ميسيليم - أور - نانشه - إيناتوم Eannatum	١٧- ماري - إيبلا ....

١٨-	ميسانيبادا ليغالزاغيزي Mesannipada, Lugalzaggizi
١٩- إغادة (موقع غير محقق الهوية ...	سارغون - نارام سين
٢٠- لاغاش	غوديا Gudea
٢١- أور - ماري	أور - نامو
٢٢- اسين - لارسا - ماري - إيبلا - عطشانة Esin	ريــم - ســين - شامشـــــي - أدد زمري سليم
٢٤- بابيلونة (لم يعثر على مستواه	حمورابي
٢٥- دور كوريغالسو ...... Dur Kurigalsu	كوريغالسو-١ Kurigalsu1
٢٦- نوزي - واسوكاني لم يعثر عليه Wassukani	سوستاتتر Saustatar
٢٧ - آشور - نمرود	سلنصر (-١-) توكلتي نينورتا Tukuiti Ninurta 1
٢٨- أوغاريت - إيمار- الالاخ ..... Alalakh	
٢٩-	سلمنصر الثالث -سارغون الثاني
٣٠- آشور - نينوى - دور شاروكين - نمرود ... . Dur Sharrukin	آشور بانيبال
٣١-	نابوبولاسار - نبوخذ نصر الثاني Nabopolassar
٣٢- بابيلونة	نابونيد
٣٣- بيرسيبوليس .... Persepolis	ســـــيروس - داريـــــــوس - اكزيركسيس Xerxes

الفهرس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر